

أسرار ثورة ١٩١٩

يرويها سكرتير سعد زغلول

محمد كامل سليم



أسرار ثورة ١٩١٩

يرويها سكرتير سعد زغلول الخاص

محمــــد كامل سليم



هذا الكتاب

إعادة قراءة كتاب «ثورة ١٩١٩» كما عشتها وعرفتها للأستاذ محمد كامل سليم السكرتير الشخصي لسعد زغلول - عمل ثقافي دقيق يكشف الكثير من أصالة الشعب المصري الذي رفض الاحتلال البريطاني بكل استعلائه واستغلاله وطغيانه وهو يبين أهمية دراسة هذه المرحلة للاستفادة من قراءة التاريخ للأجيال الحالية والقادمة. وبداية لقراءة الثورة التي بدأت قبل مائة عام وامتدت حتى الآن .

الحق يلزمه القوة والاستعداد لحمايته والإنسان المصري له كثير من الميزات مازالت في طور الإعداد والتجويد لم تخرج إلى النور فهل لنا أن نضم هذه الفترة من تاريخ مصر إلى الفترات التالية وحتى فترة ٢٠٢٥ لنضع تصوراً جديداً للإنسان المصري وكيف يستطيع أن يتعامل مع الآخر وفق المعطيات الجديدة للعالم اليوم. مصر لن تتقدم إلا بتلاحم المجتمع وأفراده وقراءة منصفة وموضوعية للتاريخ المصري القديم والحديث دون محاباة ودون مغالاة وفتح القواعد لتكوين أحزاباً قوية وشريفة للتوازن السياسي. الفرصة لأنها مازالت موجودة طالما كانت هناك حياة وكان هناك شرفاء يحلمون ويعملون لصالح الوطن الذي يسكن فينا.

محمد أبو العينين

ابن بنت المؤلف



رقم - ٩٧٠

مايو ٢٠١٩

دار أخبار اليوم

طارق عبد العزيز

التحرير

تامر عـــرفات

عمرو أبو الســـعود

٢٥٧٨١٠٣٧

٢٥٧٥٩١٥٥

٢٥٨٠٩٢٠٦

٢٥٨٠٦٢٧٨

■ أسعار البيع خارج مصر

■ الاشتراكات السنوية

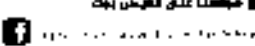
■ الموقع الإلكتروني

http://kitab.akhbarelyom...

■ البريد الإلكتروني

kitabelyom@gm...

■ تابعونا على الفيس بوك





جملة مفيدة

بقلم رئيس التحرير

عندما سألوا الدكتور مصطفى الفقي رئيس مكتبة الإسكندرية عن رأيه في أهم الثورات التي قام بها المصريون خلال القرن الأخير قال دون أدنى تردد: ثورة ١٩. وعندما سأله المذيع اللامع شريف عامر:

أهم حتى من ثورة ٢٥ يناير؟

قال بالتأكيد ثورة ١٩ لأنها كانت معبرة عن كافة أطياف الشعب المصري من مسلمين وأقباط ومن رجال ونساء، وأعقبها تغيير جذري في الحياة الليبرالية المصرية وظهور الوفد كحزب قوي، دخل في معارك سياسية حتى مع الملك ناهيك عن الاستقلال وإن كان منقوصاً. أما في حالة ٢٥ يناير فالوضع مختلف تماماً. انتهى كلام الدكتور مصطفى الفقي.

ما قامت به ثورة ١٩، تجاوز أثره المحيط المصري وامتد إلى كل دول العالم الثالث، وكانت بمثابة النبراس لكثير من تجارب الدول في حربها ضد الدول الاستعمارية.

الآن مرت مائة عام على أحداث هذه الثورة العظيمة. رأينا في "كتاب اليوم" أنه لا يمكن أن تمر هذه الذكرى دون أن نسلط الضوء من جديد عليها، وعلى أحداثها، وعلى ما قام به صناعها.

قد يقول قائل: ما حاجتنا لكل هذا؟



مقدمة

سكرتير سعد زغلول

بقلم: مصطفى أمين

تلقيت خطابا من الأستاذ محمد كامل سليم يقول فيه:

«عزيزي مصطفى أمين وعلي أمين..

وقد سمح الله أن نلتقي مجددا. بعدما تقطعت كل السبل إلا تلاقيا.. وها نحن أولا نجتمع مرة أخرى في رحاب الذكرى العطرة للزعيم الخالد سعد زغلول

رأيتكما أول مرة طفلين صغيرين. والزعيم سعد يداعبكما. في حديقته بمسجد وصيف، وأنا سكرتيره الخاص جالس معكم. أسمع. وأرى. وأستمتع في جو البراءة والحب والحنان.

في هذه الأوراق بيان لما في نفسي من دين نحو الزعيم سعد زغلول. ونحو بلادي مصر العزيزة. سجلت في هذه الأوراق حقائق ووقائع لا ريب فيها. مثل لمن؟ وحسب.

والله يحفظكم ويرعاكم.

المخلص

محمد كامل سليم

قد عرفت سكرتير سعد زغلول وكاتم سره الأستاذ محمد كامل سليم في عام ١٩٢١ منذ أكثر من ٤٠ عاما، كان شابا رقيقا أنيقا، ينبض نشاطا وحيوية، نحيف الجسم، طويل القامة، جم الأدب، الابتسامة لا تفارق شفتيه، يجد دائما كلمة حلوة يقولها للخادم وللزائر، للصغير والكبير فلا تعرف أيهما العامل وأيهما الباشا. فهو لا يميز في ملاطفته للناس بين الطفل والوزير. يبدو وكأنه يحب الناس جميعا، ويرحب بهم جميعا، وينتظرهم جميعا. وإذا امتلأت غرفة انتظار سعد زغلول بالزوار طاف عليهم جميعا بكلمات حلوة كأنها فناجين القهوة أو عصير الليمون!

وكنا يوميا نقيم في بيت الأمة مع سعد زغلول، أو نسافر معه إلى عزبته في مسجد وصيف إذا شاء أن يعتكف ليستعد لهجوم وطني جديد. وكان كامل سليم دائم التنقل بين غرفة السكرتير وغرفة الزعيم. وكان أكثر ما يذهلنا في سعد زغلول في طفولتنا أنه كان في السبعين يعمل في نشاط شاب في العشرين لا يتوقف عن العمل وعن القراءة وعن الكتابة وعن استقبال زعماء الثورة. وكان سعد يعمل في كل وقت. إذا تناول غداءه حرص على أن يكون معه عدد من أنصاره يتبادلون الحديث أثناء الطعام. وإذا تناول عشاءه حرص أن يستبقي عددا من زعماء الثورة يتفق معهم على الخطط والقرارات. بل قد يعجب الناس أنه كان إذا ذهب إلى دورة المياه صحب معه الصحف. يقرأها ويعلق عليها وكان إذا انتهى من إعداد بيان قال لنا هاتوا كامل. فنسرع إلى كامل سليم ونستدعيه ليملي سعد زغلول عليه قراره أو بيانه إلى الشعب. وكنا نلاحظ أن الزعيم يسأل كامل سليم بعد أن يمليه البيان، أو خطبه. فلم تكن تمنعه عظمته وهو زعيم الأمة أن يعرف رأي سكرتيره الشاب الصغير. ويستمع إلى ملاحظاته وأحيانا إلى نقدها

وعندما توفي سعد زغلول في عام ١٩٢٧ دخلت غرفة مكتبه في بيت الأمة، ووجدت اثنين من موظفي مجلس النواب الذي كان سعد زغلول رئيسا له، يرتبان

الكتب، ووجدت في سبت الزبالة كدساً من الكشاكيل والكراسات ألقيت بلا اهتمام..

وسألت الموظفين عن هذه الكشاكيل، فقالوا: إنها كشاكيل بيضاء كانت مقدمة من الكتب، ولا قيمة لها بعد إلقائها في سلة الزبالة، حتى يجيء الخادم ويأخذها مع الأوراق التي لا قيمة لها

وجلست في المكتبة أقلب في الكشاكيل والكراسات المهملة، وفجأة بعد أن قلبت عشرين صفحة بيضاء فيها وجدت أن بعدها تبدأ مذكرات سعد زغلول

ووجدت أن الكشكول ينتهي بعدد من الورق الأبيض الخالي من الكتابة

وكنت أعرف طريقة سعد زغلول في كتابة مذكراته، فقد كان يتوقع أن يعثر الانجليز عليه في أي لحظة، ولذلك كان يتعمد أن يترك أوراقاً بيضاء في أول كل كراس وفي نهاية كل كراس، حتى إذا فتشتها يد غريبة توهم أنه كراس أبيض غير مستعمل

وهكذا كانت أهم مذكرات لزعيم مصر في القرن العشرين تنتهي وتلقى في سلة المهملات

وحملت هذه الكراسات والكشاكيل إلى السيدة الجليلة صفية زغلول أم المصريين، وسلمتها المذكرات فطلبت من وصيفتها فوراً كامى أن ترقمها كلها وكانت بين هذه الكراسات كراس بخط محمد كامل سليم .

وخاصة الكراسة التي تحوي مذكرات سعد عن محادثاته مع ملنر في سنة ١٩٢٠ ومذكراته التي تحوي محادثاته مع رامزي ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٩٢٤ عندما كان سعد زغلول رئيساً لوزارة مصر.

وقد تخرج كامل سليم في مدرسة المعلمين العليا، وبدأ حياته العملية مدرساً، موظفاً فناشراً.

وفي سنة ١٩٢٠ أرسل سعد زغلول من باريس حيث كان يحاول عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح، أرسل إلى عبد الرحمن فهمي رئيس الجهاز السري في مصر يطلب إليه اختيار شاب كفء يجيد العربية والإنجليزية ليكون سكرتيرا خاصا له في باريس.

وكان اختيار شاب ليتولى مثل هذا المنصب الخطير الدقيق، وهو سكرتير زعيم الثورة، يحتاج إلى بحث وروية وتمحيص. وخرج أعضاء الجهاز السري وأعوان عبد الرحمن فهمي يبحثون سرا عن شخص مؤتمن يمكن أن يقوم بهذا العمل الخطير.

وقدموا عدة أسماء.

واختار عبد الرحمن فهمي الشاب كامل سليم، وعرض الاسم على سعد زغلول في باريس فوافق عليه.

وعمل كامل سليم سكرتيرا خاصا لسعد زغلول مدة خمس سنوات ثم عينه رئيسا للإدارة التشريعية بمجلس النواب، واختاره ليسافر معه إلى لندن كسكرتير خاص متمما بأن مفاوضاته مع ماكدونالد وألحق بعد استقالة وزارة سعد، في منصب سكرتير اللجنة المالية ثم سكرتيرا للنحاس باشا أثناء مفاوضاته مع هندرسن، وتولى مهمة الترجمة بين الاثنين.

وبعد إقالة النحاس باشا وتولي إسماعيل صدقي رئاسة الوزارة نقل كامل سليم ليشغل منصب سكرتير اللجنة المالية بوزارة المالية ثم سكرتيرا ماليا لوزارة التجارة ثم عين بعد ذلك مديرا عاما مساعدا لمصلحة المساحة ثم سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء وبقي في هذا المنصب اثني عشر عاما وعمل مع رؤساء الوزراء محمد محمود وعلي ماهر وحسن صبري وحسين سري ومحمود فهمي النقراشي، ثم عاد إلى مجلس النواب كسكرتير عام له أثناء رئاسة عبد السلام فهمي جمعة للمجلس.

حتى إذا تولى أحمد ماهر رياسة الوزارة عينه سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء.

وأذكر أنه في عام ١٩٤٨ فكر في الاستقالة من منصبه كسكرتير عام مجلس النواب، واقترح على الشمسي باشا رئيس مجلس إدارة الأهرام تعيينه رئيسا لتحرير الأهرام. وكانت خبرته وثقافته وعلاقاته الوثيقة بزعماء مصر وإجادته اللغة العربية واللغة الإنجليزية كل ذلك يؤهله لكي يكون رئيس تحرير جريدة يومية كبرى.

ولكنه فضل أن يبقى سكرتيرا عاما لمجلس النواب. إلى أن اختارته مصر ممثلا لها في المجلس الاستشاري لليبيا الذي أشرف على تنفيذ قرار الأمم المتحدة الذي مهد لاستقلال ليبيا.

وكنت عضوا معه في اللجنة التي اختارها وزير الإرشاد لكتابة تاريخ ثورة ١٩١٩، وكان معنا في هذه اللجنة الأستاذ محمود سليمان غنام وزير التجارة الأسبق..

وأذكر أن هذه اللجنة لم تجتمع سوى مرة أو مرتين. ثم بقيت أكثر من خمسة عشر سنة دون أن تدعى للانعقاد مرة واحدة!

ولكني أعرف أن كامل سليم كتب مذكراته عن ثورة ١٩١٩ كما عاشها وعرفها ومارسها من أقرب مكان إلى قيادة الثورة، وهو مركز السكرتير الخاص لسعد زغلول زعيم الثورة!

وفكرت في أن أطبع هذه المذكرات في كتاب. وقالت مراكز القوى بأن الكتابة عن سعد زغلول من الممنوعات وأن من الممكن نشر مثل هذا الكتاب إذا كان يقلل من قيمة سعد زغلول. أو يقول إنه ليس زعيم ثورة ١٩١٩!!

ثم حدث بعد ذلك أن بدأت محاولات للاستيلاء على مذكرات كامل سليم وإخفائها!

وصدر قرار بالاستيلاء على مذكرات كامل سليم!

واتصل وكيل وزارة الإرشاد بكامل سليم يطلب منه تنفيذ القرار وتسليم المذكرات

فقال كامل سليم انه ليس عنده مذكرات، وانما لديه كتاب عن ثورة ١٩١٩ مستعد أن يقدمه للوزارة لتطبعه

وطلب منه وكيل الوزارة أن ينتظر قرارا بالطبع

ومرت سنوات وسنوات دون أن يصدر القرار..

وأخفى كامل سليم مذكراته في مكان مجهول.

ثم جاء ٦ أكتوبر.. وأعلن أنور السادات عصر العبور إلى الحريات.

وخرجت مذكرات كامل سليم من الظلام إلى النور.

وهذا هو الجزء الأول.

مصطفى أمين

سعد زغلول كما عرفته

رجلاً وزعيماً وسياسياً

في أوائل سنة ١٩٠٦، رأيت لأول مرة في حياتي سعد زغلول، وكان وزيرا للمعارف العمومية، وكنت تلميذا في السنة الرابعة الابتدائية، زار رحمه الله المدرسة المحمدية، ودخل على الفرقة التي كنت فيها أثناء درس في النحو، فساد الجو رهبة وروعة لم أشعر بمثلهما قبل ذلك، وبدا على الشيخ المدرس ارتباك تجلى في خوفه. «الأسماء المركبة تركيبا مزجيا مثل حضرموت» وكتب الكلمة على السبورة. فقال له سعد باشا: «ألا تذكر كلمة غير هذه يا أستاذ». وابتسم رحمه الله وسار بين صفوف التلاميذ مخترقا الصف الأول والثاني، ووقف أمامي وقال: «أتستطيع أن تسمعني شيئا من محفوظاتك يا شاطر؟». فقلت: شعرا أم نثرا؟ فقال: «أسمعني ما تشاء». فقلت على الفور:

«حقا لقد انحسر الإقبال وعده ووافق الطالع سعده، وأن المجد بسعد». وهنا فلاطفني سعد باشا مبتسما وقال: «شاطر، لكن يا ابني، هذا ذوق شعري وخيال مصري، وإني أرجو أن أراك في المستقبل بعد أن تتم تعليمك العالي». فشاركته الرجاء ممزوجا بالدعاء.

وقد حققت الأيام رجائه، واستجاب الله تعالى، إذ في أواخر سنة ١٩١٩ وقع الاختيار السعيد علي أن أكون سكرتيرا خاصا لسعد زغلول رئيس الوفد المصري بباريس، وكنت قد فرغت من تعليمي العالي منذ بضع سنوات، واشتغلت مدرسا فوكيلا لمدرسة ثانوية. وصلت إلى باريس ولم تمض ساعة واحدة حتى كنت أمام البناء الشامخ رقم ٢٩ شارع الشانزليزيه، حيث يسكن زعيم مصر. لم آخذ المصعد لصعودي، وإنما آثرت أن أستخدم قدمي إلى الدور الثالث. كمن يؤثر

الحج مشيا على الأقدام، أو بهزل الجسم في غير شهر رمضان عدة رمضانيات لا يتبينهما كثيرون، بل لعلهم منها يسخرون.

وقفت أمام الباب المنشود هنيهة ثم قرعت الجرس، ففتحت الباب خادمة نوبية، فلما أخبرتها من أنا ومن أين أتيت وما مهمتي، أدخلتني حجرة الانتظار، وانصرفت لتبلغ الزعيم في مكتبه. ثم عادت على الفور تقودني، وفتحت لي الباب وانصرفت. ووقفت لحظة أمام ذلك الحرم المهيب، حيث تسكن مصر العزيزة مركزة في شخص سعد زغلول. هي لحظة أو لحظات لا أعرف على التحقيق مدتها، ولكني أذكر منها شيئا واحدا، وهو أنها انقضت وأنا في شبه غيبوبة من فرط الهيبة والإجلال لهذا الأسد الرابض داخل العرين وقد أنحفته مصر بعد طول الهم وسوء الحال. دخلت وسلمت، فماذا رأيت؟ رأيت سعد زغلول نفسه للمرة الثانية في حياتي جالسا ضخما كالطود الشامخ، وإن بدا على صحته هزال المرض الشديد الذي لازمه أكثر من شهر من جراء البرد القارس الذي لا يعرف لدغته اللافحة إلا من أقام بباريس في فصل الشتاء، ولم ينج رحمة الله من عقابيل مرض البرد إلا بعد شهر من وصوله. فقابلني بدءا فتلقاني بالترحيب الكريم وأجلسني إلى جانبه، ثم ناولني فنجانا من الشاي الساخن، وسألني أولا عن حالي وصحتي وسفرتي وما لقيت فيه

هذا وقد علمت فيما بعد أن تقريرا طيبا شاملا سبقني من مصر إلى الزعيم كتبه عني سكرتير الوفد العام الرجل الهمام عبد الرحمن بك فهمي، وما كان أرق سعدا وما أكرمه حين تبسط معي في الحديث عن الأسفار حتى أزال وحشتي وخفف علي هيبة اللقاء. وهنا تجرأت أن أذكره بمقابلتنا الأولى عام ١٩٠٧. ولقد ما كانت دهشتي إذ وجدته تهلل وانشرح وقال على الفور: ولم أنس ذلك قط بل كثيرا ما كنت أروي الحادث كدليل فساد ذوق الاستبداد وعسف ذوي السلطة ما شاء الله، لقد تحقق رجائي وكبرت وأصبحت رجلا تجاهد مع المجاهدين،

وشعرت بأن سعدا رحمه الله قد ازداد إقبالا على رؤيته بي. فشعرت من ناحيتي بالسعادة التي لا يدرك شأوها إلا من قابل سعدا في أوقات سروره وساعات تجليه، ثم سألني عن مصر وأحوالها. وذلك بعد أن استرحت واطمأن كل ما إلى مساعديه. فحدثته ساعة كاملة وهو يصغي في جد وسكون متأثرا. لم يقطع خلالها بكلمة واحدة حتى انتهيت في جو من الجد الخالص الذي لا تخطئه فيه ولا مزح. وبعد هنيهة قال سعد: الحمد لله كثيرا. فقد اطمأن قلبي على مصر وأهلها، كما لم يستطع أي تقرير أو رسالة إدخال هذه الطمأنينة على نفسي. ولقد جددت نشاطي وأنعشتني بمقالك وبيانك. ويمكنك أن تستريح غدا من وعثاء السفر. وتبحث لك عن مكان مناسب لسكناك يكون قريبا مني. ثم أحضر بعد غد لتشترك معنا في شرف الجهاد

كنت منهوك القوى قبل المقابلة من مشقة السفر برا وبحرا في الشتاء. فانصرفت بعد المقابلة مجدد القوى والنشاط كمن أمضى شهرا كاملا في الاستجمام في جبال سويسرا الجميلة المنعشة. وفي صبيحة اليوم الموعود حضرت مبكرا للعمل إلى جانب سعد عملا دام حوالي خمس سنوات متصلة الحلقات.

سقت هذا الكلام الطويل لأكشف به عن قوة ذاكرة سعد فضلا عن إحساسه وحنوه حين يرى للإنسانية والحنو موضعهما. ولأبين كذلك أن حادثا صغيرا كالذي حدث بيني وبين سعد سنة ١٩٠٧ كان له كل هذا الأثر البالغ في نفس هذا الرجل العظيم فزادني إلى نفسه قربا. وزادته في نظري جلالا.

سعد زغلول (الرجل)

عظيم الهامة يعلو رأسه صلع، جريء القلب لم يطرقه يأس ولا هلع، رهيب الطلعة طويل القامة تشعر بجانبه كأنك قزم أو طفل. في صوته رنة عجيبة وفي منطقه قوة ساحقة. وفي فمه فصاحة لافتة. وفي ذهنه سرعة نادرة

فيطلك كل ذلك عن نفسك. وعن التفكير الحر المستقل، وتقصر كذلك كأنك مقيد أمامه بقيود متينة أدق من الخيط. من غير ضيق أو ضغط. رأيت بعضهم كثيرين يذهبون إليه مسلحين بالحجج التي حسبوها دامغة. والأدلة التي ظنوها قاطعة وفي رؤوسهم أفكار بلغت عندهم مبلغ العقيدة التي لا تتزعزع. ورأيت بعضهم يناقشهم ويحاورهم، ويجادلهم ويحاججهم. ويواجههم هنا ويمارسهم هنالك. ثم إذا بعضهم ينساقون بدون عجيب ينفذ إلى قرارة نفوسهم. وإذا بأكثر حججهم هباء إزاء حججه. وإذا ببعض ما أعدوا من الأدلة قد تبخر من رؤوسهم فلم يدلوا به. وإذا أنت معجب بالرجل الإعجاب كله. معجب بمقدرته الكلامية التي تمثله في سهولة ويسر على التعبير عن أدق ما في نفسه في يسر وطلاوة، معجب بحججه المتماسكة عليك في سرعة مدهشة. معجب بهزات رأسه وحركات يده. وضغطه على بعض الكلمات حين ينطقها، معجب بصراحته التي تصدمنا أحيانا، وتكشف الغامض دائما بما لا يدع مجالا لشك أو تأويل. كل ذلك يشعرك أنك أمام شخصية فذة ممتازة لا يسعك إلا أن تكبرها وتنظر إليها في غبطة وإجلال.

كنت أتشاوق اللقاء مع سعد رحمه الله أكثر أيام الأسبوع حينما أقام وحينما نزل- في باريس ولندرا وغيرهما وأكثر أيام المنفى والرحلات بمسعد بصحبته ومنها مالطة وجبل طارق. الأمة. كثيرا جدا ما كان يحدثني عن رأيه في كل عضو من أعضاء الوفد وفي كل رجل يهمني أن أعرف رأي سعد فيه. وكنت أدون في مذكراتي الخاصة آراءه حال خروجي من حضرته أو عودتي إلى حجرتي.

سألته مرة عن رأيه في عبد العزيز فهمي، فقال: ما رأيت رجلا مغرورا بنفسه في تواضع، ولا خبيثا في صالح، ولا عسوفا في عادل ولا كذوبا في صادق، ولا جبانا في شجاع، ولا متقلبا في ثبات، ولا مرتبكا في سريع أكثر من هذا الرجل.

ثم سألته: وما رأيك في مصطفى النحاس وعدلي يكن ولطفي السيد؟ فقال: الأول- مصطفى النحاس- رجل ذو قلب طيب وميدأ ثابت، يميل إلى

الثرثرة ولكنه خفيف الروح، به خفة ودعوبة، يميل إلى الخيال، سريع الانفعال، ولكنه لا ينتصر بتغير الأحوال، وطني مخلص وهو فقير مفلس، ذكي غاية الذكاء، وفيٌّ كل الوفاء، وله في نفسي مكان خاص.

والثاني - علي بكر - رجل حيي في أخلاقه وتصرفاته ولا يفهم الوطنية كما نفهمها وهو عملي واقعي، يرى المكان فيسعى إليه، والصعب فينصرف عنه، لا يفهم المثل العليا ولا يعرف الشخصية كيف تكون، وهو أعجز عن أن يؤدي للحركة الوطنية خدمة فكرية أو لسانية، وبعده عنا خير من قربه.

والثالث - لطفي السيد - متواضع في كبريائه، مبالغ في حبه، قوي في عجز، ماكر في بساطة، ثقيل الكلام كثير التفكير، واسع الصدر، بليغ القلم والبيان، متسامح غير متعصب وعنده في نفسه أحسن رأي.

وسألته عن رأيه في عباس العقاد فقال:

أديب فحل، له قلم جبار، ورجولة كاملة، ووطنية صادقة، واطلاع واسع، ما قرأت له بحثا أو رسالة في جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب، وهو لا يعالج موضوعا إلا أحاط به جملة وتفصيلا إحاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد، وله أسلوب أدبي فريد.

وسألته عن رأيه في عبد القادر حمزة فقال:

صحفي مطبوع، يجمع في أسلوبه الهادئ قوة عجيبة على الإقناع، في جمال وإبداع لا أعرف لها مثيلا في صحفي سواه، وله أسلوب هو السهل الممتنع الذي لا يجاريه فيه إنسان.

وكان سعد رحمه الله رجلا ناضجا كل النضج، مثقفا ثقافة عربية إسلامية أكثر منها غربية حديثة، وإن كان له من هذه النصيب الأوفر، ولقد بلغ من أمر ذلك النضج أنه كان يجمع الحكمة والكلمة الجامعة عبر مساق أحاديثه وكتاباته، ولا أذكر بعض ما سمعته منه:

١- لا أمل على حمق صاحبه من محاولة التظاهر بما ينافيه.

٢- أعذر من عيوبك ما تعذر من نفسك

٣- قد يجني على المرء اجتهاده. غريب إنسان أدت شدة حرصه على التظاهر بما ليس فيه إلى انكشاف حاله.

٤- لا تطلب عورات الناس، ولا تتصدى لكشف سوءاتهم، فما أنت بأبرئهم من العيوب، ولا بأخلاهم من الذنوب.

٥- أكثر خطأ الإنسان أنه من جهة قدر نفسه، ولذلك كان العارف بقدر نفسه في رحمة من الله.

حضرت مرة جلسة من جلسات مجلس العموم البريطاني، فلفت نظري فيها القصد في الكلام وانعدام الجدل وقلة المناقشات. فكتبت إلى سعد ووصفت له ما رأيت تفصيلا وسألته: أيهما أكثر إقناعا: قلة الكلام أم كثرته؟ فأجاب سعد: «إن الإكثار من الكلام يبعده عن الإقناع. ولقد ظهر لي أن قلة الكلام أنفع من كثرته لأنه أبقى في الذاكرة، وأثبت في النفس، ويلزم المتكلم أن يراقب السامع، فلا فائدة من كلام المتكلم مع ملل السامع، ولا من التفاصيل الكثيرة لأنها كثيرا ما تضلل وتتعب. وعلى المتكلم أن يخير سامعه إذا استطاع، وهو كلما اعتمد على حسن تنبهه وذكائه واستدعاه إليه وكلما استحسن منه ملاحظة زاده إقبالا على فكرته. ومن الناس من يسألك حتى فيما أنت متفق فيه معه، وذلك عناد منه وحمق في المبالغة.»

سعد زغلول الزعيم

زعامة سعد زعامة قوية بالغة القوة مبيتة غاية لعمل فهو زعيم مطبوع ولو حاول ألا يكون زعيما لأعجزه ذلك وأعياه.

وصلت إلى باريس قبيل الوقت الذي وصلت فيه لجنة ملنر إلى مصر، فلما أخفقت في مهمتها همت بالعودة إلى بلادي، فأملى عليّ سعد نداء إلى الأمة المصرية أعده بنفسه. نداء قويا مؤثرا أسجله هنا لجماله وجلاله

بني وطني الأعزاء:

« رجال منكم يرضون عن بعد عملكم، ويضربكم بأيديهم نواب الشقاق عنكم مما تحدون فيما تفاخرون، ونتطلع ألا تأتون في هذه النهضة من آيات الاتحاد وجميل الصبر وما تدعون. فإنكم أنتم قد جليتم الضرر، وكشفتم المحنة، وانتهتم بها أيها بهنة أرت العالم في مشارق الأرض ومغاربها أن من رموز الصبر والثبات ومعصية الأخلاق، كانت لبعض ميلاً، وأشد لبعض. رأيتم نضالكم، وتفاخرتم على مقاطعة النظاميين وبمحاكمة المعروزين. وأتيتم في هذا التصادم شأن الكرام، وأنتم عزل، لا معين لكم إلا قوة يقينكم، ووضوح حقكم، واحترام الحد المشروع في أنظمة بلادكم. فارتد الخصم على عقبيه، عاضاً من علوائه عاصياً على أنامل الندم، على ما رأى من تبدل الحال وتصرم الآمال، وانطلقت أقلام الكاتبين حتى في بلاده، فانقلبت صحفهم منكم من الزراية إلى الرعاية، ومن المناقشة إلى الملاطفة، ومن معرة الترهيب إلى مأباة الترغيب. فبارك الله فيكم. شعبتم أنفسنا من وجدها، وسكنتم قلوبنا من وجيبها، ورفعتم لكم ولا عقابكم في سجل الحرية ذكراً لا يبلى، ووضعتم في بناء المجد حجراً لا يبلى وترحمتم على أبكم الأبناء البررة لأولئك الأسلاف الخالدين. ألا فليهنأ العاملون وفي سبيل الوطن ما لاقيتم وما أنتم ملاقون، ولا رحمة لله تلك الدماء الطاهرة التي أراقها بالظلم أعداء الحق. ألا فاصبروا وصابروا فإن الحق قديم ويبقى ثابتاً، والباطل حادث يمضي هباء، ويذهب جفاء، وليس مصيره »

زعامة سعد قامت على أسس متينة من الشخصية القوية وصفاء الوطنية والفصاحة الدافقة والصراحة الساحرة والحيوية الباهرة، والشعور الكامن بالواجب، والثقة البالغة بالنفس، وامتلاك ناصية اللغة، والمنطق المحكم، مع النضج المبكر.

اجتمع إلى سعد مع كل هذا قدرة عجيبة على قيادة الجماهير، وفهم تام

لسياسة الأمة. وإدراك سعد لأمانيهم في البناء، فاستطاع أن يؤثر فيه بمقدار ما أثرت فيه، شهدت ذلك بنفسي ودرسته عن كثب. فقد قضيت مع سعد في صميم الريف في قرية مسجد وصيف قرابة ثلاثة أشهر من صيف سنة ١٩٢٦. وكانت الوفود تسعى إليه أفرادا وجماعات كل يوم من شهر أغسطس.

وكان سعد يخاطبهم في غير ملل أو تعب أو شكوى. وكانت خطبه بالعامية في بعض الأحايين ينزل إلى مستواهم في أول الأمر ثم ينهض بهم مدارجة إلى مستواه العالي في التفكير والشعور والتطلع إلى الأشياء.

وقد مرت بسعد، وهو زعيم، أزمات حادة أقضت مضجعه. ولا أذكر على سبيل المثال ما حدث له أيام وزارة زيور باشا التي ألفت عقب مقتل السردار. فقد ساد البلاد جو خانق كجو الأحكام العرفية. وقبض على الأبرياء، وزجوا إلى السجون لأوهى الشبهات. وفي طليعتهم الدكتور ماهر والأستاذ النقراشي. وكان سعد يحبهما ويثق بهما. أخلص حب وأكمل ثقة. ويحزن لمصيبتهما أشد الحزن. وأخذ كثيرون من أنصاره ينفضون من حوله، أو ينقطعون عن زيارته. دخلت على سعد يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٢٥ وهو في هذه الحالة النفسية المتعبة، فوجدته وحده في مكتبه الداخلي في بيت الأمة يطالع كتاباً. ولن أنسى ما حييت ما لاحظت عليه من الحزن الأسود والألم الأليم. سألني عن الحالة العامة فأنبأته بما أعرف. وتعمدت أن أضمن حديثي ما يدعو إلى الأمل والتفاؤل حتى أدخل على قلبه الكبير شيئا من الطمأنينة والسكينة. فابتسم ابتسامة فاترة كانت على الألم أدل منها على أي شيء آخر، وقال: اسمع يا كامل؛ لقد قدرت الناس حق قدرهم. وهو أشد لدي من كانوا أكثر الناس حماسة وأشدهم غيرة. ومن بقي معي منهم موجودين، إما جبناء أو تورطا، وإما لعدم وجود وسيلة أخرى. وهي مصيبة ليس لها إلا الله. ثم قرأ لي رحمه الله ما كتبه في مذكراته الخاصة في هذا اليوم. فلم أجد سوادا في كل ما كتب سعد يلبسا أشد حلكة مما كتبه في ذلك اليوم.

على أن سعد إيمانا بالله لم يتزعزع في وقت من الأوقات. لقد حزن سعد قبل ذلك لفقد العزيز عندما مات عبد الرحمن طه فهمي سكرتير الوفد في مصر وقال لي في حسرة وكمد: هذا رجل وطني عظيم ونافع ونشيط ولن يستطيع أحد أن يملأ مكانه في لجنة الوفد، ويسد الفراغ الذي كان يشغله. لا عندي ولا اللجنة. فلا حول ولا قوة إلا بالله».

وحزن كذلك عندما أقالت الوزارة العدلية، وأمد الناس بتصحيحه بتأييدها مما لا حاجة إلى تفصيله في هذا المقام.

وحزن سعد قبل ذلك عندما عرض المعارضون مشروع ملنر في مصر بطريقة كانت إلى التمجيد والتأييد أقرب منها إلى الشرح والبيان. ففي يوم ١٠ يناير سنة ١٩٢١ قرأ علي سعد ما كتبه في مذكراته الخاصة ذلك اليوم، فسألته أن أنقل منها الجملة الآتية لأني أعجبت بروحها وأسلوبها، وأردت أن أضعها في مذكراتي الخاصة. فقبل رحمه الله وأملى علي بنفسه هذه الجملة وهذا نصها.

«هل نسيت الأمة هزال جسمها ترضى بما كانت ترفضه. وتقبل هذه الحماية بعد أن نفخت روح الاستقلال. إنني لن أسقط مع الساقطين، وأتعثر في الحماية بعد أن كانت وصول الاستقلال. لأن يتركني قومي خير من أن أتركهم. ولأن يبقى قومي يناضلون خير للأمة من أن تنزل مع النازلين. ولأن يقال تخلى عنه قومه خير من أن إنه قصر بهم واستعبدهم. وإذا عجزت الآن عن العمل على كل حال خير من الغد».

حزن سعد كثيرا ولكنه لم ييأس قط. وكان الإظلام الذي يعلوه كسحابة صيف لا تلبث أن تنقشع. وذلك لشدة إيمانه بالله وثقته بنفسه واعتداده بها.

ولقد سمعته مرارا وتكرارا يقول:

«أعتقد اعتقادا تاما أن الله العادل لا يريد بي إلا كل خير. فقد أمر مني دائما من أحرج المواقف. وهو يوفقني دائما إلى ما فيه المصلحة العامة».

هذا هو سعد الزعيم الصبور والحلم، إيمان بالله وشخصية فذة واسعة الصدر، ووطنية رفيعة، وشجاعة نادرة، وإرادة صلبة لا تلين، ولا تستكين، وأسلوب بليغ لا يعادل سحره إلا قوته، ولا تفوق بلاغته إلا سمو المعنى الصادق الذي يستمد منه هذا البيان ويستمد منه هذا الإيمان

سعد زغلول (السياسي)

كان سعد كما بينت رجلا كامل الرجولة، وكان زعيما مطبوعا، ولكنه كان سياسيا مصطنعا، ولسعد العذر كل العذر، فالزعامة صفات ومواهب، والدبلوماسية التزامات ومواهب، وشتان بين هذه وتلك.

الزعيم رجل الشعب، والدبلوماسي [أي المحترف للسياسة احترافا لا تشغفا] هو رجل الصالونات، يحل المشكلات بالمساومات

والزعامة أخلاق وإرادة ومقاومة، والسياسة مداراة وملاينة ومساومة. الزعامة صلابة ومثابرة وثبات والسياسة مرونة ومناورة وتقلب

والزعامة مبادئ وعهود تبرم فلا تنقض، والسياسة انتهاز للفرص وعهود تبرم ثم تنقض.

والزعامة خطابة وإثارة وصراحة، وعمل صاخب في وضح النهار، والسياسة مفاوضة، وتمسكن وتكتم، وعمل هادئ وراء الأبواب.

والزعامة جد لا هزل فيه ولا مجاملات، والسياسة جد وهزل ومجاملة ومجاملات.

والزعيم يخدم الحق، أو ما يعتقده حقا، والحق دائم لا يتغير بتغير الأوقات، والسياسي يخدم المصلحة، أو ما يظنه مصلحة، والمصلحة وقتية تتغير بتغير الأحوال والمناسبات

والزعيم يكره المساومة ولا يحتملها إلا على مضض وفي ألم، والسياسي يهوى المساومة وينتظرها ويتلقاها من غير ملل أو برم.

من يخالف الزعيم يتعرض لغضبه أو حقده ويستحق في نظره الإقصاء أو الإعدام لأنه يعتبره متمرداً أو مارقاً أو ماشاً ومن يخالف السياسي يتعرض لاستمالته، ويعتبره حراً في وجهة نظره، فيقابله ويجالسه ويلاعبه في الأندية من غير حرج.

هذه صفات الزعامة والزعماء، وهذه صفات السياسة والسياسيين. وكانت صفات الزعامة كلها من مقومات سعد ماثلة في الحالة

فهل كان ينتظر منه أن يجمع بين النقيضين، ويتقمص جسمه روحين مختلفين ويكون زعيماً وسياسياً في وقت معاً

إنه إذن تكلف الطبيعة شططاً وتطمع منها بالمحال.

كان سعد رحمه الله يفهم السياسة على أنها قضية من القضايا، تحل على أساس من الحق والعدل، وكان سلاحه الماضي بل سلاحه الوحيد في حلها، الصراحة والمنطق، فصاحب الحق في نظره يجب أن يأخذ حقه كاملاً، وغاصب الحق يجب أن يرده إلى صاحبه غير منقوص. هذا جميل بل بديع، ولكنه فهم الزعماء للسياسة، لا فهم السياسيين، ذلك لأن السياسي لا يعرف شيئاً كاملاً، ولا ينتصر شيئاً غير منقوص، وحسابه كله قائم على المجاملات، فالمساومات، فالمهاودات لحل المشكلات.

فالسياسة وحسابه هذه أخذ وعطاء، وأما الزعامة فأخذ من غير عطاء. ومهما يكن من أمر فإن من حسن حظ القضية المصرية وهي في أول أدوارها وأولى خطواتها أنها ظفرت بهذا الفهم وعولجت على هذا الوضع، حتى نضجت وازدهرت، وأينعت ثم أثمرت. كما نضج المصريون بعد أن كووا بنار الجهاد، واستمروا في أتونه، وأصيبوا بالحرمان في أرزاقهم وأمراضهم وبالأذى في عواطفهم وأرواحهم، ثم خرجوا إلى الاستقلال وهم أصلب ما يكونون معدناً، وأعمق شعوراً وأكثر نضجاً، وأوسع أفقاً من ذي قبل

وسعد بشكله العجيب، ومنطقه المرهوب، وحظه الموهوب. كان يدرك ذلك كله في صميم نفسه، ولكنه لم يرد بل لم يستطع أن ينقلب سياسيا من طراز الدبلوماسيين. وهل يستطيع السياسي من هذا الطراز أن ينقلب عنها بمجرد الرغبة أو الاشتهاء، وأنف الطبيعة في الرغام؟ كلا، ثم كلا.

على أني أعتقد اعتقادا جازما أن سعدا لو خير في هذا الانقلاب ما اختاره. ذلك لأنه كان يؤمن ايمانا عميقا أن الحق هو القانون الأزلي للمعاملات بين الناس. حتى جاء السياسي مدفوعا بالنعرة القومية أو المطامع الاستعمارية، وخرج على هذا القانون الأزلي فوجب أن نرده بالقوة ان كنت قويا، أو تجادله بالحق المتين، والبرهان الرصين، والمنطق المصرح إن كنت ضعيفا.

حسب سعد نجاحا في ميدان السياسة أنه استطاع قبل أن ينتقل إلى جوار ربه أن يشهد ثمرة سعيه العظيم، فقد شهد شعبا مؤتلفة، ومشوقا متحدة، وأهواء راقدة، وأحقادا خامدة، وأحزابا متوحشية وكان على رأس البلاد وزارة ائتلافية أو وزارة اندماج كما يسميها رحمه الله.

وحسبه فخارا أن كان هو على رأس مجلس النواب، مجتمع ممثلي الأمة المختارين. فكان بذلك في مركزه الطبيعي الأصيل، من الزعامة والقيادة والهداية وعاد المصريون بفضل الوطنية، وعشنا في الوطن اخوانا، ومن العمل اعوانا.

احسن الله عزاء الأمة عن فقيدها الغالي.

وأحيا بين ابنائها مثله العالي.

محمد كامل سليم

الفصل الأول

قيام الحرب العالمية الأولى



في ٢٨ من يوليو عام ١٩١٤ بدأت الحرب العالمية الأولى بإعلان النمسا الحرب على الصرب وذلك بمناسبة اغتيال ولي عهد النمسا وزوجته في مدينة سراجيفو بيد أحد الإرهابيين من أبناء الصرب فتأزمت العلاقات بين هاتين الدولتين إلى الدرجة القصوى وتكهرب الموقف الدولي في جميع أنحاء أوروبا، ولم تمض أيام قلائل حتى تداعت الأحداث الجسام وتلاحقت في سرعة مذهلة

فقد أعلنت روسيا الحرب على النمسا (انتصارا للصرب)

وأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا (انتصارا للنمسا).

وأعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا والنمسا (لمساعدة روسيا)

وفي ٤ من أغسطس دخلت بريطانيا الحرب إلى جانب فرنسا وروسيا والصرب ضد ألمانيا والنمسا. ثم انضمت اليابان فإيطاليا إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا والنمسا

وفي ٥ من نوفمبر دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان وإيطاليا.

وفي ٦ من نوفمبر أسرعت بريطانيا إلى إعلان الأحكام العرفية على مصر كلها مع فرض الرقابة الشديدة على جميع الصحف والمجلات والمراسلات البريدية والبرقية.

ونزل الجنود الانجليز إلى الشوارع والميادين تنشر جوًا من الإرهاب، وشل كل حركة للشعب الساخط

و في ١٨ من ديسمبر أعلنت بريطانيا الحماية البريطانية على مصر. وسأفصل كل ذلك تفصيلا فيما بعد.

وفي خلال تلك الفترة اتسع نطاق الحرب، فدخلت دول عديدة إلى جانب بريطانيا وفرنسا وروسيا، نخص بالذكر منها بلجيكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا والهند. وبهذا تحولت الحرب إلى حرب عالمية لم يسبق لها مثيل لاسيما بعد أن دخلت الولايات المتحدة في ٦ من ابريل ١٩١٧ إلى جانب الحلفاء ضد الدول الثلاث ألمانيا والنمسا وتركيا وبهذا رجحت كفة الحلفاء رجحانا عظيما وسريعا..

ومع ذلك ظلت رحى الحرب دائرة إلى أن عقدت الهدنة في ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وأعلن النصر للحلفاء.

والآن أبين ظروف الواقع في مصر وتطورات الأحداث بشيء من التفصيل أو بعبارة أدق وأكثر تحديدا، أبين ماذا فعلت بريطانيا بمصر أثناء هذه الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى قيام الثورة المصرية الشريفة بثورة ١٩١٩ لكي تبرز الصورة واضحة تتكامل في إطارها الطبيعي الظاهر المحدود تتناول الإجابة والبيان في النواحي الخمس الآتية

الأولى: مركز مصر من الناحية الدولية

الثانية: مركز مصر من الناحية الواقعية.

الثالثة: أهداف الاستعمار البريطاني في مصر.

الرابعة: سلوك بريطانيا وتصرفاتها في مصر قبل دخول تركيا الحرب.

الخامسة: سلوك بريطانيا وأفاعيلها في مصر بعد دخول تركيا الحرب

مركز مصر من الناحية الدولية

١ - مصر دولة مستقلة:

منذ عام ١٨٤١ إلى منتصف عام ١٨٨٢ كانت مصر عمليا دولة مستقلة باعتراف الدول التي أقرت هذا الاستقلال وسجلته في معاهدة دولية هي معاهدة لندن المبرمة في عام ١٨٤٠، فكانت مصر طوال ٤٢ عاما تدير شئونها بنفسها من غير أي تدخل من أية دولة أجنبية ولم يكن على هذا الاستقلال إلا قيد واحد هو قيد السيادة العثمانية وهو قيد لم يكن في الحقيقة ذا بال ومع ذلك ظلت هذه السيادة تضعف بالتدريج بالتساهل والتفكك، ولم تكن في الواقع إلا نسبة ضعيفة لتظل إلى أقصى حد ومظهرها الوحيد مبلغ من المال تدفعه الحكومة المصرية إلى الحكومة التركية سنويا وقدره ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية ولا شيء غير ذلك.

مركز مصر من الناحية الواقعية

٢ - مصر دولة محتلة:

مستقلة قانونيا وصوريا وتحت حماية بريطانيا محتلة فعلا وواقعا.

ففي ١١ من يوليو عام ١٨٨٢ اعتدت بريطانيا على مصر اعتداء عسكريا ودمرت مدينة الاسكندرية بقنابل أسطولها، وبدأت عمليات الحرب والمعارك الحربية التي انتهت باحتلالها لجميع الأراضي المصرية بعد انتصارها على زعيم مصر أحمد عرابي الذي استسلم في النهاية. وكان لهذا الاعتداء المسلح أسباب بعضها مستور وبعضها منشور. أما الأسباب الحقيقية المستورة فهي شهوة الاستعمار البريطاني وأطماعه ورغبته في الاستيلاء على مركز جغرافي استراتيجي من الطراز الأول والاستمتاع بما في مصر من خيرات وموارد وثروات.

أما الأسباب الزائفة المنشورة فهي الرغبة في توطيد عرش الخديو بقمع الثورة العرابية والمحافظة على أرواح الأجانب وسلامة ممتلكاتهم وإعادة الأمن

والنظام إلى نصابهما. هذا وقد أعلن في أول يوم له احتلال مؤقت ينتهي بانتهاء تحقيق الأهداف التي ذكرناها، ولكنه إعلان زائف قائم على الخداع وذر الرماد في العيون كما سنثبت ذلك بالقرائن والأدلة الحاسمة التي تفصح أن الانجليز كانوا يبطنون غير ما يعلنون، ويفعلون غير ما يقولون. وكانت كل أعمالهم وتصرفاتهم، تنطق بعزمهم على البقاء والاستقرار ودوام الاحتلال ولا تنم عن أقل رغبة في إنهاء الاحتلال وقرب الجلاء.

وفيما يلي بيان موجز لسير نياتهم وتصرفاتهم وأفاعيلهم؟

(١) لم تمض خمسة أيام من دخولهم القاهرة محتلين حتى أزالوا الجيش المصري من الوجود، إذ استصدروا مرسوما من الخديو توفيق بحله وإلغائه وتشريد جنوده وضباطه إلى قراهم، وتجريد معظم ضباطه من رتبهم العسكرية وحرمانهم من كل حق في المعاش

(٢) ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمت محاكمة عرابي وأصحابه وتم نفيهم من مصر إلى جزيرة سيلان في ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٨٢. ثم بدىء في إنشاء جيش مصري جديد صغير وعلى رأسه ضابط من الانجليز وعدد قليل من الضباط المصريين ثم بدأت عمليات السيطرة على أوسع نطاق. على قوات البوليس والأمن في القاهرة والاسكندرية وبورسعيد، وذلك بتعيين حكمدارين وعدد كبير من المفتشين والضباط البريطانيين وإنشاء مكاتب للمخابرات- أي التجسس كما تمت في هذه الفترة الوجيزة، سلسلة من الإجراءات الخطيرة. فألغيت البحرية المصرية، وجميع المصانع والمصانع الحربية كما ألغيت كل القوانين الخاصة بالإصلاحات العسكرية التي سبق أن طالب بها العرابيون في إلحاح وإصرار حتى حصلوا عليها. ثم ألغى مجلس النواب وانتهى الحكم الديمقراطي في مصر. ولم يكتف الانجليز بهذا كله في خلال ما سموه بالاحتلال المؤقت بل اتجهت نياتهم وبرزت جهودهم نحو تغيير نظام الحكم في البلاد وإنشاء نظام جديد يمكنهم

من دوام السيطرة عليه وعلى الأداة الحكومية بعد ظهورها، فأسرعوا بتعيين مستشارين بريطانيين فى جميع الوزارات وتعيين عدد كبير جدا من الموظفين الانجليز فى كل المصالح والادارات الحكومية فى جميع الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية وذلك للاشراف على سير الامور يوميا وفق اراداتهم وأهوائهم.

(٢) وفى الشهر الرابع من الاحتلال شعرت بريطانيا بأن الدول ولاسيما تركيا وفرنسا بدأتا ترتابان فى نياتها وتتوجسان خيفة من تصرفاتها فعصبت الملكية. وهنا سارع وزير الخارجية البريطانية لورد جرنفيل إلى ارسال برقية إلى الدول فى ٣ من يناير ١٨٨٣ هذا نصها:

«انه وان كانت القوات البريطانية مازالت باقية فى مصر حتى الآن لصيانة النظام العام فإن حكومة جلالة الملكة تنوى سحبها عندما تسمح بذلك حالة البلاد وتسمح بوسائلها الخاصة بتثبيت سلطة الخديو .. وإلى أن يجئ ذلك الوقت فإن مركز حكومة جلالة الملكة بإزاء سموه يقضى عليها بيذل النصائح لتتأكد من أن النظام الذى سيوضع يكون مرضيا ويحتوى على عناصر الاستقرار».

ونصائح هذه كلمة ناعمة جدا فى العرف الدبلوماسي البريطاني. ومعناها فى الحقيقة والواقع أوامر ملزمة لابد من قبولها وتنفيذها، والدليل على ذلك برقيته الثانية التى بعث بها هذه المرة إلى ممثل بريطانيا فى مصر حين رفض شريف باشا رئيس الوزارة المصرية النصيحة البريطانية التى تهدف وتقضى باخلاء السودان أى بسحب جميع القوات العسكرية المصرية من جميع نواحى السودان وكان عددها حوالى ٢٥ ألف جندى كاملى العدد والسلاح ونقل جميع الموظفين المصريين والأجانب واعادتهم جميعا إلى مصر.

وهذه البرقية تكشف بغير مواربة أو تحفظ النيات البريطانية فى اخضاع الحكومة المصرية لمشيئتهم وتنفيذ كل رغباتهم ومصالحهم وأوامرهم. وهذا هو أهم ما ورد فيها

ما دام الاحتلال البريطاني الوقت موجودا في مصر فإن من الواجب أن تتأكد الحكومة البريطانية من قبول نصائحها في المسائل الهامة التي تتصل بها إدارة مصر وسلامتها من الخطر. هذا ويجب على الوزراء المصريين والمديرين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة على كاهل الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التي تراها - ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقاً لهذه السياسة وأن الحكومة البريطانية لواثقة من أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين سواء ممن شغلوا منصب الوزارة من قبل، أو شغلوا مناصب أقل درجة، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التي يصدرها إليهم الخديو بناء على نصيحة الحكومة البريطانية»

وهنا ظهر أثر هذه البرقية فورا. فاستقال شريف باشا من رئاسة الوزارة. وتولى الرياسة مكانه نوبار باشا الذي أصدر الأمر فورا بإخلاء السودان.

(٤) ولم يمض عام واحد على الاحتلال حتى تمت للمحتلين السيطرة الكاملة الشاملة على الجيش والبوليس وجميع الوزارات وجميع المصالح الحكومية لا في القاهرة والإسكندرية وحدهما بل في جميع المديريات في أنحاء البلاد. واستقر الأمن والنظام وتوطد عرش الخديو وزالت جميع الأسباب الظاهرة والمستورة التي زعموها وادعوا بأنها أغراضهم من هذا الاحتلال.

فأين الجلاء...؟

ولماذا يظل الاحتلال البريطاني قائما في البلاد ؟

ماذا بقي لهم من الأهداف والتعلات؟ لا شيء.. ولكن من عادة المستعمرين أن يستروا نواياهم بالوعود الكاذبة وزخارف الأباطيل وهم على نية الحنث بها من اللحظة الأولى.

(٥) مضى عام وثان والاحتلال البريطاني جاثم على صدر البلاد يبسط

سلطانه ويشدد قبضته على كل مرفق من المرافق العامة ويوغل ويستقل في كل شيء ويسيطر على كل ناحية ويملي إرادته على كل كبير في البلاد.

وظلت مصر تترنح تحت الضربات المتلاحقة حتى فقد المصريون قوتهم المعنوية في تلك الحقبة السوداء التي عانوا فيها سلسلة من الهزائم وخيبة الأمل. ورأوا زعماءهم ما بين منفي وسجين. ورأوا أعداءهم وفي أيديهم كل الأمر والنهي والسلطان والأمين.. وكانت الدول تنظر وتعجب ولا تتحرك. وكانت فرنسا وحدها ومن ورائها تركيا المتصادقة ترقب في كمد وتتذمر من بريطانيا بتحديد تاريخ معين لاتمام هذا الجلاء المؤقت الموعود.

(٦) ولم يكد يبدأ العام الثالث من عمر الاحتلال وبدأ معه شعور الحكومة البريطانية بأن مركز بريطانيا في مصر أصبح غير معقول ولا مقبول وأنه طال أكثر مما يجب حتى في الشكل لاسيما وقد وصل إلى علمها أن بعض الدول الأوربية أخذت تتشاور وأن الحكومة الفرنسية أوعزت إلى سلطان تركيا أن يقدم احتجاجا على استمرار الاحتلال البريطاني في مصر وأن الحكومة الفرنسية نفسها في وحدته بالتأييد والمساندة. فأسرعت الحكومة البريطانية إلى إرسال سير هنري درموند ولف إلى الآستانة في شهر أغسطس من عام ١٨٨٥ لمفاوضة الحكومة التركية في مسألة إنهاء الاحتلال. وبعد شهرين اثنين من اتصالاته بالمسئولين في الحكومة التركية وضع مشروع اتفاق في ٢٤ من أكتوبر ويتضمن

أولا: تعيين مندوب بريطاني ومندوب تركي ليسافرا إلى مصر للتشاور مع الخديو بقصد إعادة تنظيم الجيش المصري وتهدئة السودان بالوسائل السلمية وبحث مسألة التعديلات التي يريان من المصلحة إدخالها على الإدارة المصرية الداخلية.

ثانيا: عندما يطمئن المندوب البريطاني والمندوب التركي على قيام حكومة مصرية صالحة ومستقرة يقدم كل منهما تقريرا بذلك إلى حكومته.

ثالثاً تفاوض بعد ذلك الحكومة البريطانية مع الحكومة التركية في مسألة وضع اتفاق جديد بقصد انهاء الاحتلال بجلاء القوات البريطانية من مصر.

[٧] انتهى العام الثالث ثم العام الرابع وبدأ العام الخامس والاحتلال ما زال موجوداً في مصر. ثم تقدمت الحكومة البريطانية بمشروع اتفاق في عام ١٨٨٧ وهو ينطوي على محاولة أخرى مريبة ومماطلة للجلاء. وفيما يلي أهم ما جاء فيه

١- ينتهي الاحتلال البريطاني لمصر بعد ثلاث سنوات من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق.

٢- يكون لبريطانيا الحق في اطالة مدة الاحتلال أو تجديده في حالة وقوع اضطرابات داخلية أو تعرض مصر لخطر خارجي.

ومعنى هذا أن بريطانيا تكتسب الحق المطلق في العودة إلى احتلال مصر في أي وقت تشاء اذا حدث شيء من هذه الاضطرابات الداخلية أو الخطر الخارجي. ووافق سلطان تركيا على مشروع هذا الاتفاق المعيب وأظهر الميل إلى التوقيع عليه ولكنه عاد ورفض تحت الضغط المشترك من جانبي فرنسا وروسيا وبهذا سقط المشروع برمته.

واستمر الاحتلال البريطاني جاثماً على صدر البلاد إلى أجل غير مسمى ومرت بعد ذلك سبع وعشرون سنة لم تفعل بريطانيا خلالها شيئاً سوى اتباع سياسة المحتل والخديعة وتكرار الوعود والعهود الرسمية بعزمها على انهاء الاحتلال، ولم تعمل على جعل مركزها في مصر شرعياً. فظل مركز مصر على حاله من الغموض. فكانت مصر مستقلة استقلالاً نظرياً ومحتلة احتلال عسكري بريطاني مؤقتاً وتحت السيادة العثمانية الاسمية. حتى قامت الحرب العالمية الاولى فتغير مجرى الاحداث ونكبت مصر باذلال جديد في الشهور الاولى من الحرب العالمية الكبرى كما سيأتي ذلك فيما يلي.

الفصل الثاني

أهداف الاستعمار البريطاني .. في مصر

أثبتت الحوادث المتلاحقة أن السياسة البريطانية الاستعمارية إزاء مصر كانت لها أربعة أهداف رئيسية أدركتها واحدا بعد واحد وفازت بها في أربع مراحل على مر السنين، ولكنه فوز إلى حين.

الهدف الأول: احتلال مصر احتلالا عسكريا وسياسيا وإداريا والسيطرة التامة على جميع شئون مصر الداخلية والخارجية.

وقد أدرك الإنجليز هذا الهدف عام ١٨٨٢ بعد طول التربص والختل والخديعة والكذب والمراوغة. وفي السطور السابقة خلاصة لأهم أحداث تلك المرحلة الخسيسة.

الهدف الثاني: تحويل هذا الاحتلال الذي وصف مرارا بأنه مؤقت وصحبته وعود رسمية بالجلاء تجاوز عددها الستين، إلى احتلال دائم لا ينتهي مطلقا، وإنما تقبله الدول الأجنبية كأمر واقع ليس له من دافع وينسى معه كل الوعود بالجلاء.

وقد أدرك الإنجليز هذا الهدف عام ١٩٠٤ بعد أن أبرمت بريطانيا وفرنسا معاهدة سميت «الاتفاق الودي» وتم عقد هذه المعاهدة في ٨ من أبريل ١٩٠٤ وقصدت إنهاء ما كان بين الدولتين من خلافات ومنازعات ومطامع ومنافسات. وكذلك بقصد وضع أسس ثابتة لسياسة استعمارية مشتركة موحدة تقوم على

الانسجام والتفاهم ويمنع الاحتكاكات والمنافسات في المستقبل. وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق وهو:

«تصرح حكومة جلالة الملك البريطانية أنها لا تنوي تغيير حالة مصر السياسية وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لا تعرقل عمل بريطانيا العظمى في تلك البلاد سواء بطلبها منها تعيين أجل للاحتلال البريطاني أو بغير ذلك».

وجاء أنه مقابل هذا الاعتراف الفرنسي تعهد والتزام من جانب الحكومة البريطانية بألا تعرقل عمل فرنسا وسياستها في مراكش..

هكذا اتفق الشريكان على اقتسام الغنائم.. مصر ومراكش.. ومعنى هذا الاتفاق بكل اختصار أن فرنسا عدلت نهائيا عن سياستها الماضية في الوقوف بالمرصاد لبريطانيا ومعارضتها لها ومطالبتها بتحديد موعد الجلاء عن مصر وبهذا سلمت وأقرت بأن الاحتلال البريطاني لم يعد مؤقتا كما كان.

وأصبح الاحتلال دائما كما اشتهت بريطانيا واستكانت تركيا وسكتت سائر الدول. ولا شك أن هذا الاتفاق الاستعماري المشؤوم كان حدا فاصلا بين عهدين. وكانت له آثار خطيرة وسلبية عميقة الغور بعيدة المدى نخص بالذكر منها ما يلي:

- عهد ما قبل الاتفاق ١٨٨٢- ١٩٠٤م = ٢٢ سنة

١- قامت سياسة المحتلين في تلك الحقبة على الاعتدال والليونة والغموض والشك والخداع والوعود المتكررة بأن الاحتلال مؤقت وبأن الجلاء مؤكد.

٢- كانت الروح الوطنية في نفوس المصريين متفائلة منتظرة معتمدة الاعتماد كله على يقظة الدول الأوربية وسخطها لاسيما تركيا وفرنسا على الاحتلال البريطاني والمطالبة بالجلاء الذي كانت بريطانيا نفسها لا تستنكره ولا تنكره. بل تؤيده، فكانت المسألة مسألة وقت لا مسألة مبدأ في نظر المصريين جميعا

- عهد ما بعد الاتفاق ١٩٠٤-١٩١٤م = ١٠ سنوات.

٣- تبدلت سياسة المحتلين وقامت على العنف والمخاتلة والصرامة والقسوة

والتوعد بدوام الاحتلال. وبدأ كرومر يسجل في تقاريره السنوية التي اعتاد على رفعها إلى حكومته في لندن، ذم المصريين وبيان مدى تأخرهم في كل ناحية من نواحي الحياة، وكان يتحدث بلسان الحاكم المطلق في مصر الذي لا معقب لرأيه ولا استئناف لحكمه. بل إنه في ذلك جاوز كل حد معقول إذ هاجم على الدين الإسلامي نفسه وزعم أنه العقبة الكأداء في سبيل تقدم المصريين ومشاركتهم في الحضارة الغربية. وفي شعورهم وعجزهم عن حكم أنفسهم حكما صالحا. وكان يهدف إلى تيئيس المصريين حتى لا يفكروا مجرد تفكير في إمكان التخلص من المركز الممتاز الذي تحتله بريطانيا في مصر ووثوق احتلالها إلى الأبد.

وقد وقعت في تلك الحقبة السوداء حادثة دنشواي الشهيرة [1] نذكرها على

---

(١) في ١٣ من يونيو سنة ١٩٠٦ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سبيل المثال كمظهر من مظاهر العنف والخشونة والقسوة الوحشية التي أمتازت بها سياسة بريطانيا في معاملة المصريين ورغبتها في إصطناعهم درسا لا ينسونه على مر السنين.

أما بالنسبة لمصر فكان هذا الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا صدمة أليمة مذهلة، وأشاع في البلاد موجة أمل عنيفة ومريرة، غير أن هذه المرارة ظلت مكبوتة في نفوس سواد الناس بحكم ظروف الحياة في تلك الحقبة من الزمن التي تتابعت فيها أحداثها الجسام تتابعا أدخل في روع سائر الناس أن للقوة وحدها الكلمة الأخيرة في حياة الناس ومصير الأمم. وكانت مظاهر سيطرة البريطانيين المسلحة على شعب مصر الأعزل بادية للعيان على أي تصرف لبريطانيا في مصر!

وعلى ذلك لم يكن ذلك الكبت ليحول دون بروز الشعور الوطني المصري الوقت بعد الوقت بين أعمدة الصحف وعلى أعواد المنابر. وكان أعلى الأصوات وأجرأها على المنابر وأصرح الكلمات وأعنفها في الصحف تلك التي صدرت من الزعيم الوطني الشاب مصطفى كامل فنادى بحق الشعب المصري في الحرية والخلاص من الاحتلال والسخط على هذه المؤامرة التي حيكت ضد مصر.

لقد ظهر هذا الشاب الموهوب على مسرح السياسة الوطنية بعد حوالي عشر سنوات من بدء الاحتلال، وظل يجمع حوله الشباب وينفخ فيهم من روحه القوية حتى تزايد عددهم على مر الأيام والأعوام، وما أن تم عقد ذلك الاتفاق الظالم حتى تأججت نار الوطنية المصرية واشتعلت بعد ركود، وإذا بالروح المعنوية ترتفع وكانت في هبوط. ولهذا يمكن القول أن عهد ما بعد الاتفاق الودي كان ممتازا بيقظة الشعور الوطني وتحركه ونشاطه. وتحول الزعيم الشاب وأنصاره من الاعتماد على تركيا وفرنسا والأجانب إلى الاعتماد على النفس وتحولت الروح الوطنية المصرية من الصبر والتواكل والانتظار إلى السخط والكفاح والنضال

والخلاصة أنه ما ان وقعت حادثة دنشواي ومحاكماتها حتى طفحت الكأس بالسخط والغضب وزادت الحركة الوطنية وعيا وقوة وثباتا ومثابرة. وتكاثر أنصار الحزب الوطني تكاثرا ملحوظا وازداد مصطفى كامل نشاطا وجهادا في مصر وفي الخارج، وبعثت صحوة المصريين في أروع مظاهرها .

ملاحظة:

كتب لورد ملنر يصف مركز مصر من الناحية الواقعية بعد اتمام الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا بأنه «حماية مقنعة» لا حماه في كتابه «انجلترا في مصر» ما نصه:

«إنها حماية. ولكن ليس في استطاعتنا ان نعلن ذلك صراحة، وبالتالي ليس في استطاعتنا ان نطلب من الدول الاعتراف بها. ذلك لأنها حماية مقنعة، غير محدودة المدى وغير موقوتة بأجل مرقوم. ولكنها على كل حال تكفي لتحقيق أغراض معينة وتهدف إلى غاية محددة المدى».

الهدف الثالث تحويل هذه الحماية المقنعة إلى حماية رسمية سافرة توافق عليها الدول في معاهدة دولية، وبهذا يتم تصحيح مركز بريطانيا في مصر فيصبح شرعيا وثابتا بعد أن كان باطلا ومؤقتا..

الهدف الرابع تنظيم العلاقات بين بريطانيا ومصر بعد ذلك وإقامتها على دعائم ثابتة وذلك بإبرام معاهدة أبدية بين الدولتين تتولى مصر في ظلالها ادارة شئونها الداخلية إلى مدى بعيد، وشئونها الخارجية إلى حد محدود معين القيود، وتتولى فيها بريطانيا وحدها حق الدفاع عن مصر وتراقب سياستها الخارجية وبهذا تجعل المعاهدة لبريطانيا مركزا ممتازا في مصر ويكون لممثلها حق التقدم على جميع ممثلي الدول الاجنبية .

وهذه كلها هي عناصر الحماية الفعلية في صميمها الأصيل.

ويشاء القدر الساخر أن تنتظر بريطانيا عشر سنوات كاملة.. بعد اتمام

لاتفاق الودي المشبوه حتى تقوم الحرب العالمية الأولى قبل أن تتمكن من تحقيق هدفها الاستعماري الثالث. فأعلنت حمايتها السافرة الرسمية على مصر وأقرتها سائر الدول.

وأما هدفها الرابع فكان لها شأن آخر جد عسير ومشاربه بالمشروع والتعسف والاستهلاك فيما بعد عندما تطورت العلاقات إلى مفاوضات. أي عندما حاولت بريطانيا التركة بمفاوضاتها مع زعيم مصر الثائر الشيخ الجليل سعد زغلول وصحبه أعضاء الوفد المصري وكيل الأمة المصرية حينذاك..

بدأت المفاوضات واستطالت وتعثرت فأجلت ثم استؤنفت وطالت وتعثرت فتأجلت مرة ثانية وكثرت المحاولات والمؤامرات والمماحكات واشتد الضيق والاعتقالات والمضايقات وازدحمت السجون بالأبرياء وفرضت الغرامات وكثرت الاعتقالات وراقب المحاكمات بشرود الزعماء في المنفى ثم أفرج عنهم. ثم استؤنفت المفاوضات واستطالت مرة أخرى وتكررت المحاولات والحيل والألاعيب الدبلوماسية ثم فشلت بريطانيا أخيرا في إدراك هدفها الرابع

ولم تمر من مصر بطائل.

وهذه المفاوضات بمؤامراتها ومحاولاتها وتهديداتها ومضايقاتها وإعناتها وكل ملابساتها في بيت القصيد في هذا الكتاب. وقد فصلتها تفصيلا كاملا شاملا ليس بعده زيادة لمستزيد فيما أعتقد..

كيف حققت بريطانيا هدفها الثالث في مصر

بينت في مطلع هذا الفصل كيف قامت الحرب العالمية الأولى وتواريخ اشتراك الدول فيها واحدة إثر أخرى. فانتهزت بريطانيا فرصتها لتحقيق أهم أغراضها الاستعمارية في مصر وهو إعلان الحماية البريطانية عليها. وكان نظامها هذا هو السبب الأصيل لقيام ثورة ١٩١٩ ولقد نعمت بريطانيا هذا النجاح على مضض.

الأولى: قبل دخول تركيا الحرب: (4 أغسطس - 5 نوفمبر 1914)

ما كادت بريطانيا تدخل الحرب حتى جعلت لنفسها أن تتمتع قواتها العسكرية بكافة حقوق الحرب في جميع مدن مصر وموانيها والانتفاع بجميع وسائل المواصلات المصرية برا وبحرا وجوا والاستيلاء على كل ما يراد الاستيلاء عليه من الأراضي المصرية وكأن مصر مستعمرة بريطانية من مستعمرات التاج البريطاني .

ثم لجأت إلى الإجراءات التالية:

- منعت الحكومة المصرية من التعامل مع ألمانيا والنمسا والمجر وحظرت تصدير أي شيء مصري إليها.

- استولت على جميع السفن الألمانية والنمساوية الراسية في الثغور المصرية.

- أعلنت الرقابة على جميع المراسلات البرقية والبريدية في داخل البلاد والمرسل منها إلى الخارج.. والوارد منها إلى الداخل

- أصدرت أمرا عسكريا بمنع التجمهر والعقاب الشديد عليه. وأجيز تجمهرا كل اجتماع من خمسة أشخاص على الأقل في الطريق العام أو في أي محل عمومي حتى ولو لم يكن له قصد جنائي

- وحين أدركت بريطانيا أن تركيا على وشك الدخول في الحرب بجانب ألمانيا والنمسا أسرعت بإعلان الأحكام العرفية البريطانية على مصر قبيل دخول تركيا الحرب بيومين اثنين وكان ذلك الإعلان في شكل منشور عسكري أصدره القائد العام للجيوش البريطانية في يوم 2 من نوفمبر سنة 1914.

الثانية: بعد دخول تركيا الحرب: (5 نوفمبر - 17 ديسمبر)

بدأت بريطانيا في هذه الفترة بتصفية الحساب على مصر والمصريين بشكل مرهق عنيف متزايد. فكانت فترة عصيبة محمومة مسمومة رهيبة قوية.

وفيما يلي تلخيص لأهم الأعمال والأحداث التي وقعت في هذه الفترة.

- في يوم ٢ نوفمبر أرسل ممثل بريطانيا في مصر خطابا إلى رئيس الوزارة المصرية حسين رشدي باشا يبلغه فيه منشور القائد العام للجيوش البريطانية بإعلان الأحكام العرفية والرقابة ويخبره فيه بأن يستمر الوزراء المصريون في وظائفهم محتفظين بالسلطة التي لهم فيما يختص بالمسائل الإدارية بوزاراتهم.

- أصدر القائد العام البريطاني أمرا عسكريا يحذر فيه جميع المصريين لكي يمتنعوا عن كل عمل من شأنه الإخلال بالنظام وبالأمن العام..

- قام الإنجليز في نشاط ملحوظ باستعدادات حربية على أوسع نطاق في القاهرة والإسكندرية كما لو كانوا يستعدون لأعمال عسكرية خطيرة، أو كما لو كانوا يشعرون بأن المصريين يدبرون ثورة أو اضطرابات. فتدفقت جيوشهم على مصر بعضها قادم من بريطانيا نفسها وبعضها قادم من أستراليا ونيوزيلندا والهند وجنوب أفريقيا.

- تكدست شوارع القاهرة والإسكندرية وبورسعيد بالثكنات العسكرية والخيام المنصوبة، بجنود من جميع الأجناس والألوان وملأت الدوريات العسكرية المسلحة بالجنود تطوف الشوارع والميادين وتتنقل بين القلعة والعباسية وقصر النيل.

- انتشر في العاصمة جو من الإرهاب واعتقل عدد كبير جدا من المصريين الوطنيين لاسيما المتهمين منهم بالتعصب لوطنهم.

- تحولت مصر كلها إلى قاعدة حربية عامة للحلفاء جميعا، حتى خيل للرأي العام أن عدد الجنود الأجانب لا يقل عن عدد الأهالي المصريين.

هذا فيما يختص بالاستعدادات الحربية. وإلى جانب ذلك تمت أعمال حربية أبرزها ما يأتي:

- استقدم في القاهرة الأمير حسين كامل من الإسكندرية على قطار خاص فحضر توا إلى منزل رئيس الوزارة حسين رشدي باشا، ثم انتقلا معا إلى الوكالة

البريطانية حيث يقيم ممثل بريطانيا في مصر (قصر الدوبارة).

تحدث الناس في اليوم الثاني من هذا الاستدعاء المفاجئ الذي انتشر خبره رغم الرقابة الشديدة على الصحف والمراسلات وكثرت اجتماعات الأمير بالقائم بأعمال المعتمد البريطاني في الوكالة البريطانية (مستر شيتهام) ومعهما رشدي باشا الذي كان في الوقت نفسه قائمقام خديو (مناسبة وجود الخديو في الأستانة بأجازة).

انتشرت في القاهرة الشائعات كثيرة حول هذا الاجتماع وكثرت المقابلات. وقيل: أروج تلك الإشاعات التفكير البريطاني في إسناد العرش له وأنه يشترط شروطا لقبوله هذا المنصب

وأخيرا وقعت النكبة..

إعلان الحماية البريطانية على مصر

١ - نص إعلان الحماية:

في ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت بريطانيا حمايتها السافرة الرسمية على مصر. فحققت بذلك هدفها الاستعماري الثالث. وهذا نص الإعلان:

يعلن وزير الخارجية لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية. وبذلك زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها.

٢- نص إعلان عزل الخديو عباس وتعيين السلطان حسين:

وفي يوم ١٩ من ديسمبر صدر منشور آخر بخلع الخديو عباس حلمي وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر وهذا نصه.

يعلن وزير الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى

بإقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر على الانضمام لأعداء، فتلك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامي مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي فقبله.

٢- وفي نفس اليوم تسلم السلطان حسين برقية ورسالة:

أ- برقية من ملك الإنجليز هذا نصها:

«في اليوم الذي ترتقي فيه عظمتكم لسلطانه منصبها السامي أقدم لكم عواطف الود المنبعثة عن أكمل الإخلاص، مع تأكيدي لكم بأنني لا أنفك عن تأييدي لكم والمحافظة على مصر وحماية رفاهيتها في المستقبل، وإني على يقين أنه بمؤازرة وزرائكم وحماية بريطانيا العظمى ينجح تمكنكم من التغلب على كل المؤثرات التي يراد بها العبث باستقلال مصر ورفاهية أهلها وسعادتهم».

ملاحظة: سجلت هذه البرقية مرقما هنا لأنها أول كلمة باستقلال مصر وردت رسميا فيها وكان لها شأن فيما بعد، تمسك بها المصريون وأنكرها البريطانيون.

ب- أما الرسالة التي تسلمها السلطان حسين فكانت في شكل تبليغ طويل نصه فيما يلي:

تبليغ الحكومة البريطانية إلى السلطان حسين

«لدى الحكومة البريطانية أدلة كثيرة على أن الخديو عباس حلمي قد انضم إلى أعداء بريطانيا وبذلك تكون الحقوق التي له وللسلطان تركيا على مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى ملك بريطانيا.

الحكومة البريطانية تعتبر وديعة تحت يدها للمصريين جميع الحقوق التي آلت إليها، وكذلك جميع الحقوق التي استعملتها في مصر مدة سنوات الإصلاح الثلاثين الماضية.

رأت الحكومة البريطانية أن أفضل وسيلة لقيامها بمسئولياتها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية إعلانا صريحا، وأن تكون حكومة مصر تحت الحماية بيد أمير من أسرة محمد علي طبقا للنظام وراثي يقرر فيما بعد.

أخذت الحكومة البريطانية على عاتقها وحدها كل المسئولية في دفع أي اعتداء على الأراضي المصرية مهما كان مصدره، وأن جميع المصريين أصبحوا مشمولين بالحماية البريطانية.

بزوال السيادة التركية تزول أيضا القيود التي كانت موضوعة على عدد الجيش المصري بمقتضى الفرمانات العثمانية، وأصبح لسموكم الحق في الإنعام بالرتب والنياشين.

فيما يختص بالعلاقات الخارجية ترى الحكومة البريطانية أن المسئولية التي أخذتها على نفسها تستدعي أن تكون المخابرات من الآن فصاعدا بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية بواسطة معتمد بريطانيا في مصر.

وفيما يختص بإدارة البلاد الداخلية ستحافظ الحكومة البريطانية على التقاليد المأثورة عنها بمعاونة الحكومة المصرية وحماية الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وإنماء مصادر الثروة الطبيعية والتدرج في إشراك المحكومين في الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة من الرقي السياسي. وهذا كله سيؤدي إلى سرعة التقدم في سبيل الحكم الذاتي كما ستحترم عقائد المصريين الدينية احتراما تاما.

ثم انتهى البلاغ بهذه العبارة الآتية

«ولسموكم أن تثقوا من الآن أن ما يلزم من الإصلاحات على كل مطمح وتأييد من جانب الحكومة البريطانية. وعلي أن أزيد على ما تقدم أن حكومة جلالة الملك تعول بكل اطمئنان على إخلاص المصريين وولائهم واعتدالهم من تسهيل المهمة الموكولة إلى قائد جيوش جلالته العام بحفظ الأمن داخل

البلاد ومنع كل عون للعدو.

ونحن ننتهز هذه الفرصة فنقدم لسموكم أجل تعظيماتي.

ملن شيتهام

هذا هو البرنامج والخطة كما وضعتها الحكومة البريطانية لسلطان مصر.

أما الوزراء المصريون فقد ظلوا في كراسيهم الوزارية منفذين لأوامر الإنجليز.

أما الوطنيون والمسلمون من جميع المثقفين وأهداف الشعب المصري فقد أصيبوا بانفعالات نفسية عنيفة أبرزها الحزن والكمد والسخط والضيق والغيظ والحقد والدهشة والذهول. ومع ازدياد هذه المشاعر شدة وهولا لعجزهم التمكن عن القيام بأي عمل إيجابي قولا أو فعلا يعبرون به عن إنكارهم وما يشعرون. ذلك لأن الاعتقال والسجن والنفي كانت أخف العقوبات لأقل الشبهات ومن غير محاكمات.

وإذن فلننظر كيف انعكست حلقة البؤس والشقاء هذه على المشاعر نفسها كل فرد من أفراد الشعب المصري في المدن والقرى حتى أصبح انفجار الثورة أمرا مؤكدا لا مخرج لمصر سواه.



الفصل الثالث

أعمال المحتلين في مصر

طوال مدة الحرب

سلسلة طويلة من الأعمال الكئيبة المجحفة المرهقة للشعب ارتكبها المحتلون في مصر خلال هذه الحقبة نذكر منها أبرزها وأقدمها وأدهاها وأبعدها أثراً:

(١) تسخير العمال المصريين في الأشغال الشاقة لخدمة الجيش البريطاني:

جندت السلطات العسكرية البريطانية عدداً كبيراً جداً من العمال والفلاحين بلغ في تقدير الانجليز أنفسهم مليونا وربع المليون مصري كانوا ينتزعون من بين أهليهم انتزاعاً ثم يقال عنهم إنهم متطوعون، مهما هم في حكم المتطوعين. وكان تجنيدهم بعلم الوزراء المصريين وموافقتهم وبمعاونة رجال الحكومة المحليين في الأقاليم. وكان يبعث بهؤلاء العمال والفلاحين الأشقياء إلى حيث توجد الجيوش للقيام بخدمتها في حمل الأثقال وإنشاء الطرق في شبه جزيرة سيناء ومد السكك الحديدية إلى فلسطين وتنظيف الثكنات والمعسكرات والدوريات وإصلاحها من العطب. وقد مات منهم كثيرون موت الذباب وأصيب كثيرون منهم بأمراض شتى أو عاهات مستديمة جعلتهم عاجزين عن العمل بقية حياتهم، ولما عادوا إلى قراهم تحدثوا عن الوحشية التي عوملوا بها مما أثار نفوس الملايين وسائر الأهالي بالسخط والحقد على المحتلين. والآن فلننظر ما سجله لورد ملنر في تقريره عن هؤلاء المساكين وقيمة خدماتهم. قال:

«إن الخدمات التي قام بها فيلق العمال المصريين كانت خدمات لا تقدر بثمن.

ولم يكن هنالك غنى عنها لنجاح الحملة على فلسطين. وأن الحكومة المصرية قد أيدت رجال السلطة البريطانية بأعظم تعاون والدلائل على ذلك كثيرة منها تنازلها عن مبلغ ثلاثة ملايين جنيه من حساب الإعانات والمهد التي كانت قد سلفتها للسلطات البريطانية وكان يحق لها أن تطالب بها.

مصر الفقيرة المقهورة المنكوبة تنازلت عن هذا المبلغ الضخم لبريطانيا الكبيرة..!

ثم استطرد ملنر فسجل في تقريره ما يأتي:

« أن المتطوعين قد تخلفوا عن إطالة مدة خدمتهم إلى ما بعد التاريخ الذي تعاقدوا عليه. ثم أن نظام التطوع لم يف بتقديم العدد الكافي فاضطر الأمر بالإدارة إلى استخدام الضغط الإداري للحصول عليهم. ولما كان المصريون قد أعفوا في أول الحرب مع تركيا بأنهم لا يطالبون بالاشتراك فيها. غدا التطوع اسما لا معنى له، فعهد إلى عمد البلاد بالتجنيد

ثم قال: وقد اختلف الناس في مقدار هذه المظالم والمساوئ ولكنها على كل حال كانت من الكثرة والفداحة بحيث ساءت الناس كثيرا. ويسرت للمحرضين السياسيين انتهاز الفرصة لقضاء مآربهم

[٢] استيلاء السلطات العسكرية البريطانية على الرديف في الجيش المصري واستخدامه في كثير من الأعمال الحربية

(٣) الاستيلاء على الحبوب ومواد القوت لإطعام جيوش الحلفاء الجرارة في مصر وبلاد الشرق الأوسط. وكان الإنجليز لا يدفعون أثمانها بل يقيدونها دينا على الحكومة البريطانية وكانت الحكومة المصرية نفسها تدفع هذه الأثمان من ميزانيتها الضئيلة. ثم جاءت الحكومة المصرية الكريمة في آخر الحرب وتنازلت عن كل هذه الديون وهي تزيد على الثلاثة ملايين جنيه التي أشار ملنر لذكرها في تقريره.

(٤) الاستيلاء على كثير من دواب الفلاحين التي يعتمدون عليها في النقل والزراعة اللازمة.

(٥) تحديد أسعار القطن خدمة للمصانع البريطانية في انجلترا وحرمان الفلاحين والمزارعين المصريين حتى من الحصول على الأثمان المجزية، ولم تكن تلك الأسعار متناسبة مع الغلاء الفاحش الذي عم البلاد واشتدت وطأته مع دفع الضرائب فكانوا يضطرون إلى بيع ما لديهم من متاع وحلي ذهبية أو يستدينون من المرابين بالربا الفاحش لأداء هذه الضرائب.

وكان هذا البلاء راجعا إلى الخسارة الفادحة التي حلت بالمزارعين بسبب التحكم في أسعار القطن. وقد اعترف ملنر ببعض هذه الحقائق في تقريره إذ قال:

"إن التحكم في أسعار القطن زاد استياء الناس لأن هذا التحكم قد حرم المزارعين مزية المنافسة والمزاحمة في الأسواق الخارجية مع كون إيجار أطيانهم قد زاد".

(٦) استخدام المرافق العامة كالسكك الحديدية واستعمالها باستمرار في نقل الجيوش والعتاد الحربي حتى أصيبت السكك الحديدية المصرية بالعطب واحتاجت فيما بعد إلى تجديدات واسعة النطاق أرهقت خزانة الحكومة المصرية بأعباء جسيمة مرهقة وكلفتها ملايين الجنيهات.

(٧) الاستيلاء على كثير من المباني العامة كمباني المدارس والمعاهد وتحويلها إلى مستشفيات عسكرية بريطانية.

(٨) اغتصاب أموال الناس تحت اسم التبرعات للصليب الأحمر، فكانت هناك ضريبة جديدة فادحة على القادرين وغير القادرين في الريف وفي المدن. وكأنه لم تكف السلطات البريطانية ما قامت به من مصادرة أموال الناس وحاصلاتهم ومواشيهم ودوابهم. ولقد تولى أمر جمع هذه التبرعات المتعسفة

رجال الإدارة من عمد ومأموري المراكز فأصبح (إما كان أول الأمر شرعا للصليب الأحمر) أموالا تجمع بالغصب والقهر والإكراه بعلم السلطة العسكرية البريطانية وموافقة الحكومة المصرية.

هذا وقد فتحت هذه العملية الظالمة كل أبواب السلب والنهب والمنكرات ولم يسلم منها غني ولا فقير، وقد اعترف لورد ملنر نفسه بهذه الحقائق اد ذكر في تقريره.

لقد اشتدت وطأة هذه المظالم على الناس لاسيما أن أسعار الأشياء الضرورية قد ارتفعت في مصر ارتفاعا متواليا مطردا لم يسبق له مثيل. وخصوصا أسعار الحبوب والملابس والوقود فقد ثقلت وطأتها على الفقراء الذين لم تكن أجورهم تكفي للنفقة التي يقتضيها غلاء المعيشة بينما هم يرون عددا من الأجانب غير العسكريين يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون في رغد من العيش.

[٩] الاعتداءات المستمرة على المصريين عامة وعلى الباعة المتجولين وأصحاب الحوانيت خاصة والذين ارتكبوا هذه الاعتداءات هم جنود بريطانيون واستراليون ونيوزلنديون فإذا دافع أحد المصريين عن نفسه أو ماله أو بضاعته كان نصيبه الضرب المبرح والإيذاء. ومن عجب أن هذه الجرائم كانت ترتكب نهارا وليلا في الشوارع والميادين على مرأى ومسمع من رجال البوليس المصري الذين كانوا بلا حول ولا قوة، فكانوا يتقاعسون وهم عاجزون عن حماية الأهلين.

(١٠) التزايد المطرد في عدد الموظفين الإنجليز في جميع وزارات الحكومة ومصالحها وفروعها وكل أقسامها. وفي الجيش والبوليس. وكان استيلاء الإنجليز تاما على جميع الوظائف الرئيسية من الدرجة الرابعة فما فوقها بل وما دونها في بعض الأحايين، هذا فضلا عما بدا من كثير منهم من الغطرسة والتعالي على الموظفين المصريين الذين شعروا بالمهانة. فامتلأت نفوسهم حقدا

رغبطا وكمداً واستعداداً للانضمام إلى الثورة في أول فرصة مواتية.

(١١) تعطيل الجمعية التشريعية حتى لا يرتفع صوت من منبرها بنقد أو حتى باقتراح لا يرضاه المستعمرون المحتلون. فتأجلت اجتماعاتها مرة بعد مرة حتى تم تعطيلها نهائيا.

(١٦) اغتصاب الحكومة البريطانية لنفسها الحق المطلق في تعيين الحاكم على عرش مصر. فعينت أولا الأمير حسين كامل وبعد وفاته عينت الأمير أحمد فؤاد سلطانا على عرش مصر ثم وضعت مشروع نظام للوزارة بلا اتصال بينها وبين السلطان فؤاد حتى ترى الوقت مناسبا لذلك.

(١٢) استغلالها ضعف رشدي باشا رئيس الوزارة المصرية طوال مدة الحرب حتى نالت منه ومن مصر ما لم يخطر لها على بال. فوكلت إليه واطمأنت إليه واعتمدت عليه. وقد بلغ من تفاني رشدي باشا في الولاء للانجليز وخدماتهم خدمة فائقة كل حد معقول أنه ارتكب الأعمال الثلاثة الآتية سوقها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

أ- في ٢٠ من أكتوبر ١٩١٧ استصدر مرسوماً بإمضاء السلطان دعا فيه الناس إلى التطوع في خدمة السلطة العسكرية البريطانية وعرض عليهم امتيازات تحملهم على هذا التطوع. وعلى أثر ذلك زادت حركة مصادرة الإبل والدواب على اختلاف أنواعها في جميع القرى والمراكز. وأمر أصحابها أن يحضروا كل ما لديهم من هذه الدواب إلى المراكز والأقسام لمعاينتها توطئة لشرائها كما أمروا بألا يتصرفوا فيها أو ينقلوها من جهة إلى أخرى إلا بإذن خاص من المأمور المختص. وكل جمل أو ناقة أو حمار أو حصان لا يصلح للأعمال في خدمة السلطات البريطانية كان يدمغ بعلامة مخصوصة بحيث إذا وجد حيوان غير مدموغ بتلك العلامة قبض على صاحبه ووقع عليه عقاب صارم.

ب- في ٩ من مارس ١٩١٨، جمع رشدي باشا مجلس وزرائه واستصدر منه

قرارا عجيبا يقضي بأن تقدم حكومة مصر منحة قدرها ثلاثة ملايين جنيه ونصف المليون إلى الحكومة البريطانية.

ج- والأدهى من هذه المنحة التعليل الذي ساقه لتبريرها، فقد سجل رشدي باشا في القرار أن المنحة اعتراف بجميل بريطانيا العظمى التي حمت البلاد من خطر الغارات.

ومعنى هذا أن الحماية البريطانية التي أذلت مصر أوجع إذلال وحققت بها بريطانيا مطمعها الاستعماري الثابت هي نعمة وبركة في نظر رشدي ووزارته التعسة.

وإنه لهوان ما بعده هوان أن يتنكر الغاصب على اعتدائه وعدوانه ثم يكافأ بالمال الجزيل وهو السالب لحرية البلاد واستقلالها، المعذب لأبنائها، المستنزف لكيانها المستغل لكل ثرواتها.

وإنها لمصيبة أن يكون الإنسان مغلوبا مقهورا على أمره ولا يشعر بأنه مظلوم ولا يدرك مبلغ هوانه على ظالمه

وإنها لمصيبة أدهى وأفدح أن يعرف ظالمه ومغتصبه وقاتله، ثم هو يثني عليه ويظهر الحب له والإعجاب به ويغدق المال عليه كمكافأة على تصرفاته الجائرة الظالمة الغاشمة ولا تبصر ولا تعقل لهذا إلا.. ماذا نقول؟ موت الضمير؟! أو هل هو موت الشعور!!

وإن الإنسان ليعجب ويتساءل: في سبيل أي مقابل قبل رشدي باشا كل هذا؟؟ هل اشترط شرطا واحدا أو أخذ عهدا من الإنجليز تستفيد منه بلاده في المستقبل؟

كلا!! لم يشترط شرطا بل لم يحاول أن يفكر في الحصول على أي وعد من الإنجليز بخير البلاد في المستقبل.

وفيما يلي شهادة قاطعة حاسمة مقتبسة من أحد كبار المؤرخين الإنجليز.

كتب كولفين في كتابه عن "مصر تحت الحماية" ما تمت ترجمته العربية.

"لو أن وزيرا أقوى من رشدي باشا في مكانه لعمد إلى المقاومة. ولكنه لم يشترط شرطا واحدا يساعد العائلة بمصر من جراء هذا الإهمال. وليس في وسع رشدي باشا أن يقول كلمة واحدة تخفف من وقع تسليمه وإذعانه".

هذا رأي المؤرخ الإنجليزي المنصف رغم إنجليزيته يشهد بما لحق مصر من عنت وظلم، وما كان عليه رشدي من تخاذل وضعف، والحق ما شهد به الأعداء، ولكن ما هو رأينا نحن المصريين الذين عشنا هذه الحقبة المهمة من تاريخ وطننا؟

إننا وخمسة [1] من أصدقائي الشبان كنا في مطلع العشرين من عمرنا ونجتمع مساء كل يوم نفكر ونتحادث ونشتعل بمشاعر حارقة وكان إجماعنا في الرأي والشعور يتناول النواحي الآتية:

(١) حكام مصر من وزراء وأمراء ضعاف رضوا صدورهم بالامتثال لتهاونهم وتآمرهم مع المحتلين المغتصبين.. وهذا أقل ما يستحقونه من جزاء.

(٢) شعب مصر شعب أصيل صبور، عثر أرهقه الظلم والاستغلال سنين للعواصف والأزمات ولكنه لا ينكسر ولا يهون. قد ثار فيها عصور وانطلق العرابي ومرد عاملا لو أملا لا محالة.

(٣) ليس لنا أن نيأس ولكن لابد من زعيم وطني شجاع مصري أصيل يتولى الزعامة في القيادة ويحمل روح الفداء. لقد ظلت الأحقاد تتراكم وتتزايد من عام الاحتلال سنة ١٨٨٢ والثورة آتية لا ريب فيها ولكن متى تكون؟؟ هذا رأينا الإجماعي.

ما الذي ينقص مصر حتى تنفجر فيها ثورة عارمة؟

لقد بلغت الروح الحلقوم؟ نحن الآن في السنة الرابعة والأخيرة من الحرب.

---

(١) أحمد فريد [illegible]

كل طبقة وكل طائفة، وكل جماعة وكل فرد. متعلما كان أو غير متعلم، فلاحا كان أو عاملا، شيخا كان أو شابا أو مراهقا، أصبح ما بين حانق وحاقد وغاضب وساخط ويائس وبائس. إن جميع المصريين تحركهم مشاعر كارهة غاضبة جارفة اللهم إلا إذا استثنينا رشدي باشا وحفنة وزرائه المخلصين الخانعين.

حقا إن قبضة الإنجليز على البلاد وحكومتها وسلطتها وجيشها وبوليسها لا تسمح بقيام ثورة على أي نطاق لاسيما أن الأحكام العرفية وقانون التجمهر والاعتقالات تمارس على أوسع نطاق. ولكن من جهة أخرى لا يمكن أن يموت الشعب المصري حنقا وكمدا ويأسا

والآن يبرز سؤال خطير وفي الإجابة عنه مفتاح الموقف كله.

ما الذي تحتاج إليه الثورة إذن لكي تنفجر كالنار كاسحة ويحطم لهيبها كل حائل؟

الجواب عن ذلك غير بعيد..

الثورة ما زالت في حاجة إلى ثلاثة عوامل جديدة أراها على جانب عظيم من الأهمية لكي تخرج من الكبت والكتمان إلى الانفجار والثوران وهي:

١- الأمل الحافز المثير.

٢- والزعيم القائد المثير.

٣- والشرارة التي تحدث الانفجار.

أما الأمل الحافز فقد لوح في الأفق وتفتحت أبوابه بفضل مبادئ الرئيس ولسون، والتصريح البريطاني الفرنسي للعرب.

وأما الزعيم فقد تجلى في سعد زغلول أصلح رجل في مصر للزعامة والقيادة والتوجيه غير منازع.

وأما الشرارة فقد كانت في اعتداء الإنجليز على الزعيم باعتقاله ونفيه إلى مالطة مع نفر من أعوانه وزملائه.

والآن لابد من بعض التفاصيل لكل من هذه العوامل الثلاثة



١ – الأمل.. الحافز

مبادئ الرئيس ولسون

في ٨ يناير ١٩١٨ ألقى الرئيس ولسون رئيس الولايات المتحدة خطبة سياسية في الكونجرس حدد فيها مبادئه الأربعة عشر والتي وصفها بأنها «البرنامج الوحيد لإقرار السلام» وقد صحب الحرب سنتها الأخيرة وأراد ولسون أن يمهد لألمانيا طريق الاستسلام ويضع للعالم قواعد السلام.

وقد حرصت على تسجيل كل هذه المبادئ، نظرا لأهميتها التاريخية البالغة وآثارها البعيدة المدى:

المبدأ الأول: خاص بالمعاهدات. تكون المعاهدات صريحة لضمان السلام ويجري وضعها علانية ولا تنطوي على شروط سرية.

المبدأ الثاني: خاص بحرية البحار. تكون حرية البحار مكفولة في زمن السلم وفي زمن الحرب.

المبدأ الرابع: تخفيض السلاح في الدول إلى أقصى حد مستطاع يتفق مع الأمن الداخلي لكل منها.

المبدأ الخامس: حل تحرير الحصر ويقصر على تسوية المشاكل المتعلقة بالسيادة في الأراضي أو المطالب الاستعمارية على أساس قبول تلك التسوية قبولا اختياريا من جانب الشعب صاحب الشأن مع مراعاة مصالح الحكومة التي ينتمي إليها الأمر

المبدأ السادس: الجلاء عن جميع الأراضي الروسية.

المبدأ السابع: الجلاء عن بلجيكا وإعادتها كما كانت.

المبدأ الثامن: الجلاء عن المقاطعات الفرنسية المحتلة وإعادة الأجزاء التي تم غزوها وإنصاف فرنسا من الغبن الذي لحقها عام ١٨٧١ وذلك بإعادة مقاطعتي الالزاس واللورين إليها.

المبدأ التاسع: تعديل الحدود الإيطالية تعديلا واضحا يتلاءم مع الانتماءات القومية

المبدأ العاشر: شعوب مملكتي النمسا والمجر يمنحون فرصة الحكم الذاتي

المبدأ الحادي عشر: رومانيا والصرب والجبل الأسود يجب أن يتم الجلاء عنها ويعاد إليها المقاطعات المحتلة ويمنح الصرب ميناء بحريا مع تأمين طريقها إلى البحر. والدول البلقانية ينبغي أن تكون على أسس التاريخ ومتطلبات القومية.

المبدأ الثاني عشر: خاص بتركيا ويحض على أن الولايات العثمانية من الأمبراطورية العثمانية يضمن لها حقها في السيادة، والشعوب الخاضعة للحكم التركي تتحرر وتمنح الاستقلال ومضايق الدردنيل تفتح للتجارة لجميع الأمم بضمانات دولية.

المبدأ الثالث عشر: خاص ببولندا تنشأ دولة بولندية مستقلة وتمنح ميناء بحريا مع تأمين طريقها إلى البحر

المبدأ الرابع عشر: خاص بإنشاء عصبة الأمم

يجب إنشاء عصبة للأمم بمواثيق محددة لكفالة السلام وتوفير الضمانات المشتركة للمحافظة على الاستقلال السياسي وسلامة الأراضي لجميع الدول كبيرها وصغيرها على السواء.

هذه المبادئ الأربعة عشر جعلت من ويلسون بطلا ورمزا في العالم بأسره وفتحت أبواب الأمل لجميع الشعوب وكانت حديث الناس في كل أنحاء العالم.

وكان لذلك أسباب ثلاثة:

الأول: صدورها من رئيس أقوى وأغنى دولة في العالم، الدولة التي كان مجرد دخولها في الحرب في أبريل سنة ١٩١٧ مرجحاً هائلاً لكفة الحلفاء نحو النصر وإيذاناً حاسماً بقرب هزيمة ألمانيا من غير شك.

الثاني: أن هذه المبادئ بصيغتها الجديدة وبصبغتها الخاصة دستور جديد رائع للإنسانية في العصر الحديث، وجد فيها كل شعب من الشعوب مبدأً أو أكثر فيه راحته وخلاصه ونجاته مما يعانيه من بلاء.

الثالث: أن دول الحلفاء نفسها (وفي طليعتها بريطانيا وفرنسا الاستعماريتان) قد رحبت بها وأثنت عليها فلم يعد هناك شك في إمكان تنفيذها وتحقيقها.

والآن فلننظر كيف كان تأثير هذه المبادئ الرائعة في مختلف الشعوب والحكومات والنتائج التي نجمت عنها:

(١) ألمانيا والنمسا والمجر:

لقد يئست شعوب هذه الدول وحكوماتها من النصر بعد دخول أمريكا إلى جانب الحلفاء، فشعرت بالقنوط وضعفت فيها الرغبة في استمرار الحرب وتحركت في أعماقها الرغبة في الاستسلام، ولا خطر من استسلام يصاحبه رجاء في النجاة من ويلات الهزيمة المنتظرة والإفلات من حقد المنتصرين وشروطهم. وانتشر التفكير في الأمثل بإنهاء الحرب بأقل خسارة ممكنة. ولهذا يرى بعض المؤرخين أن مبادئ الرئيس ولسون قد أضعفت بل حطمت إرادة القتال والمقاومة في ألمانيا والنمسا، وعجلت بإنهاء الحرب العالمية الأولى.

(٢) بريطانيا وفرنسا الاستعماريتان:

لم يسعهما إلا الترحيب بتلك المبادئ مجاملة مع الولايات المتحدة ورغبة في نصر قريب بعد الخسائر الفادحة الدامية التي حلت بهما، ومن العسير الاستمرار في احتمالها. ولكن مما لا شك فيه أن الحكومتين قد أوجستا خيفة

من بعض تلك المبادئ التي من شأنها أن تحرمهما من كسب كل ثمار النصر بل قد يؤدي في النهاية من حرمانهما من بعض ما في أيديهما من شعوب منكوبة بالاستعمار البريطاني والفرنسي.

(٣) الأحرار في جميع الدول:

اغتبط الأحرار بهذه المبادئ أشد اغتباط لأنها تحتم الدبلوماسية المكشوفة والمعاهدات الصريحة ولتشعر الشعوب بأن عهد السياسة السرية والمؤامرات الخفية قد انتهى إلى غير رجعة

(٤) ودول العالم المتحضر:

ولاسيما الأوربية منها اغتبطت كذلك لأن شعوب هذه الممالك من فداحة الضرائب التي أثقلت كواهلها بسبب أعباء التسليح والتجنيد الإجباري وانتعشت آمال شعوبها بقرب إنشاء جمعية دولية تسمى عصبة الأمم يجتمع في محيطها المندوبون الرسميون للدول بقصد مدافعة غرض نبيل لم يسبق له مثيل وهو مناقشة الخلافات والمشاكل الدولية بالمفاوضات والوسائل السلمية ثم تنتهي بالطرق الودية لا بالحروب الدموية. ولذلك أطلق بعضهم على الحرب العالمية الأولى وصفا رائعا بأنها الحرب الأخيرة التي تمنع كل الحروب في المستقبل.

وهكذا دب التفاؤل المتفائل بالقلوب والآمال.

(٥) والآن فإلى بيت القصيد: مصر!!

لم يكن ما حدث في مصر وما طرأ على المصريين مجرد انفعال أو مجرد ابتهاج بل كان بعثا جديدا كاملا شاملا. ولكي تبدو الصورة على حقيقتها لابد من كلمة موجزة عن الحالة النفسية للمصريين قبل ظهور مبادئ الرئيس ولسون والحالة المصرية بعد ظهور تلك المبادئ. وعلى حقبة من الزمن عشتها وعرفتها وأحسست نفسي إلى أعماقها بتلك الانفعالات قبلها وبعدها ولكن شتان بين الانفعالين.

- الحالة النفسية في مصر قبل ظهور مبادىء الرئيس ولسون

ساد الحزن والكمد والضيق والقنوط والحقد والتخوف وسوء الظن العام الشامل هذا هو الوصف الموجز للحالة النفسية عند المصريين جميعا في ذلك العهد الأسود. لقد مرت بهم هزائم تلو هزائم وخيبة آمال متكررة منذ اليوم الأول للاحتلال البريطاني، وهذه الحالة النفسية قد طبعت المصريين بطابع خاص في السلوك وحددت أسلوبهم في مواجهة الحياة.

وأسلوب السلوك هذا قائم على السلبية والشعور بالعجز فسادت روح الهزيمة وتوقع المكاره والمصائب وامتد الميل إلى التشاؤم لاسيما أن عدو مصر القاهر الجبار على وشك أن يخرج منتصرا من أكبر حرب خاضها في حياته وسيكون بطبيعة الحال أشد قهرا وصرامة مما مضى.

وليس هناك أشد فتكا بالإرادة وقتلا للعزيمة من هذا الشعور القاتل للأفراد وللشعوب وهو شعور السلبية المطلقة

- الحالة النفسية في مصر بعد ظهور مبادىء الرئيس ولسون

ماذا في هذه المبادىء التي ذاعت وانتشرت فانتعشت وأحيت ميت الآمال ثم ألهبت المشاعر فزادت طاقاتها الحيوية وبالحماس البناء وبثت الروح الإيجابية من قوة ونشاط..

مبادىء ثلاثة هي السر في هذا التطور الرائع:

(١) حق الشعوب في تقرير مصيرها

(٢) تحرير الشعوب العربية الخاضعة لسيادة تركيا ومنحها الاستقلال.

(٣) قرار إنشاء عصبة الأمم لحل المشكلات الدولية بالعدل والإنصاف.

وهكذا انقلبت بها الحالة النفسية من النقيض إلى النقيض الفرح والانتعاش والجرأة وقوة العزيمة وروح الإقدام والأمل الحي الوثاب والانتصار الوشيك. وهي كلها عناصر إيجابية فعالة مثمرة.

هذا هو الوصف الوجيز للحالة المعنوية الجديدة.

وقد شجع على انتعاش هذه الحالة المعنوية الرائعة في المصريين ذلك الانكماش الذي ظهر على السلطات البريطانية في مصر.. وكل انكماشهم هذا أمر لا مندوحة عنه ولا حيلة لهم فيه. فالحرب على وشك الانتهاء والمبادئ الجديدة التي ستحل كل المشاكل على أساسها قد ظهرت وانتشرت ورحبت بها جميع الشعوب وجميع الحكومات.

هذا هو الأمل الكبير الحافز حقا الذي انتظره المصريون بفارغ الصبر أكثر من ثلاثين عاما. ولم تشأ المقادير في رحمتها بمصر إلا أن تضيف إلى هذا الأمل الرائع ما يزيده روعة وقوة وثباتا. وإلا أن تضيف إلى الروح المعنوية العالية المتصاعدة عند المصريين ما يزيدها قوة وعزما وانتعاشا وسموا وتأكيدا.

وهذا الدور الجديد جاء في شكل تصريح بريطاني فرنسي أصدرته الحكومتان البريطانية والفرنسية للشعوب العربية في منطقة الشرق الأوسط.

التصريح البريطاني الفرنسي للعرب
في نوفمبر ١٩١٨م

أصدرت حكومتا بريطانيا وفرنسا تصريحا مشتركا موجها إلى الشعوب العربية المحكومة بتركيا جاء فيه.

[١] إن الغرض الذي تهدف إليه بريطانيا وفرنسا من مواصلة الحرب في منطقة الشرق الأوسط هو تحرير الشعوب (التي طالما ظلمها الأتراك) تحريرا نهائيا وتأسيس حكومات وإدارات أهلية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختيارا حرا ورغبتهم بذلك من تلقاء أنفسهم.

[٢] وتمهيدا لهذه الغاية قد تم الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات وطنية أهلية في سوريا والعراق اللذين تم الحلفاء تحريرهما وكذلك في البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها.

(٣) والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من الحكم، وإنما همهم أن يحققوا بمعونتهم ومساعدتهم المساعدة لإقامة الحكومات التي يختارها أهلها لأنفسهم، وأن يضمنوا لهم قضاء عادلا واحدا للجميع، وأن يسهلوا انتشار العلم في البلاد وتقدمها اقتصاديا وذلك بإثارة همم الأهالي وتشجيعهم، مع إزالة الخلافات التي استخدمتها السياسة التركية.

(٤) هذا ما تعهدت به الحكومتان المتحالفتان على القيام به في البلاد المحررة.

لم يكن وقع هذا التصريح الرسمي الخطير في نفوس المصريين أقل من وقع مبادئ الرئيس ولسن فازداد الاشتعال حتى بلغ أقصاه وازداد القلق حتى جاوز أشد مداه.

وقد خفت الأحكام العرفية البريطانية حتى لم يشعر بوجودها إنسان في مصر وأجل تنفيذ أمر التجمهر حتى شعر الناس أنه زال وأخذ المصريون يكثرون من المقابلات والاجتماعات في الأندية وفي المنازل ويتكلمون علنية وجهرة ويتحدثون بلا خشية من رقيب أو حسيب.. قالوا وما أكثر ما قالوا..

- لو كانت مصر مستعمرة تركية لنالت حريتها واستقلالها كما وعدت بذلك سورية والعراق في التصريح البريطاني الفرنسي.

ولكن مصر دولة مستقلة أصلا ونصبت الحماية عليها غصبا وقهرا، وهي حماية باطلة تنقضها نصوص التصريحات البريطانية العديدة التي صحبت الاحتلال في سنواته الأولى. فلا شك مطلقا في أن مصر ستنال حريتها واستقلالها أسوة ببلاد دونها في المستوى الدولي بل دونها بمراحل في مستوى الثقافة والثروة والمدنية والأنظمة الإدارية والحالة الاجتماعية.

- لن يقف في وجه مصر بعد الآن أي معترض. ولن تستطيع بريطانيا نفسها أن تماطل بعد اليوم أو تتمحك بأية نغمة من النغمات

- ما في ذلك شك ولا أقل مثل من شك. فالحماية زائلة حتما والاحتلال

جديد سياسي زائل بالجلاء حتماً، وأن الاستقلال آت لا ريب فيه.

بهذا تحدث المصريون في خلواتهم وفي اجتماعاتهم ودواوينهم. وهكذا فكروا في ثقة شاملة كاملة لا يشوبها شك أو تردد..

وهكذا شعروا بنشوة وأمل وحماسة منقطعة النظير..

وسجل العديد من الخوارج الحوادث والحفلات التي حدثت في لندن وباريس وروما وواشنطن. وفيها شتى الخطب والمقالات والتعليقات التي نشرت في مصر بين المتعلمين بعض ما ورد فيها من الأفكار والأقوال ونذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

ستقوم المعاملات بين الدول في المستقبل القريب على مبادئ الحقوق والحريات والعدل والإنصاف.

لا يجوز بعد اليوم حكم الشعوب بسلطات مستبدة غير مسئولة أمام ممثلي الشعب.

عهد الغزو والفتح والتوسع قد مضى وانقضى إلى غير رجعة.

الشعوب لا يجوز أن تنتقل السيادة عليها من دولة إلى أخرى باتفاقات أو معاهدات كأنها سلع تباع وتشترى في الأسواق والمؤتمرات.

يجب أن يترك لكل شعب الحق في تقرير نظام حكمه. والحرية في تقرير السياسة التي يراها مؤدية إلى التقدم ومن غير إحراج أو تدخل من دولة أجنبية.

حق تقرير المصير يجب أن يتمتع بممارسته كل شعب. ويجب أن يكون الأساس عند البت في مصير كل أمة.

لا يجوز أن تساس الشعوب أو تحكم إلا بمحض إرادتها ورضاها.

كل هذه الآراء وغيرها كانت غذاء صالحاً للنفوس الجائعة إلى الأمل والتشجيع فازدادت ثقة المصريين بالمستقبل الباهر الذي ينتظرهم وينتظرونه لتحقيق أعز الآمال

رأي لورد ملنر في حالة مصر النفسية

لعل من المفيد هنا أن نسجل رأى الانجليز أنفسهم في الحالة النفسية والعقلية التي طرأت على المصريين في تلك الفترة العصيبة.

كتب ملنر في تقريره المرفوع إلى الحكومة البريطانية العبارة الآتية

«أن المبادئ التي جاهر بها الرئيس ولسون ووافق عليها الحلفاء قد أثرت تأثيرا سريعا وعميقا وحاسما في الرأي العام المصري. فقد ظهر أن قبول جميع الدول لفكرة حق تقرير المصير، جاء مؤكدا ومقويا لمشاعر كانت تختمر في صدور الطبقات المتعلمة في مصر من زمان طويل».

إلى أن قال:

«ثم نشطت الحركة الوطنية في مصر واشتدت عزيمة أهلها بنشر التصريح البريطاني الفرنسي في أوائل نوفمبر عام ١٩١٨ عن سوريا والعراق فقد جاء فيه أن بريطانيا وفرنسا تنويان تحرير الشعوب التي أنقذت من الظلم العثماني تحريرا تاما، وأن تنشئ لهم حكومات وطنية تستمد سلطتها من القوانين التي يضعونها من تلقاء أنفسهم ومطلق حريتهم واختيارهم.

«هذا وقد أبان المعتمد السامي البريطاني في مصر حينذاك أن هذا التصريح وهذه السياسة سيكون لهما صدى قوي في مصر. هذا فضلا عن أن المصريين كانوا قد شاهدوا قبل ذلك بقليل إنشاء مملكة مستقلة في بلاد العرب التي لا يرون شعوبها إلا متأخرة بمراحل في مدارج الحضارة والارتقاء عن بلادهم التي تضارع بلاد الغرب بعض المضارعة».

والخلاصة أن الحالة النفسية في مصر قد بلغت أعلى درجاتها من التفاؤل

وأنشدت الأمال. ولم نعد نرى في مصر خائفاً لاهثوداً ولا متخاذلاً ولا متشككاً ولا باهتاً ولا بليداً. بل كنت ترى كل مصري متحفزاً للعمل راغباً في التكتل منتظراً ظهور الزعيم الذي يتقدم الصفوف ويتولى القيادة والتوجيه والتحدث باسم مصر والمصريين لانهاء المحتلة والاحتلال وتحقيق الحرية والاستقلال.

ولم يطل انتظار المصريين. فقد ظهر الزعيم على الفور..



٢- ظهور الزعيم الـ

نحن الآن في الشهر الأخير من الحرب. شهر أكتوبر سنة ١٩١٨.. انتشر شعور عام بأن الحرب وشيكة الانتهاء وأن شمس السلام تؤذن بالإشراق، فقد انهزمت تركيا واستسلمت. والجيوش الألمانية تنسحب بانتظام من كافة الميادين على غير سابق العهد. وأصبحت أنباء البريد والبرق على قرب عقد الهدنة.

فهل آن أن تحظى مصر في هذا الحادث الجلل بعد أن تفتحت أمامها أبواب الأمل على مصراعيها؟

في هذه الأثناء برز على كل لسان وفي كل مكان اسم الزعيم المنتظر سعد زغلول باشا، فقد اجتمعت له صفات ومزايا لم تجتمع لأحد غيره من سائر المصريين أجمعين. إنه وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وقد تم انتخابه لعضوية الجمعية ثم تم انتخابه وكيلا لهذه الجمعية رغم جهود الوزارة في محاربته ورغم معارضة الإنجليز المحتلين فكان هذا النصر المرموق له رغم العراقيل دليلا على مكانته وتفرده بين المصريين.

ولقد أثبت بنشاطه وهمته في جميع جلسات هذه الجمعية أنه رجل كفاح وصراع فعقدت عليه زعامة المعارضة. وكان مثيرا للأعصاب أمام كلما وقف للكلام في فصاحة وصراحة وقسوة ومنطق متين شجاعا في الحق وكثيرا ما تجاوز حدود الانتقاد إلى الاتهام وسبب للوزراء كثيرا من الإحراج والإزعاج مما

كان يأخذه عليهم من القصور والأخطاء.

وقد انتشر على ألسنة أصحابه ومعارفه أن ما حبي من مزايا سعد ومواهبه أضعاف أضعاف ما ظهر منها حتى الآن. رجل عند معاصريه من الشباب نشاطه وجرأته وحماسته، وله من الشيخوخة سنها ونضجها وحكمتها، وله من الرجولة عزم وإرادة لا تلين ولا تستكين، وصراحة تمازجها خشونة يرميها بالصديق والعدو على السواء، وشجاعة تحميه من الجزع والهلع في الأزمات. فلا يضعف أبدا في الملمات ويقابل المتاعب كلها بالتحدي ويعتبرها امتحانا لشجاعته وشخصيته وهيهات هيهات أن يسقط في هذا الامتحان. فإذا واجهته أزمة ارتفع إلى مستواها واتخذ إزاءها قرارا لا تردد فيه وعملا إيجابيا ينتج ثمرات. بينما غيره يضطرب أو ينهار ويصاب بالقلق والارتباك وما إلى ذلك من المشاعر السلبية التي لا خير فيها على الإطلاق. ثم له في الحياة علم مستفيض وتجارب ثمينة عزيزة وله من رقة قلبه ذمام زائغ بصيرته حببه على كثير من المصريين والمفاخرة بأنه فلاح ابن فلاح من آحاد المصريين الفصاح. وكان شعوره بمذلة الاحتلال وإهانة الحماية شعورا عميقا غاية العمق قويا غاية القوة أليما غاية الألم.

هذا هو الزعيم المنتظر بمجموع مواهبه وصفاته البارزة المعروفة لأصدقائه وخصومه على السواء وكأني به يفد فصلته الأقدار تفصيلا رائعا يتوائم مع حاجات البلاد في حاضرها الرهيب وما يستوجبه العيب في مستقبلها القريب.

تأليف الوفد المصري

مازلنا في هذا الشهر الأخير من الحرب . .

ومصر كلها في حماسة منتشية الآمال. وفي نفوس أبنائها غليان وفوران ووثوب وترقب وانفعال وانتظار وسؤال واحد ظل يتردد على كل لسان صباح مساء

عدة أيام. وما هو الطريق العملي الناجح للمطالبة بحقوق مصر؟

لقد كثرت الروايات والاشاعات وتباينت الافكار إلى حد ما لفترة قصيرة من الزمن. فمن قائل أن الأمير عمر طوسون يزاحم الزعيم في تأليف وفد برئاسته. ومن قائل أن وفدا يتكون من رجالات الحزب الوطني. ثم اختفت الاشاعات فجأة وظهر أن الزعيم سعد زغلول يعمل في جد ونشاط وفي هدوء وسكون وخفاء على تأليف وفد يكون ممثلا ووكيلا للأمة المصرية..

وقيل أن نواة الوفد قد تكونت فعلا من خمسة وهم

الزعيم سعد زغلول رئيسا وعبدالعزيز فهمي بك نقيب المحامين والعضو المنتخب في الجمعية التشريعية وعلى شعراوي باشا عضو الجمعية ومحمد لطفي السيد بك.

والآخران من رجالات مصر الاكفاء النابهين ومن أصدقاء الزعيم المقربين.

وفي ١٣ من نوفمبر ١٩١٨ ضموا إليهم عضوين آخرين من أعضاء الجمعية التشريعية وهما:

عبداللطيف المكباتي بك ومحمد علي علوبة بك.

وبعد ذلك أعلن أن وفد مصر أصبح مكونا من سبعة أشخاص وفي هذه المرحلة من حياة الوفد وضعوا مشروع قانون أخص بالذكر منه خمس مواد وردت فيه وهي:

المادة الأولى. تنص على تأليف الوفد من هؤلاء الاعضاء السبعة.

المادة الثانية. تنص على أن مهمة الوفد هي السعي بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا إلى استقلال مصر استقلالا تاما.

المادة الثالثة على أن الوفد يستمد قوته من رغبة أهالي مصر التي يعبرون عنها رأسا أو بواسطة مندوبيهم في الهيئات النيابية.

والمادة الخامسة. تنص على انه لايجوز للوفد أن ينصرف في المهمة التي

لتنفيذها فليس للوفد ولا لأحد من أعضائه أن يخرج في طلباته عن حدود هذه الوكالة التي يستمد منها قوته وهي استقلال مصر استقلالا تاما وما يتبع ذلك من التفاصيل

والمادة الثامنة: تنص على أن للوفد أن يضم إليه أعضاء آخرين مراعيا في انتخابهم الفائدة التي تنجم عن اشتراكهم معه في العمل

وفي ٢٠ من نوفمبر قرر وفد السبعة أن يضموا إليهم اثنين معروفين بميولهما الظاهرة للحزب الوطني وهما مصطفى النحاس بك القاضي بالمحاكم الأهلية والدكتور حافظ عفيفي.

ثم عقد الوفد جلسة بأعضائه التسعة وصدقوا على مشروع قانون الوفد في ٢٣ من نوفمبر ١٩١٨

وقد ضم الوفد إليه أعضاء آخرين لاستكمال بعض العناصر التي تمثل طبقات الأمة أو لتحقيق بعض الرغبات وهم: حمد الباسل باشا، إسماعيل صدقي باشا، محمود أبو النصر بك، سينوت حنا بك، جورج خياط بك، واصف غالي بك، حسين واصف باشا، عبد الخالق مدكور باشا.

هذا وقد أنشأ الوفد لجنة مركزية في القاهرة برئاسة محمود باشا سليمان وكان سكرتيرها العام عبد الرحمن فهمي بك ومهمتها جمع التبرعات وإحاطة الوفد علما بما يهمه من شئون البلاد وتوجيه وتنسيق الجهود الوطنية لخدمة قضية الاستقلال

فترة حافلة بالأحداث الجسام

في هذه الفترة التي استغرقها الوفد في تكوين نفسه وقبل أن يتمكن من تمام تأليفه وتنظيم صفوفه وهي فترة استغرقت حوالي الشهرين وقعت أحداث ستة على أعظم جانب من الأهمية

(١) ظهور ظاهر ملموس طرأ على رشدى باشا وتجلى في مواقفه وسلوكه

(٢) ظهور مشروع بروينات الذى يهدف إلى تعديل أو تغيير جميع القوانين المصرية واللوائح والانظمة الداخلية بما ينسجم مع الحماية البريطانية ومقتضياتها.

(٣) انتهاء الحرب العالمية وإعلان الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨

(٤) حدث تاريخى مشهور فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨.

(٥) البدء في جمع توكيلات شعبية لتأييد الوفد وتمثيله للبلاد

(٦) طلب الترخيص للوفد بالسفر إلى الخارج فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٨. حدث كل ذلك والوفد لايزال مكونا من تسعة أشخاص وقبل أن ينضم إليه النوع الاخير فى ٢٣ من نوفمبر ١٩١٨.

هل تغير رشدى باشا؟

والآن لابد من بيان موجز عن كل منها والآثار التى نجمت عنها.

ظهور مبادىء الرئيس ولسون فى يناير ١٩١٨، ومن بينها المبدأ الخاص الذى ينص صراحة على ضرورة تحرير الشعوب العربية فى منطقة الشرق الاوسط وتركها حرة تختار نظمها وإقامة حكوماتها من غير أي تدخل أجنبي في شئونها وحرية اختيارها واستقلالها.

وظهور الزعيم القوى القدير سعد زغلول ونزوله إلى الميدان والبدء فى تكوين الوفد.

وانكماش جيوب الانجليز فى مصر فى الشهرين الاخيرين من الحرب بعد أن أصبح النصر مضمونا والحرب وشيكة الانتهاء. فأهمل قانون الجمهور وأصبح المصريون يتحركون ويجتمعون فى غير خوف.

وموجة الحماسة والتفاؤل والنشوة التى عمت جميع المصريين فى جميع أنحاء البلاد

كل هذه الحقائق والعوامل أثرت في رشدي باشا أعمق الأثر وما كان في استطاعته الابتعاد حتى لو أراد. وقد تغير إلى حد كبير مقصوده وعدلي والزملاء في الوزارات وأصبح رشدي يتقرب إلى الزعيم فكثرت المقابلات بينهما وقيل أنه يؤيد الزعيم في ضرورة تأليف الوفد وفي ضرورة العمل أو في ضرورة تنسيق العمل الرسمي من ناحيته والعمل الشعبي من ناحية الزعيم وأصحابه وأنصاره، وهذا التقارب الظاهر قد زاد من التفاؤل في النجاح والتوفيق بفضل النيات الطيبة وتضافر الجهود الرسمية وغير الرسمية في خدمة قضية الجلاء والاستقلال.

هذا كله ذاع وشاع وتطلعت له الأرجاء.

وتشاء المقادير أن تتاح الفرصة لرشدي باشا ليثبت أنه تغير وتطهر وتحرر وذلك برده الوطني الحازم الحاسم.. الرافض المتسلط على برونيات ومشروعه الخطير مما أرضى الزعيم حتى أثنى عليه، وعرف المصريون موقف رشدي فاغتبطوا به وقدروه.

والآن لابد من كلمة عن هذا المشروع.

مشروع برونيات

في ١٤ من مارس ١٩١٧ أصدر مجلس الوزراء برياسة رشدي باشا قرارا بتأليف لجنة مشتركة من مصريين وأجانب لاقتراح التعديلات الواجب ادخالها في القوانين والنظم الادارية والقضائية التي تتسم مع الحماية البريطانية وقد سميت لجنة الامتيازات الأجنبية على سبيل التمويه والتضليل وإفهام الناس أن الغرض هو الغاء الامتيازات الأجنبية وهو ما يشتهيه جميع المصريين.

وسير وليلم برونيات هذا كان عماد هذه اللجنة وروحها ومدبرها وكان مستشارا للداخلية حينا ومستشارا للمالية بالنيابة حينا آخر حتى قيام الثورة. وكان إلى جانب هذا المستشار الأول في دار الحماية البريطانية.

وقد أتمت هذه اللجنة وضع عدة مشروعات قوانين: قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات وقانون المرافعات وبعض فصول من القانون المدني والتجاري والنظام القضائي الذي وضع على أساس إدماج القضاء الأهلي والقضاء المختلط ليكونا نظاماً موحداً مختلطاً في قواعده وبنيانه مع تغليب العناصر الإنجليزية، هذا وقد تقرر فعلاً أن يكون التغلب التام بريطانياً.

ولعل الأدهى من كل ذلك ما سمي فيما بعد «مشروع برونيات» وهو مشروع قانون نظامي لمصر (أي دستور) ينزل بمصر إلى الحضيض من مرتبة المستعمرات التي لا ينفرد أهلها بالإدارة والتشريع وحدهم بل يشترك معهم الأجانب في كل ما له علاقة بالإدارة والتشريع.

ويتلخص هذا المشروع العجيب فيما يلي:

١ - إنشاء مجلس نواب مصري مؤلف من المصريين، وظيفته استشارية محض أي ليست له أية سلطة قطعية حاسمة في أي أمر من الأمور.

٢ - وإنشاء مجلس شيوخ إلى جانبه بيده وحده السلطة التشريعية كلها ومؤلف من أعضاء رسميين هم الوزراء المصريون والمستشارون البريطانيون، ومن أعضاء منتخبين، منهم ثلاثون مصرياً وخمسة عشر أجنبياً. هذا ولقد لوحظ في تكوين... المجلس أن الأغلبية فيه للأعضاء الرسميين والأعضاء الأجانب المنتخبين والأقلية للأعضاء المصريين المنتخبين. ولاشك أن تنفيذ مشروع كهذا معناه أن السلطة التشريعية في البلاد قد أصبحت في أيدي الأجانب وأصبح المصريون غرباء في بلادهم.

هذا هو مشروع الدستور الجديد في أساسه كما وضعه الإنجليز.

وهذا هو مشروع برونيات الذي سلمه رشدي باشا في السنة الأخيرة من الحرب بعد أن طرأ على رشدي باشا ذلك التغير العجيب الذي أشرنا إليه.

عرف المصريون أمر ذلك المشروع فأجمعوا على السخط عليه والزراية به

وعرفوا رد رشدي باشا عليه ردا قويا حازما في رفض الاستنكار واستهجان فأجمعوا على الثناء عليه والإعجاب به وعفى الله عما سلف.

كل هذا وذاك من العوامل القوية التي حددت المرارة في نفوس المصريين فأرغمت موجات السخط على السياسة البريطانية وعلى النيات التي يضمرها الإنجليز للمصريين حتى في هذه الأوقات المبشرة بظهور عهد جديد في السياسة الدولية ومعاملة الشعوب على أسس من العدل والإنصاف.

ولا أعرف مشروعا بريطانيا في مصر أجمع عليه الشعب ووكلاء الشعب والوزارة القائمة بالسخط والاستنكار والاحتقار كهذا المشروع التعس.

هذا وقد اعترف ملنر نفسه في تقريره بهذه الحقيقة إذ قال

«ما كاد المشروع يعرف أمره حتى قامت القيامة عليه ولشدة الاحتجاج صمم

وبذلك مات المشروع وقبر إلى غير رجعة.

انتهاء الحرب وإعلان الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨

عمت الأفراح في جميع أنحاء مصر.

أما الإنجليز وحلفاؤهم فقد سكروا ومرحوا في فرحة لا ضابط لها رغم ما تذكروا الآلام التي حملت ضحاياهم التي نجت من أخطار الحرب وويلاتها.

وأما المصريون جميعا فقد استبشرت كذلك فرحتهم لشعورهم بقرب الخلاص من كابوس الاحتلال وبذل التضحية وبذل جهد جديد من أجل الاستقلال ومن الكرامة والحياة الكريمة في أمن وسلام.

وكانت مصر كلها بمرامها تحتفظ وعزمها الأكيد مصممة على إدراك كل ما تريد مهما بذلت في ذلك الدماء وكل أنواع الفداء.

ولم يضيع الزعيم وقتا فقد اتصل في اليوم نفسه برشدي باشا وطلب إليه وساطته لدى المندوب السامي البريطاني لتحديد موعد لمقابلته ومعه اثنان من أعوانه، فقبل رشدي الرجاء.

حديث ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الذي حدد للمقابلة مع السير ريجنالد ونجت المندوب السامي البريطاني وهو يوم ١٣ نوفمبر ذهب الزعيم سعد زغلول باشا ومعه صاحبا المعالي عبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا إلى دار الحماية ودار بينهم الحديث التاريخي الآتي

بدأ المندوب السير ريجنالد الحديث بقوله:

إن الصلح قد اقترب موعده وإن العالم سيفيق بعد غمرات الحروب التي شغلته زمانا طويلا. وإن مصر سينالها خير كثير والله مع الصابرين. وإن المصريين هم أقل الأمم تألما من أضرار الحرب وإنهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالا طائلة. وأن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التي كانت السبب في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم.

فأجاب سعد باشا:

بما تكون بريطانيا فعلته خيرا لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها بالشكر. وتدرج من ذلك إلى القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف آثاره. وإنه يرى أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات. وإن الناس ينتظرون بفارغ الصبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا من صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنوات.

المندوب: حقا أن لا محل لإزالة المراقبة المذكورة وسأتحدث فعلا مع القائد العام للجيوش البريطانية في هذا الصدد. ثم استطرد فقال: إذا كانت هذه المسألة عسكرية فإنه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد العام سيرسل للحكومة البريطانية ويأمل الوصول إلى ما يرضي. ثم استمر قائلا: يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت بريطانيا من مؤتمر الصلح فإنها ستلتفت إلى مصر وما يلزمها. ولن يكون الأمر إلا خيرا

سعد باشا: إن الهدنة قد حصلت. والمصريون لهم الحق في أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع الآن من أن يعرفوا ما هو الشيء الذي تريده انجلترا لهم.

المندوب: يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين في سلوككم.

إن المصريين في الحقيقة لاينظرون إلى العواقب البعيدة

سعد باشا: إن هذه العبارة مبهمة ولا أفهم المراد بها.

المندوب: أريد أن أقول أن المصريين ليس لهم رأي عام بعيد التفكر.

سعد باشا: لا أستطيع الموافقة على ذلك. فإني وإن كنت أذكرت بسمتي فإني منتخب في الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة ولورد كتشنر في انتخابي. وكذلك كان الامر مع زميلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك.

المندوب: انه قبل الحرب، كثيرا ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من رجال الحزب الوطني وكان ذلك بلا عقل ولا روية فأضرت مصر ولم تنفعها فما هي أغراض المصريين؟

علي شعراوي باشا: إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر..

المندوب: إذن أنتم تطلبون الاستقلال؟

سعد باشا: ونحن أهل له. وماذا ينقصنا لكي يكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المستقلة؟

المندوب: ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزم يتضرر.

عبد العزيز فهمي بك: نحن نطلب الاستقلال التام. وقد ذكرتم جنابكم ان الحزب الوطني أتى من الحركات والكتابات بما أضر ولم ينفع فأقول لجنابكم ان الحزب الوطني كان يطالب بالاستقلال وكل البلاد تطالب بالاستقلال، وغاية الامر ان طريقة الكلام التي سار عليها الحزب الوطني ربما كان فيها ما يؤخذ

عليها ، وذلك راجع إلى طبيعة الشبان في كل جهة. فلا حل لإزالة الاعتراض الوارد
على أسلوب الحزب الوطني في تنفيذ مبدئه الأساسي الذي هو مبدأ كل الأمم
وهو الاستقلال التام. قام جماعة من الشيوخ الذين لا يطيق بعضهم التطرف في
الاجراءات وأسسوا حزب الأمة وأنشأوا صحيفة الجريدة وكل قصدهم هو
أيضاً الاستقلال التام وطريقتهم أخف في الشدة من طريقة الحزب الوطني
وذلك معروف للجميع، ولكن الغرض هو خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع
الاحتراس. ونحن في طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه لأن أمتنا أرقى
من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً.

المعترض: ولكن نسبة الأميين في مصر كبيرة لا كما في البلاد التي ذكرتها إلا
الجبل الأسود والأفغان على ما أظن

عبد العزيز فهمي بك: إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال
الأمم. فإن لمصر تاريخاً قديماً باهراً وسوابق في الاستقلال التام وهي قائمة
بذاتها ومكانها بعنصر واحد ذو ثقافة واحدة كبيرة العدد ولا ينقصها شيء. وبالجملة
فشروط الاستقلال التام تتوافر في مصر. ومن جهة نسبة الأميين المتعلمين فإن
هذه مسألة لا دخل لها في الاستقلال كما قدمت. لأن الذين يقودون الأمم في
كل البلاد أفراد قلائل ومن لا يعرف أن لانجلترا وهي بلاد عظيمة والحرية فيها
أقدم ثقة كبرى بحكومتها. وحال الحكومة أفراد قلائل وهم الذين يقودونها
وهي تتبعهم بلا مناقشة في كثير من الأحوال تستمد ثقتها منهم وتسلمها لهم.
ولذلك فإن مجلس نوابها ليس كل أفراده من العاملين وإنما العامل منهم قلة
قليلة. فبلاد مصر يكفي أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بإدارتها بدليل أن أول
النحل والنفد سمع منهم في كثير من الأحوال أن التعليم قد زاد في البلد حتى
صار فيها طائفة من المتعلمين العاطلين وأما من جهة تقسيمها بالعلم يتحتم إذاً
غذاء بأزيد من اللازم. فاسمحوا لي أن أقول أن مصر حالياً ليست ممن ينطبق

عنها هذا التشبيه. في الواقع انها كالمريض مهما أتيح له من نطس الاطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موضع دائه. إن هو نفسه الذي يشعر بالم الداء ويرشد إليه. فالمصري وحده هو الذي يشعر بما ينقصه من أنواع العلاج رب بعده في الاشكال المعروضة رهن المفاوضة.

فالاستقلال ضروري لرقيها.

المترجم: أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير أمورها؟

عبد العزيز فهمي بك: إن معرفة ذلك راجعة إلى المستقبل ومع ذلك اذا كانت بلاد العرب وهي دون مصر بمراحل قد أخذت استقلالها فمصر بلا شك أجدر بذلك.

المترجم: قد كانت مصر عدوا لتركيا، أفتكون أحط منها لو كانت عدوا لانجلترا؟

شعراوي باشا: قد اكون عدوا لرجل في الحالين ومع ذلك لانعرض كلتا الحالتين لأن السيادة لا نرضاها ولانحب نحن أن نبقى تحت ذلها ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لبريطانيا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد

المترجم: لكن مركز مصر حربيا وجغرافيا يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير انجلترا.

سعد باشا: متى ساعدتنا بريطانيا على استقلالنا التام فإننا نعطيها ضمانة معقولة مع عدم تمكين أية دولة من استقلالنا التام. ولضمان مصالح بريطانيا نعطيها ضمانة لتأمين طريقها إلى الهند وهي قناة السويس بأن نجعل لها الأولوية دون غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحافظة من الجهود

شعراوي باشا: بقي أمر آخر وهو حقوق أرباب الدين من الأجانب. يمكن ابقاء المستشار الانجليزي بحيث تكون سلطته هي سلطة صندوق الدين العمومي،

سعد باشا: نحن نعترف الآن أن بريطانيا أقوى دولة في العالم وأوسعها حرية. ولذا نعترف لها بالأعمال الجليلة التي باشرتها في مصر ونحن نطالب باسم هذه المبادئ أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر. إننا نتكلم بهذه المطالب هنا لدى جنابك بصفتك ممثلاً لهذه الدولة العظيمة، وعند الاقتضاء نسافر لمذاكرة بشأنها مع ولاة الأمور في إنكلترا. ولا نلتجئ هنا إلى سواك، ولا في الخارج لغير رجال الدولة الإنجليزية ونطلب منك بصفتك عارفاً بمصر مطلعاً على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب.

المندوب: قد سمعت أقوالكم وإني أعتبر محادثتنا غير رسمية بل بصفة ودية فإني لا أعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية في هذا الصدد. وعلى كل حال فإني شاكر لزيارتكم وأرجو كل خير.

وهنا شكره الثلاثة على حسن وفادته وانصرفوا حيث كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً (أي أن المحادثة استغرقت ساعة كاملة).

ملاحظة:

زعم بعض المؤرخين أن هؤلاء الزعماء الثلاثة لم يطالبوا بالاستقلال التام وإلغاء الحماية عند مقابلتهم للمندوب السامي البريطاني وإنما اكتفوا بالمطالبة بما يشبه تخفيف الحماية، وهذا خطأ ولا أساس له، وفيما يلي الدليل القاطع

الحديث من الوثائق البريطانية

سجل ونجت في تقريره إلى الحكومة البريطانية الإشارة إلى هذا الحديث فقال: .. في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ (١): زغلول باشا وبعض الأشخاص من زعماء الحزب الأول في الحركة الوطنية المتقدم للسامي البريطاني وأخبروه عن رغبتهم في السفر إلى لندن لعرض قضية الاستقلال التام لمصر.

جمع التوكيلات الشعبية للوفد

لولا رشدي باشا ما كانت قصة هذه التوكيلات وأزمة هذه التوكيلات.

أزمة أغضبت الوفد وأغضبت رشدي وأغضبت الانجليز وكشفت الانجليز، وهو الشيء الذي نستطيع فيها أنه يريد أن يخدم الوفد ويتعاونه

وذلك أنه في مساء اليوم نفسه الذي جرى فيه الحديث بين الزعماء الثلاثة وبين المندوب البريطاني. اتصل رشدي باشا تليفونيا بالزعيم سعد زغلول في بيته وطلب مقابلته فاتفقا على اللقاء في نادي محمد علي بعد ساعة واحدة من الحديث التليفوني. فلما اجتمعا قال رشدي لسعد أنه قابل المندوب السامي البريطاني في دار الحماية حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وسأله من أثر المحادثة في نفسه فأجابه بأنها كانت ودية وغير رسمية. ثم تساءل المندوب في شبه استنكار:

«بأي حق وبأي صفة يتحدث ثلاثة من المصريين باسم الشعب المصري كله؟ قد يكونون من كبار المصريين ولكن هذا لا يعطيهم أية صفة للتحدث باسم الأمة وطلبات الأمة».

فأجاب رشدي بأنهم أعضاء في الجمعية التشريعية وأن سعد باشا هو الوكيل المنتخب لتلك الجمعية.

فأجابه سير ونجت المندوب البريطاني: «هذه ليست صفة تعطيهم حق التدخل والتحدث باسم مصر.. أن الجمعية التشريعية نفسها ليست لها هذه الصفة».

ولم يشأ رشدي باشا أن يجيب بعد ذلك وانتهى الحديث بين رئيس الوزراء والمندوب البريطاني.

هذه الملاحظة العابرة من جانب المندوب السامي البريطاني وهذا الحرص من جانب رشدي باشا على نقلها إلى الزعيم كانا السبب المباشر في اجتماع الوفد واتخاذ قرار حاسم.

كان الوفد لايزال في مرحلته الثانية من التكوين. وعدد أعضائه سبعة فقط اجتمعوا برئاسة سعد في صبيحة اليوم التالي أي يوم ١٤ نوفمبر وقرروا ضرورة عمل شيء يثبت لهذا الوفد صفة التحدث عن الأمة، ورأوا أن الوسيلة العملية الوحيدة لتحقيق ذلك هي وضع صيغة توكيل يوقعها أعضاء الهيئات النيابية كالجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البلدية وأكبر عدد ممكن من ذوي الرأي من المتعلمين والأعيان وسائر طبقات الشعب، ورأوا بحق أن هذا العمل هو بمثابة استفتاء عام للأمة المصرية عن وكالة الوفد عنها، ووضعت صيغة التوكيل بالنص الآتي:

«نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات:

١- سعد زغلول باشا.

٢- علي شعراوي باشا.

٣- عبد العزيز فهمي باشا.

٤- محمد علي علوبة بك.

٥- عبد اللطيف المكباتي.

٦- محمد محمود باشا.

٧- أحمد لطفي السيد.

ولهم أن يضموا إليهم من يختارون في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاما».

طبعت هذه الصيغة آلاف بنسخات كبيرة جدا وسافر بها عشرات الألوف من الشبان إلى جميع أنحاء البلاد، فأقبل الناس في حماسة بالغة على التوقيع عليها وعاد بعضهم ومعهم عشرات الألوف من الاستمارات إلى منزل الزعيم سعد زغلول. وأخيرا وبعد أسبوع واحد من إجراء هذه العملية التي نفذت على أوسع نطاق وبأسرع ما يمكن وبتأييد شفوي من رشدي باشا إلى المديرين. أدرك

للمستشار البريطاني لوزارة الداخلية (مستر هينز) ما تنطوي عليه هذه العملية من أخطار على السياسة الاستعمارية البريطانية الممثلة في الحماية، ورآها محاولة ناجحة لتعبئة المشاعر الوطنية المصرية وإلهاب الوعي العام بالسخط الشديد على الحماية والعمل على إزالتها وتكتيل الشعب حول زعامة الوفد. فأصدر الأوامر الشديدة بمنع تداول هذه التوكيلات ومصادرة ما جمع منها واعتقال القائمين بها.

خطابان من الزعيم سعد زغلول إلى رشدي باشا

الأول: بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ وقد جاء فيه

«ألفت مع جماعة من ثقات الأمة ونوابها وأصحاب الرأي فيها وفدا لينوب عنها والتعبير عن أمانيها في مستقبلها. وشرعنا في جمع هذا الرأي بصيغة توكيل خاص فوق ما للكثير منا من صفة النيابة العامة. فأقبل الناس على إمضاء هذا التوكيل إقبالا عظيما مع السكينة والهدوء، وهذا أقل مظهر من مظاهر الإعراب عن رأي الأمة في مصيرها ولكن قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن إمضاء هذه التوكيلات.

فهل لي أن ألتمس من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم بدون تعطيلهم لمشروع ... الخ»

والثاني في اليوم التالي أي يوم ٢٤ نوفمبر، أرسله الزعيم سعد زغلول إلى رشدي باشا وجاء فيه ما يلي

«إن رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع على التوكيلات بل تجاوزوه إلى مصادرة ما تم التوقيع عليه منها. فالتمست نظر دولتكم إلى هذه المعاملة التي يأباها عدلكم ومبادئ العصر الحاضر».

رد رشدي باشا

وفي يوم ٢٦ من نوفمبر رد رشدي باشا على الخطابين قائلا بكل صراحة أن الأوامر إنما صدرت بهذا المنع والمصادرة من مستشار وزارة الداخلية وأن السبب يرجع إلى وجود الأحكام العرفية وإلى عبارة التوكيلات مما قد يؤدي إلى الإخلال بالنظام العام.

هذا ولهجة الرد وأسلوبه يدلان على تنصل رشدي باشا من تبعة هذه الأوامر وإلقائها على عاتق المستشار البريطاني.

وفي هذه الأزمة الطارئة عم الغضب والسخط جهات ثلاث

أظهر الوفد غضبه وسخطه على المنع والمصادرة ولكن حقق ذلك كل ما أراد.

وأظهر الوفد غضبه وسخطه بالتنصل من التبعة وإلقائها على كاهل الإنجليز

وكتم الإنجليز غضبهم وسخطهم على الوفد ورشدي وانكشفت نياتهم السيئة ولا حيلة لهم في ذلك.

وإذا كان الوفد قد فاته إتمام كل ما أراد من التوكيلات فقد سجل بعضها ما هو أهم منها. سجل منعها ومصادرتها بأوامر الإنجليز وحدهم. ولا يدل هذا المنع وهذه المصادرة إلا على شيء واحد لا ثاني له وهو موقف الإنجليز من الصباح الذي تمنع المصريين بمطالبة من تقرير المصير بطبيعته كمبدأ أساسي أقره الإنجليز ضمن مبادئ الرئيس ولسن. تلك المبادئ التي تظاهروا بالموافقة عليها والإعجاب بها.



مشكلة سفر الوفد إلى الخ

في هذا الوقت مرت مشكلة المشكلات وأزمة الأزمات والايمكن أن تنتهي إلا بقارعة على ما يظهر. لقد سبق أن بينت أن السلبية ومشاعرها المميتة قد انتهت بعد أن سادت وعمت منذ نكبت مصر بالاحتلال البريطاني ثم بالحماية، أما اليوم فقد أصبح سلوك المصريين ايجابيا قائما على تحديد الأهداف ورسم الخطط ثم العزم الصادق على العمل مهما تكن العقبات، ومهما تتلاحق التهديدات وتتلاطم الأخطار. وكيف يكون الأمر غير ذلك وقد تجلى الأمل الساطع الصادق بظهور الزعيم القوى الصالح للجهاد وتم تكوين الوفد وكيلا عن الشعب المصري كله. وتحددت الأهداف في إلغاء الحماية الكريهة والاعتراف بالاستقلال وإنهاء الاحتلال بتحقيق الجلاء، ووضعت الخطط على أساس السفر إلى الخارج والعمل بالعزم الصادق الأكيد بعرض قضية الوطن أمام مؤتمر السلام في فرنسا والعقبة الوحيدة الكأداء الآن هي معارضة بريطانيا المنتصرة لكل ما أستقر عليه اجماع مصر، وهي في مركز القوة المتحدية هذه المشكلة الكبرى..

لقد مرت هذه المشكلة في بعض مراحل امتازت كل مرحلة منها بمعالمها الخاصة، ولكن كانت كل واحدة منها متصلة ممهدة لما بعدها وهي.

أ- مرحلة المحاولات.

ب- مرحلة الاصطدامات

ج- مرحلة التحدي.

د- مرحلة النفي والثورة.

هـ- مرحلة الإفراج والسفر.

مرحلة المحاولات

المحاولة الأولى: في ٢٠ من نوفمبر ١٩١٨ طلب الزعيم كتابة من قيادة الجيش البريطاني جوازا له ولأعضاء الوفد بالسفر إلى انجلترا. وكان منح جوازات سفر إلى الخارج من اختصاص السلطة العسكرية البريطانية، فالكلمة الأولى في البلاد هي لقائد هذه القوات العسكرية.

وفي اليوم التالي ردت السلطات العسكرية أن هذا الطلب سينظر فيه في أقرب وقت ممكن.

المحاولة الثانية: بعد انقضاء أسبوع واحد أي في يوم ٢٨ نوفمبر أرسل الزعيم خطابا آخر يستعجل النظر والبت في طلبه.

وفي اليوم التالي ردت السلطة العسكرية البريطانية بأنه قد عرضت صعوبات تمنع من اجابة الطلب في الوقت الحاضر، ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر السلطات باعطائه وصحبه الجوازات التي يطلبونها.

المحاولة الثالثة: في ٢٩ نوفمبر أرسل الزعيم خطابا إلى المندوب السامي البريطاني ذكر فيه انه كتب إلى السلطة العسكرية البريطانية يطلب جوازات سفر له ولأعضاء الوفد بقصد السفر إلى لندن لمفاوضة أولي الحل والعقد البريطانيين بشأن مستقبل مصر فرفضت تلك السلطة بحجة وجود صعوبات تمنع من اجابة الطلب في الوقت الحاضر. ورجا المندوب أن يبذل وساطته للحصول على هذه الجوازات سريعا حتى يكون الوفد في لندن قبل الاسبوع الأخير من شهر ديسمبر.

ومضى يوم أو يومان فلم يرد المندوب السامي البريطاني على هذه الكتابة ولا هو كلف أحداً من مستشاريه أو كبار موظفيه ليتولى الرد وإنما كلف نائب سكرتيره الخاص أن يرد على زعيم البلاد.

ولما كان هذا الرد بشكله وموضوعه على أعظم جانب من الأهمية فقد رأيت أن أسجله هنا كاملاً (مترجماً عن النص الإنجليزي الذي ورد به).

أول ديسمبر ١٩١٨

كلفت من قبل فخامة المندوب السامي البريطاني بإحاطتكم علماً بوصول خطابكم المؤرخ في ٢٩ نوفمبر الماضي وإخباركم بأن فخامته قد رأى بعد استشارة حكومة جلالة الملك أنه لا يستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية في هذا الموضوع. وأضف إلى ذلك أنكم إذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم في مصر بما لا يخرج عن الخطة التي رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل. فالأفضل أن مثل هذه المقترحات تقدم كتابة إلى فخامته».

«وبهذه المناسبة ألفت نظركم إلى خطاب مستر ملن تشيتهام الذي أرسله بناء على أمر الحكومة البريطانية إلى المرحوم السلطان حسين عند توليه عرش مصر».

ج. س. بسمير
(السكرتير الخاص بالنيابة)

رأى الزعيم بحق ورأى معه أعضاء الوفد أن هذا الخطاب وضيع في أسلوبه وفي موضوعه وفي مصدره أو معناه أن الوفد لا يستطيع السفر إلى الخارج بل يظل سجيناً في مصر. ومعناه أيضاً أن الوفد يحصر اقتراحاته في دائرة الحماية وأن يقدمها إلى ممثل الدولة الحامية وهي أمور غير مقبولة ولا معقولة ولا محتملة، وهي مرفوضة رفضاً باتاً، بل هي أمور مثيرة إلى الدرجة القصوى

ورأى الوفد أن يسجل اعتراضاته في خطاب يرسله إلى المندوب السامي نفسه مرة أخرى.

المحاولة الرابعة: في ٣ ديسمبر أرسل الزعيم خطاب الوفد إلى المندوب السامي البريطاني وفيما يلي أهم ما جاء فيه:

«أبادر بإبلاغكم بأنه ليس في وسعي ولا في وسع أي عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لاتكون مطابقة لإرادة الأمة المصرية المعبر عنها صراحة في التوكيلات التي أعطيت لنا. وإني ألفت نظركم إلى أن هذه التوكيلات اقبل الشعب على التوقيع عليها في شغف وحماسة. وكان في الطليعة كبراء الأمة ومن بينهم أعضاء الجمعية التشريعية والهيئات النيابية الأخرى. وكان من المنتظر أن يصل هذا الإقبال إلى حد الإجماع لولا أن تدخلت الإدارة فمنعت تداولها ثم عمدت على مصادرتها.

- وأن من المستحيل علينا أن نصل إلى غايتنا عن طريق محادثات مبسطة تجرى بيننا وبينكم هنا في مصر. فإن القضية التي ندافع عنها يجب أن نعرض بادىء ذي بدء على الرأي العام البريطاني الذي لاشك في أنه في حاجة إلى الحصول على معلومات لايمكن أن يبديها إلا الممثلون الطبيعيون للشعب المصري ذاته.

- وإن العراقيل التي وضعت في سبيل سفرنا من شأنها أن تمنع تحقيق المهمة الملقاة على عاتقنا وهي مهمة إظهار إرادة الشعب المصري».

ومضت الأيام ولا جواب من ممثل الدولة المحتلة، ولا حتى من مكتب سكرتيره السامي.

ومع ذلك رأى الوفد أن يقوم بمحاولة خامسة أخيرة فقام بها وهو شبه يائس من جدواها بل لعل قصاراها أن تبعد رشدي عن حظيرة الإنجليز وتقربه إلى صفوف المجاهدين.

المحاولة الخامسة

في ٨ من ديسمبر أرسل الزعيم خطابا من الوفد إلى رشدي أبلغه فيه خلاصة محاولات الوفد للسفر إلى الخارج وردود الانجليز عليها بالرفض وناشده أن يبذل مساعيه ويستعمل نفوذه كرئيس للحكومة المصرية لتمكين الوفد من السفر.

ولكن هل لرشدي أو لأي مصري نفوذ أو مكانة عند الانجليز إلى هذا الحد؟ سخرية لقد كان من مصادفات الأقدار في ذلك الوقت بالذات أن رشدي باشا كان من ناحيته معتزما السفر إلى انجلترا ومعه زميله عدلي يكن باشا. ومشروع سفرهما هذا كان قد بدأ من قبل السلطان نفسه وكان يقصد بسفره هذا أن يعرض مطالب الحكومة المصرية على الحكومة البريطانية.

وماذا كانت مطالب رشدي وحكومته التي أراد أن يعرضها على الحكومة البريطانية؟

إنها لم تكن إلغاء الحماية أو إنهاء الاحتلال أو الاعتراف بالاستقلال كما يطلب الوفد. وإنما هي شيء متواضع جداً وهو الحصول على ما يمكن الحصول عليه من الحكومة البريطانية!!

فإذا كانت الحكومة البريطانية قد رفضت سفر الزعيم والوفد إلى الخارج ومنعه من مطالبهم المحددة الكريهة إلى قلبها المعارضة لأغراضها الاستعمارية في مصر. فهل يعقل أن ترفض الحكومة البريطانية سفر رشدي وعدلي إلى لندن لمفاوضتها ومطالبهما مقصورة على مجرد الحصول على أكثر ما يمكن من الحرية لمصر، كما سجل ذلك رشدي باشا على نفسه في استقالته بتاريخ ٢ ديسمبر؟

ــــ [illegible]

في اليوم التالي أي في ٥ ديسمبر اجتمع الوفد كالعادة في منزل الزعيم وقد امتاز هذا الاجتماع بأمرين على أعظم جانب من الأهمية.

نبأ استقالة رشدي باشا ووزارته

ذكر الزعيم انه تقابل مع رشدي باشا مساء أمس في نادي محمد علي وسأله عما ينتوي عمله استجابة لخطاب الوفد الذي أرسله له صباح أمس. فأجاب رشدي باشا بأنه قدم استقالته إلى السلطان يوم ٢ ديسمبر لأن الحكومة البريطانية رفضت سفره مع عدلي باشا إلى لندن، وأخرج من جيبه صورة الاستقالة وسلمها إلى الزعيم.

وهنا تلا الزعيم نص الاستقالة وقد جاء فيها ما نصه

«عندما أخذت على عاتقي امام ضميري وأمام وطني وأمام التاريخ مسئولية منصبي في عهد النظام الجديد عاهدت نفسي عهدا أساسيا أن أطلب من الحكومة البريطانية عند الشروع في مفاوضات الصلح أكثر ما يمكن من الحرية لمصر. ولما وقد أوشكت هذه المفاوضات أن تبدأ طلبت من الحكومة البريطانية بعد تصديق عظمتكم أن تسمع أقوالي فكان جوابها بمثابة التسويف إلى ما بعد الصلح مع أني بالعكس أرى أن الوقت الحاضر هو الذي ينبغي فيه عرض ما لمصر من الأماني القومية وتأييده. فلهذه الأسباب أتشرف بتقديم استعفائي بين يدي عظمتكم من رياسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية. وإن زميلي عدلي يكن باشا الذي حبذ رأيي ويعضدني يشاركني في هذا الأمر فهو يقدم شخصيا استعفاءه من وزارة المعارف العمومية».

ثم قال الزعيم انه عندما اطلع على صورة هذه الاستقالة تأثر وتألم لأن رشدي لم يصرح فيها بمسألة سفر الوفد الوكيل عن الأمة المصرية. وهي مسألة تاريخية كان يجب أن تذكر في وثيقة رسمية ولم يسعه إلا أن يقول لرشدي باشا:

دالة حطت من تسويف الانجليز لمصرف سبها لاستقالتك. أفما كان عليها بك وأكرم لو أنك حطت من رصيصم لسفر الوفد سبها أمر الاستقالة وأنك لتعلم أن الوفد هو الوكيل الشعبي المختار المعبر عن رغبات الأمة المصرية؟

فاعتذر رشدي ووعد بذكر ذلك في استقالته الثانية وقال: ان السلطان رغم مباح أمس إلى مقابلته وأبلغه بأنه لا يوافق على استقالته هذه. وأن المندوب السامي نفسه غير موافق ووعد بأنه سيعيد الكرة مع الحكومة الانجليزية عسى أن ينتفع في سفر الوفد فإذا لم يوافق فإن رشدي مصمم على تقديم استقالته من جديد.

أول قرار خطير يوافق الوفد عليه بالاجماع

بعد أن فرغ الوفد من مسألة استقالة رشدي وتعليقات الأعضاء عليها أبرز الرئيس من جيبه مشروع قرار أعده بنفسه وتلاه وطلب الموافقة عليه وهو مكون من خمس فقرات وهذا نصها.

١ - العدول عن فكرة السفر إلى لندن والتحلل من خطة الاقتصار على مفاوضة الانجليز وحدهم.

٢ - نقل القضية المصرية إلى الميدان الدولي والاتصال المباشر بممثلي جميع الدول الأجنبية.

٣ - السعي لتثبيت سفر الوفد إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح في فرساي.

٤ - الاتصال بالرئيس ولسون ومستر كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح بشتى الطرق في الوقت بعد الوقت. وفي كل مناسبة مادام أن الوفد سيظل ممنوعاً من السفر إلى باريس.

٥ - عدم تنفيذ أي أمر يصدر إلى الوفد من السلطات البريطانية عسكرية أو غير عسكرية إذا كان هذا الأمر فيه أقل مساس بقضية البلاد. إلغاء الحماية

وإنهاء الاحتلال وتحقيق الاستقلال، أو كان فيه أقل تعطيل لنشاط الوفد ومهامه أو المساس بكرامته وحريته. ووسط الإعجاب الشديد وافق الوفد بالإجماع على هذا القرار الخطير .

وهذا القرار لايحتاج إلى تحليل طويل فهو آية تدل على صدق العزيمة والوطنية وروح التصدي والشجاعة والجهاد حتى الفداء.

مرحلة الاحتجاجات والاستقالات

فتح الوفد بهذا القرار صفحة جديدة في الجهاد وأسلوبا جديدا في العمل، ونقل قضية البلاد من ميدان ضيق إلى ميدان رحيب إلى مؤتمر الصلح في باريس. وأن مؤتمر الصلح هذا سيفتح أبوابه ويبدأ أعماله يوم ١٨ يناير ١٩١٩ أي بعد شهر ونصف الشهر تقريبا من هذا اليوم الذي عدل فيه الوفد عن خطته القديمة ورسم خطة سياسية تنفيذية جديدة بفضل قراره الخطير..

في هذه الفترة القصيرة أرسل الوفد عددا كبيرا من البرقيات إلى رؤساء الدول المدعوة إلى هذا المؤتمر. وكان عددهم ثلاثين دولة وهي التي اشتركت في الحرب ضد ألمانيا والنمسا وتركيا. وأكتفي بالذكر من هذه البرقيات ما يأتي على سبيل المثال لا الحصر لأبين كيف كان أسلوب الوفد في الاحتجاج والمناشدة طلبا للمساعدة

برقية احتجاج إلى رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج، في ديسمبر:

يحتج الوفد المصري بشدة على استبداد السلطات البريطانية في مصر ومنعهم الوفد الممثل للشعب المصري من السفر لعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح في باريس كما يستنكر الوفد ما طلبه المندوب السامي البريطاني بأن يكتفي الوفد بتقديم اقتراحاته الخاصة بطريقة التحكم في مصر إلى حكومته بشرط ألا تخرج عن دائرة الحماية التي أجمعت الأمة المصرية على

رفضها واستنكارها وضرورة الخلاص منها وإمهالها. ونرجو أن تنعموا النظر في هذا الموقف في ضوء مبادئ الرئيس ولسون وحق تقرير المصير الذي أعلنتم على الملأ موافقتكم عليه وعليها نرجو ألا يحال بيننا وبين السفر طويلاً.

وصول الرئيس ولسون إلى باريس يوم ١٣ ديسمبر:

لقد تسلم يوم وصوله برقية احتجاج من الوفد على منع بريطانيا لمصر من إسماع صوتها والافضاء بمطالبها في مؤتمر الصلح وذلك بمنع الوفد ممثل الأمة المصرية من السفر.

واستطرد الرئيس سعد في برقيته هذه فقال:

«إن السلطات البريطانية في مصر طلبت إلينا أن نبدي اقتراحاتنا من طريقة إدارة مصر بشرط ألا تخرج من دائرة الحماية التي ربتها بريطانيا وفرضتها على مصر فرضاً. إنها بذلك إنما تطلب المحال منا لأن مصر لم تقبل ولن تقبل هذه هذه الحماية، بل هي مناقضة حتى للاستقلال الذي كسبناه وتمتعنا به من تركيا. ولايمكن أن يرضيكم أن هذه الحرب التي انتهت في ضوء مبادئكم يترتب عليها تضييق دائرة الحقوق التي سبق لنا أن كسبناها، بل على العكس يجب أن توسع تطبيقا لمبادئكم الجديدة التي تقضي باحترام حقوق الشعوب وفي طليعتها حق تقرير المصير»

وفي ١٥ ديسمبر أرسل الزعيم سعد احتجاج الوفد إلى جميع ممثلي الدول الأجنبية في مصر على تعسف السلطات العسكرية في منعها للحريات جميعا ومنعها الوفد من السفر إلى الخارج، وانتهى بالجملة الآتية

«إن كل قرار يمكن أن يتخذ بشأن مستقبل مصر وفي غيبة ممثلي مصر يعتبر عديم الجدوى، فلابد من سماع ممثلي الأمة المصرية».

ومع الاحتجاج بيان بتحديد مطالب الوفد الوكيل عن الشعب المصري، ورجاء بإبلاغ هذه المطالب إلى حكومات بلادهم.

بيان بمطالب الوفد

١- تطلب مصر الاستقلال التام

أ- لأن الاستقلال حق طبيعي.

ب- لأن مصر لم تهمل قط أمر المطالبة بهذا الاستقلال بل هي قد سفكت في سبيله دم أبنائها ولقد كان ما حازته من النصر في ميدان القتال كافيا لرد السيادة إليها ولا اجتماع الدول العظمى في سنة ١٨٤٠ - ١٨٤١ واكراهها على تقليل مطامعها إلى أدنى حد ممكن و منعها نكتفي بالاستقلال كما حتى فقط وهو مع ذلك واسع النطاق يكاد يبلغ حد الاستقلال التام

ج- أن مصر تعتبر نفسها خالصة من آخر رباط كان يربطها بتركيا وهو رباط السيادة الاسمية. اذ أصبحت تركيا بسبب نتائج الحرب لاتستطيع التمسك بتلك السيادة

د- أن مصر ترى أن الوقت قد حان لأن تعلن استقلالها التام الذي يؤيده مركزها الجغرافي وأحوالها المادية والأدبية.

٢- تريد مصر أن تكون حكومتها دستورية وأن تراعي في تفاصيل النظام حالة البلاد الخاصة من جهة ما للأجانب فيها من مصالح وأن تقوم بعمل الاصلاحات الاقتصادية والادارية والاجتماعية تضمن على تحقيقها مدى التقدم في أهل البلاد الغربية كما كانت تلك عادتها فيما مضى.

٣- تعتبر مصر أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة واذا كان العمل أظهر أن بعضها بدعو إلى تحوير فيتم بمقتضيات الأحوال فانها تعرض ما يبدو لها من وجوه التعديل التي من شأنها المساعدة على تقدم البلاد من مسابقة المصالح المتطورة بها وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر غاية في الاخلاص والمجاملة.

٤- تتعهد مصر بالبحث في وضع طريقة للمراقبة المالية لاتقل أهميتها

بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات الامتيازات مما كان متبعاً قبل اتفاقية ١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومي

٥- تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات تمهيداً للمحافظة على قناة السويس وحيادها.

٦- تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف بوضع استقلالها تحت ضمانة عصبة الأمم وأن تشترك بنصيب ما فيها من الوسائل في تحقيق مبادئ العدل والحق على بسط الحدث

نقف الآن عن سرد الحديث على الاحتجاجات من الوفد إلى خارج البلاد وداخلها لنرى ماذا تم في أمر استقالة رشدي التي لم يقبل توفيقاً لإعادة الكرة والرجاء من جانب المندوب السامي لحكومته حتى توافق على سفر الوزيرين رشدي وعدلي ولنرى كذلك ماذا عسى أن يكون موقف رشدي إزاء الوفد في حالة الرفض أو الموافقة.

ملاحظة: علم الوفد يوم ٢٠ ديسمبر أن رد الحكومة البريطانية على الاستقالة قد وصل.

في ٢٣ ديسمبر ١٩١٨ قدم رشدي استقالته الثانية إلى السلطان وقال فيها ما نصه: سبق أن رفعت الرجاء إلى عظمتكم ألا تقبلوا استقالتي إلا بعد مراجعة لندن. فلم يكن جوابها الصريح إلا مؤيداً للجواب الأول. لهذا أصر على الاستقالة. ومن ذلك الحين لم ترد تبليغات رسمية. ولكن حدثت مساع ومحاورات أخرى لم توصل إلى نتيجة ما، وفي هذه الأثناء تألف وفد من أعضاء الهيئات البرلمانية في البلاد وطلبوا أن يسمح لهم بالسفر إلى لندن للدفاع عن مصالح مصر، فقصدت أن يؤذن لهم في ذلك وأن تسمع أقوالهم. فلم يصغ لنصحي. ولم يكتفوا بذلك بل أبوا علي أنا نفسي أن تسمع أقوالي فيما عساه أن يقوي مقام الحماية. لهذا التصرف ستحرم مصر دون غيرها من الأمم من أن

يسمع صوتها في الوقت الذي يبت فيه في مصيرها

وبناء على هذه الاعتبارات يلزمني أن أعود فألح على عظمتكم مع الاحترام بقبول استقالتي.

■ ■ ■

يذكر رشدي - في هذه الاستقالة - الوفد ولا يذكر مهمة الوفد، وكان فهما به أن يسجلها للتاريخ وأولى الأمر، ويتعجب كيف جاز في عقل رشدي أن يتقدم في وقت واحد بطلبين متناقضين يهدفين مختلفين.

إنه يطلب سفره إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية وهدفه هو تنظيم الحماية. ويطلب سفر الوفد إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية وهدفه هو إلغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال.

- كيف جاز في عقله ذلك فيجمع بين النقيضين ولا يرى في ذلك غضاضة رغم ما فيه من عيب ظاهر وحرج أكيد؟

لو أن رشدي قدم استقالته لسبب غير ذلك السبب وهدف غير ذلك الهدف وترك الميدان للوفد لكي يسافر وحده بناء على طلبه ونصيحته لقدم بذلك خدمة عظيمة للوفد وخدمة أعظم لقضية البلاد. ولقلنا إنه آثر المصلحة العامة ورفعها فوق كل اعتبار. ولكن ما فعله بهذه الاستقالة (أقل ما يقال عنه) أنه ينطوي على تناقض وإحراج، إحراج لنفسه وإحراج للوفد وإحراج لقضية البلاد.

ومع أنه كان من حسن حظ البلاد في ذلك الوقت أن الاستقالة لم تنشر ولم يعرف الناس محتوياتها وكان هذا الجهل سببا في أن ذاع وشاع أن رشدي قدم استقالته تضامنا مع الوفد فارتفع شأنه وعلا ذكره، والتهبت حماسة الجماهير وتزايدت موجات السخط والغضب على الانجليز

ولم يمض أسبوع واحد، حتى قدم رشدي استقالته الثالثة إلى السلطان في

٣٠ ديسمبر وقد جاء فيها ما نصه: «يا صاحب العظمة السلطانية إن التأجيل في قبول استقالتي قد يكون من عواقبه تحمل المسئولية التي أردت وإنني أريد قطعيا احتمالها وهي مسئولية قيامي بمنصب الوزير الأول لمصر وعدم اهتمامي مع ذلك بمصيرها في الوقت الذي سيحصل فيه البت في أمرها نهائيا. فأتوسل إلى عظمتكم بقبول ذلك الاستعفاء بدون إرجاء. ولكيلا أجعل سبيلا إلى تجديد التسويف أبادر إلى القول إنه قطعي لا رجوع فيه فلم يعد محلا للمفاوضات فيما يتعلق به فلم يبق سوى الاشتغال بتأليف وزارة جديدة.

هذه بلا شك استقالة حاسمة في ظاهرها ولكنها ليست حاسمة في طبيعتها لسببين:

الأول: لأن الإنجليز لم يكن في استطاعتهم قبولها في هذه الظروف الخطيرة التي تجتاز فيها مصر الثورة.

والثاني: لأن رشدي ليس من قوة الإرادة بالقدر الذي يحمله على القطع والبت الحاسم وهو مستعد دائما للتراجع وعرضة لسرعة التأثر وقبول الرجاء.

أما الإنجليز فإنهم يدركون تمام الإدراك أن مصلحتهم تأليف وزارة جديدة بعد رشدي أمر عسير غاية العسر إن لم يكن مستحيلا للاعتبارات الآتية:

١- أن المصري الذي يقبل تأليف وزارة جديدة يقبل في الواقع أن يتحدى الشعور الوطني الثائر ويعني أنه موافق على سياسة الحكومة البريطانية ويتضامن معها في فكرة وضع المسألة المصرية على الرف حتى تنتهي بريطانيا من مؤتمر الصلح في فرساي وحل كل مشاكلها.

٢- ويعني أنه موافق على قرار الحكومة البريطانية في منع الزعيم والوفد من السفر إلى الخارج وحبسهما داخل حدود مصر حتى لا يتمكنوا من خدمة قضية الاستقلال.

٣- ويعني أنه لا يؤمن بالاستقلال لبلاده وأنه يؤمن بالحماية البريطانية الكريهة

٤- ويؤكد البراهمة أنه لا يوجد مصري واحد يجرؤ على البروز بهذه المظاهر المخزية ويرتكب جريمة الخيانة السافرة. وبينما وصل الشعور الوطني إلى درجة الغليان وأوشك على الانفجار.

فماذا يعمل الانجليز؟ لقد عادوا إلى سدل الستائر مع رشدي حتى عدل عن هذه الاستقالة أيضا، ووعد المندوب السامي ببذل مجهود آخر مع الحكومة البريطانية وقال إنه مسافر إلى لندن قريبا بناء على دعوة الحكومة البريطانية وطلب إلى رشدي أن ينتظر ويصبر قليلا. فقبل رشدي أن ينتظر ويصبر قليلا ووعد بسحب استقالته إذا قبلت الحكومة البريطانية أن يسافر هو وعدلي إلى لندن وأن يسافر الوفد كذلك. ورجا من المندوب السامي أن يرسل إليه برقية بجواب الحكومة البريطانية في أقرب وقت مناسب بعد وصول المندوب السامي إلى لندن

فما هي تلك المناسبة لإرسال تلك البرقية المنشودة؟

مضى شهر وعشرة أيام على استقالته الأخيرة ولم يرد شيء من المندوب السامي فقدم رشدي استقالته الرابعة في ١٠ فبراير ١٩١٩ إلى السلطان وجاء فيها ما نصه.

.. على أثر كتابي المرفوع إلى سدتكم العلية بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ الذي ألمحت فيه دلائل الإلحاح مع سدتكم بقبول استقالتي قد كنت رضيت من باب التوفيق بالاتفاق الآتي بيانه: وهو أن صاحب المقام الجليل المندوب السامي ينتهز فرصة سفره إلى لندن فيشرح شفهيا للحكومة البريطانية أنه بعد وصول الحالة إلى الحد الذي جعلته أصبحت لا أكتفي بما عرض علي وقتئذ

من مفروض أن ورحيلي عدلي باشا إلى لندن في النصف الأول من فبراير والتي استقالتي لسحب استقالتي شرطا أساسيا وهو إباحة السفر إلى أوربا لمن يطلب من المصريين. ومن ضمن ذلك الاتفاق ورود الجواب عن الحكومة البريطانية بالتصرف في بحر عدة مناسبة من وصول المندوب السامي إلى انجلترا وأنه إذا كان هذا الجواب سيئا فإن عظمتكم تقبلون استقالتي فورا، وأنني في أثناء هذه الفترة أباشر بصفة مؤقتة محضة تسيير الأمور المستعجلة. الأمر الذي دعاني إلى التوقيع على مرسوم تعيين المحاكم المختلطة منعا لتوقف سير القضاء. على انقضى مضى عشرة أيام على الأقل بعد الوقت الذي لابد أن يكون المندوب السامي وصل فيه إلى لوندرة ومع ذلك فلم يصل جواب ما

ويستحيل علي أن أقبل أي تأخير جديد وإنني أعتبر في حل من القيام ولو مؤقتا بأي عمل حتى ولو كان مستعجلا. فأعود إلى التمسك بكتابي المشار إليه المؤرخ في ٢٠ ديسمبر ١٩١٨ والتمس من عظمتكم بكل إلحاح إنهاء حالة شاذة قد زاد طول العهد عليها».

هنا قبلت الحكومة البريطانية سفر رشدي وعدلي وأرسلت إليهما الدعوة الرسمية ليكونا في لندن في أواسط شهر فبراير. أما سفر الوفد فقد رفضته الحكومة البريطانية مرة أخرى وقررت قرارها السابق من أنه لا فائدة مطلقا من السماح لرجال الوفد بالحضور إلى لندن.

وظلت استقالة الوزارة معلقة أكثر من أسبوعين. فأصر رشدي على موقفه وطلب قبول الاستقالة.

وأخيرا في أول مارس قبلت الاستقالة. مع رجاء السلطان في كتابه إلى رشدي على موقفه وطلب قبول الاستقالة.

وأخيرا في أول مارس قبلت الاستقالة مع رجاء السلطان في كتابه إلى رشدي

والاستمرار في إدارة الأعمال إلى أن يتم تأليف الوزارة الجديدة. وهذا الإضراب المكشوف أعجوبة الأعاجيب، وزراء مستقيلون يستمرون في إدارة أعمال الحكومة من منازلهم رغم قبول استقالتهم، إنه رجاء سلطاني غير قابل للتنفيذ.

وكانت النتيجة أن اعتكف رشدي ووزراؤه في منازلهم لا يمارسون أي عمل من الأعمال واختفت الحكومة المصرية من الوجود وأصبحت جميع الوزارات وأقسامها وفروعها والجيش والبوليس في يدي الرؤساء الإنجليز مباشرة يأمرون وينهون ويفعلون ما يشاءون بغير ضابط أو قانون أو مراعاة لأية مصلحة سوى المصلحة البريطانية وحدها دون سواها

فترة حاسمة

في مشكلة السفر إلى الخارج

فترة لا تكاد تتجاوز ثلاثة أشهر بذلت فيها محاولات للسفر إلى الخارج من جانبين: جانب الزعيم والوفد وجانب رشدي وعدلي.

انتهت هذه المحاولات بالنسبة لرشدي وصاحبه في أول مارس ١٩١٩ ولم تنته بعد بالنسبة للزعيم والوفد.

والآن فلننظر كيف عولجت مشكلة السفر إلى الخارج من كل من الجانبين إنها عولجت بأسلوبين مختلفين وانتهت إلى نهايتين متباينتين

١ - كان أسلوب رشدي أسلوبا سلبيا. رجاء ثم حيرة أمل وتألم ومسالمة وتسليم ثم تقديم الاستقالات على فترات متقاربة أو متباعدة. ولما قبلت استقالته النهائية في أول مارس خرج من الوزارة ومن الحياة العامة معززا مكرما من السلطان والإنجليز كما ظل طوال مدة الحرب معززا مكرما من السلطان والإنجليز. ثم انزوى واعتكف عن كل نشاط، وعاش في داره آمنا في سربه مطمئنا قانعا ناعما بالحياة. مدخرا نفسه للعودة إلى الوزارة مرة أخرى عندما يحين الأوان.

فمسلكه في الواقع قائم على الهروب من المسئولية وقبول الهزيمة والانعزال.

٢- أما مسلك الزعيم والوفد فقد قام على التمسك بالواجب والاضطلاع بالمسئولية ورفض الهزيمة واستمرار النشاط حتى النصر. أو بعبارة أخرى كان أسلوب الزعيم أسلوبا ايجابيا. كله ثم مناهضة ومقاومة واحتجاج ثم عمل وكفاح وتحد وصدام ثم اعتقال ونفي وابعاد ثم ثورة وإضراب وانتصار ثم نصر.

وهنا تتجلى طبيعة الرجلين وتبرز قيمة الأسلوبين. ولهذا كتب التوفيق والنجاح للزعيم والوفد في حل مشكلة مصر إلى الخارج

بينما كتب العجز والفشل لرشدي وعدلي.

ولهذا نترك رشدي الآن حيث انتهى..

ولنتحدث عن الزعيم والوفد الذين ظلوا وقوفا صامدين في ميدان الجهاد، معرضين لأشد الأخطار، مستعدين لأقصى الفداء.

لقد ظل الزعيم والوفد في اجتماعات متصلة الحلقات يوميا. وظهر الزعيم في حركة دائبة ونشاط متزايد. وتجلى ذلك النشاط الفريد في برقيات الاحتجاج على تحكم الانجليز يرسلها تباعا إلى رؤساء الوفود المجتمعين في مؤتمر الصلح في فرساي وفي الاجتماعات يعقدها في داره أو يحضرها خارج داره، وفي الخطب الملتهبة يلقيها وفي البيانات يصدرها إلى ممثلي الدول الأجنبية في مصر حتى ضاق الانجليز ذرعا بأمره واشتدت نقمتهم عليه. فماذا يفعلون مع هذا الزعيم الجرىء العنيد الذي لا يهاب ولا يهدأ؟. لقد أكثروا من اجتماعاتهم العسكرية والسياسية وتساءلوا فيما بينهم وهم حانقون: ما فائدة الأحكام العرفية البريطانية؟ وما فائدة كل ما في أيديهم من وسائل الردع والبطش والتشريد والتعذيب إذا كان هذا الزعيم المصري يتكلم ويفعل ما يشاء وينقد الحماية ويحتج ويفضح الانجليز ويلعنهم كما يريد. مستخفا بهم ولا يقيم

وزملاءه يسجنونهم. ويعلن الاستقلال جهاراً نهاراً وأسطول الإنجليز في ثغرها فهل يعتقلونه؟ هل يحاكمونه؟ هل يحاصرونه في بيته؟ هل يعزلونه عن الناس بنقله إلى الريف بعيداً عن العاصمة؟ وهل ينفونه خارج البلاد. وأصحابه البارزون ماذا يفعلون بهم وكيف يشردونهم. ثم أنصارهم وهم أفراد الشعب المصري كله ماذا يكون أمرهم؟

أسئلة خطيرة والإجابة عنها أشد خطورة. فلنتركها الذي ساقتنا إلى الأيام القليلة المقبلة، فليس بين انتهاء هذه الفترة الحاسمة وبدء الثورة العامة إلا أسبوع واحد.

وما الأسبوع الواحد ببعيد، ثم ما لنا نتعجل الأحداث العظام؟

علينا أن نذكر ونسجل هنا بعض ما صدر عن هذا الزعيم في تلك الفترة الحاسمة من برقيات وخطب وأعمال وتصريحات حتى لا يكون الكلام مرسلاً في وصف الحال ومن غير دليل.

الاستمرار في مرحلة الاحتجاجات

في ١٠ يناير، أرسل الزعيم برقية إلى مسيو كليمنصو رئيس مؤتمر السلام جاء فيها:

مبادئ الإنسانية التي تأبى أن نكره على أن ننتقل من يد إلى يد أخرى كما تنقل ملكية السلع. فحذار من وراء الإنجليز أن يفسر سكوتنا الإكراهي الذي هو النتيجة الطبيعية لحبسنا داخل حدود بلادنا، دليلاً على رضائنا بسيادة الغير علينا وألا تسمح بالحكم في مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا

في ١٢ يناير، وصل الوفد السوري إلى مصر في طريقه إلى فرنسا ليمثل بلاده في مؤتمر الصلح في باريس (فرساي) كما وصلت الأنباء وذاعت عن

الرخيص لوفود من الهند والحجاز وأرمينيا والعراق بالسفر إلى مؤتمر الصلح والإعلان عن مطالبها أمامه. فانتشرت في مصر موجات من السخط والحقد على الحلفاء عامة وعلى انجلترا خاصة. وإني لأميل إلى الاعتقاد بأن في هذه اللحظة الحرجة من يوم ١٣ يناير ١٩١٩ بدأ الشعب وزعماؤه يلتمسون من الطرق السلمية التي يتصورها للوصول إلى الأهداف القومية وفي طليعتها الآن مسألة السفر إلى الخارج.

وبدأ الشباب المصري في التفكير الجدي في الثورة.

وفي ١٣ يناير أرسل الزعيم برقيتين أخريين.

برقية أولى إلى المسيو كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح. وبرقية ثانية إلى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية. وهذا نصهما:

«إن كرامة مصر لا تطاق، إن الشعب المصري بأسره من أكبر رجل إلى أصغر فلاح محبوسون داخل بلادهم لا يسمح لأحد بالخروج من هذا الحصار الشديد.

ثم استطرد فقال: «إنكم انتفعتم في هذه الحرب برجال مصر وأموال مصر. وبمصر نفسها في مواطن شتى بل إن ذلك كان من أجل العوامل التي ساعدت على إحراز النصر في الشرق. والآن بينما مصر المساعدة لكم تنتظر أن تعامل المعاملة اللائقة بها وببعض خدماتها لكم. إذ بها تراكم عداة الهدنة تتنكرون لها ظهر المجن، وحبستم أهلها داخل حدودها على الذل والهوان. قد يكون مفهوما «على المبادئ» القديمة أن يكون رجل السياسة استعماريا، ولكن كيف يسمح اليوم لإحدى الدول أن يعميها حب الاستعمار ويجيز لها حصر أمة عزلاء ليس بينهما حرب. أنتم الذين قبلتم مبادئ الرئيس ولسون؟

مرحلة التحدى

لم يبق إلا خمسة أيام على افتتاح مؤتمر الصلح فى فرساى (باريس) وما زال الوفد ممنوعا من مشاركة مصر بحضور هذا المؤتمر وثورة الغضب ومرارة الكمد تملأن كل الصدور والسخط على الانجليز فاق كل الحدود، ومن اليسير جدا تصوره ولكن من العسير جدا وصفه وصفا دقيقا.

فاتفق الزعماء على أن يقيم حمد الباسل باشا فى داره بالرحبة حفلة شاى يدعو إليها جماعة من ذوى الرأى فى مختلف الطبقات ويلقى الزعيم فى الجمع الحاشد خطبة سياسية فيها من التحدى بقدر ما فيها من الاستفزاز، وفيها من الحقائق التى يجب أن تسجل وتعلن وتلهب المصريين بقدر ما فيها من السخط ضد المحتلين.

وهذه هى أول خطبة سياسية يلقيها الزعيم بعد الهدنة. قال:

«أيها السادة: إنى أشكر زميلى حمد الباسل باشا على أن هيأ هذه الفرصة التى انتهزها لأحدثكم عن تفاصيل هذه الأزمة التى تجتازها مصر فى الوقت الحاضر حتى لا يفوت بعض أولى الرأى عندنا شىء من أعمال الوفد الذى شرفته البلاد بتوكيلها للسعى فى قضيتها الكبرى، قضية الاستقلال.

«ليست فكرة الاستقلال جديدة فى مصر، بل هى قديمة تتأجج فى قلوب المصريين والتشوف إلى تحقيقها كلما بدت بارقة أمل فيه، ومصر دائما كلما استطاعت القوة أن تحمى أنصار الحق. وبعد فكان الوقت الحاضر أنسب فرصة لتحقيق هذه الفكرة لأن رابطة السيادة التركية أضحت تتضاءل حتى لم يبق شك فى انقطاعها، وأن الاحتلال الفعلى لا يجد فرصة أنسب من هذه الفرصة لتحقيق رجاء لورد سالسبورى الذى قاله فى ٢ نوفمبر ١٨٨٦: «نحن لا نبحث إلا عن الخروج من مصر بشرف».

عقب هذا الاحتلال الذي لم يكن له حق في البقاء، إلى حماية في نظر رأي الانجليز ومن غير اتفاق مع مصر، ولكنها في أيضا باطلة بطلانا ماضيا امام القانون الدولي، ومخالف مخالفة صريحة للمبادئ الجديدة التي خرجت بها الانسانية من هذه الحرب الهائلة. فنحن امام القانون الانساني أصبحنا احرارا من كل حكم اجنبي فلا ينقصنا الا ان يعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال فتزول العوائق التي تقف بيننا وبين التمتع به بالفعل

بهذا الغرض السامي المطلق لنا في نفوس المصريين جميعا أحب أن وأصحابي الوفد المصري لنسعى في الوصول إلى الاعتراف بهذا الاستقلال، ومصدرها توكيل الأمة اساسا، وما ضرنا أن أمرت الحكومة الناس بالكف عن تلك التوكيلات وبمصادرتها. لأن ما لدينا منها ومن خطاب الوزير الاول التي تعترف فيه الحكومة نفسها ما يكفي في الافادة بأن الامة مصممة على طلب الاستقلال والغاء الحماية. هنا يرد على خاطري أن اتساءل: هل بأمة حاجة إلى أن يطلب رأيها في الاستقلال؟ هل أمة كمصر مدنيتها أقدم المدنيات وحضارتها الاجتماعية التي تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ظاهرة الاثر من حيث رجاحة الاخلاق وحب احترام القوانين والتعامل التام في الجول يمكن أن يسأل في أمر استقلالها من غير أن تجرح مشاعرها المدنية بهذا السؤال؟ وهل أبناء المدنية الفرعونية والمدنية العربية عزيز عليهم أن يستقلوا فيتباطؤوا في تقدم المدنية في خطواتها إلى الامام

غير أننا كنا مضطرين إلى هذا التوكيل لانه قد عرض لينا [illegible] لا نطلب من الحماية الا الرأي الأبيض، أن نعطي اسمى طاعتنا كافة، فكان توكيل الأمة الجواب القاطع على هذا الاتهام.

منا من الصغير وصودرت الحرية في اجتماعنا ومن المصريين جميعا علم

منادٍ مرجعا من المراجع الاجنبية لديه على هذا التصرف الجائر. وها نحن أولاء لا نزال نطمع في أن يخلى بيننا وبين القيام بمهمتنا بأنفسنا.

وإن ما أؤكده لكم هو أن هذا الطمع لم يزد يتلاشى إلا حبا في التقدم إلى الغرض العام، وحبه في تضحية كل ما نستدعيه من الضحايا سالكين سبل الحق والعدل وما لنا غيره من سبيل.

وأستطرد بعد ذلك إلى التحدث عن مبادئ الرئيس ولسون وكيف أنها يجب أن تسود العالم. وليبان مطالب الوفد التي يرمي إلى تحقيقها فقال:

«إن إيماننا بقواعد الحق والعدل هو حصننا وكفى به حصنا. وإن إجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة. وما ينقصنا إلا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الأمة. ولكن هذا الصوت سيصله حتما ولو من بعد. سيصله فينصت إليه على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذي ينعقد بعد أيام قلائل أشبه ما يكون بما سبقه من المؤتمرات، هذا هو السحر الذي نمحوه من قضيتنا».

وهنا شرح الزعيم مطالب الوفد كما حددها في بيانه إلى معتمدي الدول الأجنبية في مصر حوالي منتصف شهر ديسمبر الماضي. ثم شرح رأيه ورأي الوفد في مسألة السودان والعلاقة الأزلية بين السودان ومصر فلخصها في جملة صغيرة تغني عن أطول مقال إذ قال: «إن من المسلم أن نقرر بأن كل ما نقوله عن مصر ونطلبه لمصر ينسحب على السودان. لأن السودان ومصر كل لا يقبل التجزئة، بل إن السودان كما قال المستشار المالي الانجليزي نفسه في تقريره لـ ١٩١٤ «أن السودان ألزم لمصر من الإسكندرية».

ثم انتقل الزعيم إلى شرح رأيه في مسألة الامتيازات الأجنبية فقال: «لقد يطيش الفهم فيظن أن هناك منافاة بين طلب الاستقلال والرضا بالامتيازات الأجنبية. كلا لا منافاة بين الاثنين في الوجود وإن كان فيه تضييق لدائرة السيادة

العامة التي يقتضيها الاستقلال - إلى أن قال: «أن سبب الإخفاق في الاتفاق في مصر بتسهيل سبل العمل لهم مجيد لبلاد أكثر فائدة. فنتقدم على طيب خاطر من رغبات هذه الأقلية، ونسهل بما في طاقتنا سبيل الزراعة التعليمية والتجارية والصناعية. فإنكم لا تنكرون أن هذه القرون الأخيرة قد عزلتنا عن الحركة العالمية بعض الشيء، وأن الأجانب في مصر صلة تمم بها من صلة بيننا وبين ينابيع العلم ومواطن الاختراع والاكتشاف، وأن مصر المستقلة لا بد لها من الدخول في المسابقة العالمية، والأمل في أنه يمكنها حتى أن تكون بالخيرات هذه السابقة في بلادها».

وختم الزعيم هذه الخطبة باقتراح إرسال برقية إلى الرئيس ولسون بتحيته والاحتجاج بحيادته وبأن المصريين يعرضون عليه قضية مصر التي يتسلط عليها الإنجليز تسلطا بأنه أصبحوا جديرين.

ووافق الحاضرون على البرقية بالإجماع

ملاحظة: هذه الخطبة لم تنشرها ولم تشر إليها أية جريدة في مصر بأمر الرقيب، بل لم تشر إليها أية جريدة أجنبية. ولكن لوحظ طبع منها بصفة الألف نسخة وزعت على الناس في العاصمة وفي الأقاليم

ثم لابد هنا من كلمة أخرى يجب أن تقال في هذه الخطبة بالنسبة للمقاييس الحالية. فقد يراها بعض أبناء هذا الجيل أنها خطبة بسيطة أو معتدلة لا تدل على الجرأة والإقدام. وقد يراها البعض الآخر أنها خطبة مسالمة غير جديرة برجل يقال عنه أنه جريء مقدام. ولكن هذا الرأي خطأ وظالم معا في وقت واحد. لأنها بمقاييس الجيل السابق وفي الظروف التي ألقيت فيها من طغيان الإنجليز وسيطرتهم على البلاد سيطرة تامة إدارية وعسكرية وعرفيا ومن فتكهم بالمصريين أفرادا وجماعات بسبب أو بغير سبب، عبر بالشبهات، ومن

عجز المصريين العجز المطلق عن الدفاع عن أنفسهم. في هذه الظروف اعتبرت تلك الخطبة مثلاً رائعاً للشجاعة وإثارة الجماهير.

حسبها أنها تناولت الحماية البريطانية بالاستنكار والحكم عليها بالبطلان بطلاناً أصلياً وتناولت الاحتلال بالسخط عليه والحكم عليه بالبطلان كذلك. وضرورة إنهائه فوراً، وتناولت الاستقلال ومبادئ ولسون والحريات ومسألة السودان ومصر وخصوصيتهما المشتركة وعلاقاتهما الخالدة وما إلى ذلك.

أثارت هذه الخطبة المصريين، ونفخت فيهم روحاً جديدة زادت وطنيتهم اشتعالاً ونزلت على الإنجليز كالصواعق أسخطتهم وأذهلتهم. إذ ما كانوا يظنون مصرياً كائناً من كان يجرؤ على التسلط علناً على الحماية التي وضعوها فوق متناول المناقشات بل فوق كل بحث أو تفكير

والآن فلننظر كيف تطورت الأمور.

الحكومة البريطانية تستدعي مندوبها السامي من مصر.

سافر من مصر في ٢١ يناير، سير ريجنالد ونجت المندوب السامي البريطاني عائداً إلى بلاده بناء على دعوة من حكومته لاستطلاع رأيه واستشارته.

هذا ما أذيع لتبرير دعوة لم تعقبها عودة..

الحالة العامة قبيل سفره وبعدها

كان سفر المندوب السامي من مصر فاتحة لاستئناف عهد الإرهاب البريطاني في حكم البلاد وعودة العسكريين الإنجليز إلى الظهور بالشدة والقسوة والطغيان.. كانت قبضتهم على مصر في الشهرين الأخيرين خفيفة، هينة ملطفة لا سيما بعد صدور التصريح البريطاني الفرنسي للعرب في شهر نوفمبر الماضي وبعد عقد الهدنة وفي أثناء الاستعدادات والتمهيدات لعقد مؤتمر الصلح في باريس وفي أثناء سفر الوفود لمختلف الدول لحضور ذلك المؤتمر.

خشت قبضتهم حتى تغافلوا وتقاعسوا عن أمر التجمهر كى يحرم اجتماع أكثر من خمسة مصريين فى أى مكان، فأخذ المصريون يجتمعون بالمئات والألوف وبدأت المشاعر الوطنية تلتهب علنا والسخط يظهر جهارا إلى آخر ما رأينا من نشاط الزعيم والوفد

والآن تغير الحال، امتلأت الشوارع بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح وتجولت السيارات واللوريات الحربية البريطانية فى الشوارع والنوادى لمنع المظاهرات ومنع الاجتماعات وكثرت الاعتقالات. فأمسك كل من يحس بالسخط على الصحافة أو التحدث عن الاستقلال

الاجتماع المحرم

دعا الزعيم فى ٢١ يناير ١٩١٩، بعض ذوى الرأى والمكانة من المصريين إلى اجتماع خاص يعقد فى بيته. وما كانت الدعوة توجه قبل الاجتماع بيومين حتى سارع قائد القوات العسكرية البريطانية فى مصر فأصدر أمرا عسكريا بالمنع فلم يتم عقد هذا الاجتماع بالقوة القاهرة. فهل سكت الزعيم؟ هل كان بإمكانه إزاء هذا المنع بالقوة القاهرة؟

كلا.. إنه أرسل فى الحال ثلاث برقيات إلى الخارج. الأولى إلى رئيس الوزارة البريطانية والثانية إلى الرئيس ولسون صاحب المبادىء المشهورة والثالثة إلى مسيو كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح فى باريس. وكلها برقيات احتجاج وسخط. ذكر فيها الزعيم منع الإنجليز ومنعهم حتى الاجتماعات الخاصة التى تعقد داخل المنازل وأن السلطات العسكرية البريطانية لاتقيم وزنا لأبسط أنواع الحرية الشخصية. مع أن ماء يعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح بعد دعوة ممثلى مصر لسماع رأيهم أسوة بشعوب هى دون شعب مصر، مدنية وثقافة وتاريخا ومكانة وعراقة

إن الزعيم وأعوانه لا يعرفون اليأس ولا يفكرون في الاعتزال والانزواء، وما أكثر الفرص لمن يريد أن يعمل ويجاهد في خدمة بلاده.

الاجتماع المباح

ومن عجب أن السلطات العسكرية البريطانية التي منعت عقد اجتماع خاص في منزل الزعيم، أباحت بعد أيام عقد اجتماع عام في مكان عام هو دار جمعية الاقتصاد والإحصاء والتشريع لكي يلقي أحد المستشارين الإنجليز محاضرة بصفته قانوني وضعها لأمر سياسي خاص بالحماية.

هذه هي فرصة الزعيم ليظهر ويعمل مرة أخرى، وقد ظهر واستغلها إلى أقصى حد يخطر بالبال.

خطبة الزعيم سعد زغلول
في دار جمعية الاقتصاد والإحصاء والتشريع

في ٧ فبراير ١٩١٩، أعدت جمعية الاقتصاد والتشريع اجتماعا في دارها لسماع المحاضرة الثانية للمستر برونيات المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية. وكان معروفا أن المحاضرة ستتناول المشروع الجديد المتسق مع الحماية البريطانية، فصمم الزعيم على حضور هذا الاجتماع وعلى الخطابة فيه عقب انتهاء المحاضرة تعليقا وتعقيبا على ما يسمعه ويهدف برفع صوت مصر ببطلان الحماية.

وحضر مع الزعيم جميع أعضاء الوفد وعدد كبير جدا من الوطنيين وغصت القاعة بجمع حاشد من المتعلمين ورجال القانون والمحاماة، وكان بين الحاضرين وزير الحقانية ووكيلها والمستشار البريطاني لوزارة الحقانية مستر آموس.

وما كاد مستر برونيات ينتهي من إلقائه محاضرته، وكان يلقيها بالفرنسية،

حتى وقف الرئيس وأعلى منبر الخطابة، وقال إن لديه ملاحظات يريد إبداءها وبما أن المحاضر يفهم العربية فإنه سيلقي ملاحظاته باللغة العربية، وإذا بهذه الملاحظات تنقلب إلى خطبة وطنية رائعة ولاذ بالرجوع بتلك الدعاية الحماسية إلى الدعاية للاستقلال. قال:

-أيها السادة، إني أشكر حضرة المحاضر على ما قاله من أنه يريد أن يكون لمصر في المستقبل شرع خاص، ولكني أقول لحضرته إن هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد. إن أمتنا المصرية ليست من قبيل الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة وإنما عندنا ما له مبدأ عريق في القوانين والشرائع. وأرى أن من حسن الحظ أن يعهد إلى تغيير كلي في شرعه دون أن تدعو الضرورة لذلك أو تهدي إليه التجربة والاجتهاد.

وإن قانون العقوبات المصري المأخوذ عن القانون الفرنسي جرى عليه العمل منذ زمن طويل، فهو جزء من محصولنا القانوني تشربته أفئدة قضاتنا ومحامينا، وسرى في أخلاق الأمة سير الدم في الجسد. قد يكون في المشروع الذي تكلم عنه حضرة المحاضر بعض نصوص صالحة في ذاتها، ولكنني لا أرى محلا لقلب التشريع الموجود الآن رأسا على عقب، من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى الأرض. إن في ذلك ضررا عظيما بما ألفه الناس في هذه البلاد من المصطلحات القانونية، ولكن يظهر أن المراد هو التخلص من النظريات والتقاليد المؤسسة عليها هذه المصطلحات لأجل وضع نصوص قانونية مكان أخرى موجودة من قبل، بمعنى أولا أن تكون هذه النصوص الجديدة منطبقة مع أخلاق البلاد وعاداتها ومألوفاتها العلمية، وثانيا أن تقوم الأدلة على ضرورة وضعها بالإحصائيات وقضاء المحاكم وآراء أهل الفن.

ولست أنكر الفائدة من مناقشة مشروع جديد بهذه الجمعية

ولكن نلاحظ أن موضوع المناقشة الآن ليس مجرد حذف عشر أو عشرين مادة بعينها، وإنما هو أعظم من ذلك كثيرا، هو أمر يمس حالتنا السياسية والاجتماعية مما لا يصح أن يأخذ هذا المبدأ أداة له... وستسمحون لي القول بأني أخشى كثيرا أن يكون في بحث هذا الموضوع في هذه الجمعية كلمة يخرج بها عن موضعه له، وأن يتخذ ذلك وسيلة للقول بمساس الأمة بهذا التقنين وأنه يستغنى به عن مناقشات الجمعية التشريعية التي هي الأداة التشريعية النظامية في البلاد.

«إن حضرة المحاضر قد أشار إلى أنه تحول على الجمعية التشريعية مشروع يتضمن تعديلا في نصوص القانون الخاصة بالضربات والجروح ولم تعمل فيه شيئا. نعم إن هذا المشروع تحول على لجنة الحقانية التي أنا رئيسها، فرأت اللجنة أنه يلزمها للاقتناع بضرورة التعديلات المعروضة بيانات وإحصاءات طلبت من وزارة الحقانية تقديمها إليها. وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى انتهى دور الجمعية ولم ترد هذه البيانات.

«ليس من واجبي أن أبدي لحضراتكم ما قدمت من الملاحظات ولكن هناك أمر آخر هو أهم ما يجب التنبيه إليه. قد تكلم حضرة المحاضر عن الباب الثاني من الكتاب الثاني من المشروع، وفي هذا الباب ما يتعلق بمسائل سياسية لا وجود لها الآن بمصر... إن بلادنا لها استقلال ذاتي ضمنته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ واعترفت به جميع المعاهدات الدولية الأخرى. ويجب أن يحافظوا للاعتماد على ما حصل من تغيير هذا النظام السياسي أثناء الحرب.

«لكن أيها السادة تعلمون وكل علماء القانون الدولي يقررون أن الحماية لا تتم إلا من عقد بين أمتين، يطلب إحداهما أن تكون تحت رعاية الأخرى، وتقبل الأخرى تحمل أعباء هذه الحماية. فهي مسألة عقد ذو طرفين موجب وقابل ولم يحصل في مصر ولن يحصل منها مطلقا شيء من ذلك.

حتى سنة ١٩١٤. أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية. فهي حماية باطلة لاوجود لها قانونا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها ولايمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة.

وما كاد الزعيم ينتهي من خطبته ويختمها ببطلان الحماية حتى دوى المكان بالتصفيق الحاد المتواصل من جانب المصريين وهم الكثرة من قضاة ومحامين وموظفين ومساهمين. أما الموظفون الانجليز وعلى رأسهم المستشار الانجليزي لوزارة الحقانية والحاضر بنفسه مستر برونيات فقد فوجئوا مفاجأة قوية. وظهر عليه الغضب والانفعال والارتباك والحيرة والاضطراب.. ولكن ماذا يفعلون إزاء هذا الزعيم المصري الجرئ، الذي صفعهم وعرض بالحماية في وجوههم وسفه مزاعمهم في الوقت الذي يتيهون فيه بالنصر وبالثقة العمياء بأنفسهم وبمستقبلهم في مصر..

انصرف الحاضرون وكانوا فريقين، وخرجوا بحالين.. أما المصريون فقد خرجوا منتشين مبتهجين باسمين متهللين. وأما الانجليز فقد خرجوا متقبضين مغتاظين عابسين راغبين في الانتقام.

الشهر السابق للثورة

لقد ثبت للانجليز الآن أن الحالة بينهم من جهة وبين الزعيم والوفد من جهة أخرى، قد بلغت غاية الحرج وأصبحت تنذر بالمتاعب التي لانهاية لها وأصبح الناس جميعا من مصريين وأجانب يدركون أن الكفاح قد بلغ أقصاه ولابد من عمل حاسم..

أن المصريين شعبا ووفدا وزعيما قد أبرموا ميثاق العزيمة على الاستمرار في الجهاد مهما بلغت تكاليفه وأخطاره.. وأن الوفد لابد أن يسافر إلى الخارج ويحضر مؤتمر الصلح لالغاء الحماية وانهاء الاحتلال ونيل الاعتراف بالاستقلال. وأما

الانجليز عندما علموا الآن علم اليقين أن هذا الزعيم المصري العربي لا ينوي أن يقصر جهوده على البرقيات والرسائل التي ينشرها في الداخل أو يرسلها إلى الخارج وإنما هو رجل صمم وصمد ينوي أن يقتحم كل باب ويخطب في كل اجتماع ويتهم الناس باستمرار ولا يبالي بالنتائج.. إن ساعة الصدام قد قربت وهي آتية لاريب فيها..

انقضى شهر فبراير كله في استعدادات على أوسع نطاق من الجانبين. الانجليز والمصريين. كان الانجليز يستعدون للقارعة، ويستعدون لعمليات البطش الشامل بالمصريين وزعمائهم وكانوا يعالجون مسألة استقالة وزارة رشدي في مرحلتها النهائية. وكانوا يحتلون بجنودهم مواقع أخرى في المدن والريف غير ما في أيديهم من قبل وفي كل مكان، وكانوا يبثون العيون ويزيدون من عدد الجواسيس بواسطة بعض الأجانب المستوطنين في مصر من زمان طويل يغشون الأندية والمقاهي والحوانيت وكل اجتماع كبير أو صغير في أي مكان ويداومون مراقبة منازل أعضاء الوفد عامة ومنزل الزعيم خاصة وأماطوها بما يشبه الحصار بقدر الإرهاب وبما من الإزعاج بقدر الإمكان.

ثم كانت أمامهم كبرى المشاكل وهي مشكلة الزعيم والوفد: كيف يحلونها؟ بالاعتقال، بالحبس، بالمحاكمة، بالغرامات، بالنفي، بالمصادرة، بالإعدام بالتصفية؟ كل شيء جائز والاستشارات مستمرة بين العسكريين منهم في مصر وبين الحكومة البريطانية للاهتداء إلى الحل الصحيح

وكان الزعيم والوفد من جهة أخرى يستعدون لساعة العداء عن طيب خاطر. واستمروا ينظمون اللجان في العواصم والريف ويعملون على تشكيل الشباب بوسائل غير مباشرة ويوقع الاختيار على عدد غير قليل من الطلاب لطبع المنشورات الوفدية وتوزيعها على الشعب المتعطش لكلماته

وانضم عدد كبير من الموظفين المصريين وزوجاتهم إلى الحركة الوطنية في شكل حماسي رائع حتى إذا رفضت الوزارة كان الشعب كله والموظفون المصريون مصمما على لعبة الاستعداد للعمل والثورة. وكان لهؤلاء الكبار من الموظفين المصريين اجتماعات خاصة بهم، واتصالات بالوفد وبلجنته بواسطة بعض أعوانهم وبطرق غير مباشرة..

وهكذا كانت روح المخاطرة والشجاعة والتحدي تعمر نفوس المصريين جميعا وتصهرهم وتزيد استعدادهم لملاقاة الساعة الحاسمة في القتال تحت عليه الحماسة السياسية

كان الاجتماع فريدا ورائعا حقا إذ كانوا جميعا شيوخا وشبانا رجالا ونساء يتحدثون عن السجن والاعتقال والموقف في استهانة واستخفاف كأنها مسائل عادية ومنتظرة. وكل شيء وكل عذاب يهون في سبيل الوطن. هكذا فكروا وهكذا شعروا وتصرفوا. روح فدائية سيطرت على أفراد الشعب جميعا.

وأخيرا وليس هذا بأقل أهمية من كل ما سبق. أقام الوفد من بين أعضائه لجنتين لإعداد الوثائق والمستندات والمذكرات الخاصة المتصلة عن القضية المصرية قدمتها وحدها لتقديمها إلى مؤتمر الصلح في فرساي عندما يسافر الوفد إلى باريس

وبهذا أثبت الوفد أن روح التفاؤل وروح الفداء يمكن أن يكونا معا متعاونين ومتلازمين في كيانه لأنهما العاملان من أقوى وأنشط عوامل الحياة .

ولعل هذا هو السر في قوة الوفد وصموده في وجه بريطانيا وفي نشوة انتصارها في أكبر حرب خاضتها في حياتها وفي ذروة قوتها وجبروتها واتساع سلطانها وعظم نفوذها بين الدول جميعا .

الفترة القاصمة الحاسمة

مضى الآن من أول مارس سنة ١٩١٩، وليس بيننا وبين الثورة إلا أسبوع واحد. كيف انقضى هذا الأسبوع بأحداثه الجسام؟ فلنذكر أهم الأحداث يوما بيوم

اليوم الأول في أول مارس قبلت استقالة رشدي ووزارته كما سبق أن بينا. وبدأ السلطان والانجليز يفكرون ويعملون لاختيار خلف له يؤلف الوزارة الجديدة.

قنبلة الوفد الأولى

كتاب الوفد إلى السلطان

في اليوم التالي في ٢ مارس،

أرسل الوفد كتابا إلى السلطان هذا نصه

يا صاحب العظمة

« يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصري أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي:

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحق والعدل أساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التي غيرت الحرب مركزها بأحد ؛ أيها في حكم نفسها أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام مادام أن حق الأقوى قد زال من ميدان المعاملة. وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التي أعلنها الانجليز فلا تعلق بينهم وبين الأمة المصرية بإطلاق، ولم تكن في الواقع إلا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب. واعتمادا على الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم في صف القائلين بحماية حرية الأمم الصغرى لا يكون لدى مؤتمر السلم ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادئ التي أسس عليها

«عرضنا رغبتنا في السفر على كبير وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا فوعد بمساعدتنا على السفر وتوثقا منه أننا نعبر عن رأي الأمة كافة. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة. ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن الشعب يصادر في مشيئته. استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما.

«ولقد كان الناس يعتقدون أنه كان لهما في وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوي من نفحات عظمتكم. لذلك لم يكن أحد يتوقع أن يكون أمر حل المسألة المصرية قبول استقالة الوزيرين لأن في ذلك متابعة للطامعين في الاعتداء وتمكينا للخطة التي اتبعت في سبيل الإذلال بحجة عدم الذهاب إلى المؤتمر وإبدائنا بالرضى بحكم الأجنبي علينا إلى الأبد.

«قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم لدى خلو بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف الماثلة ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم. غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب لخير بلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا إلى الأمة في هذا الظرف العصيب.

«إننا نطلب منكم يا أرشد أبناء مصرنا الكبير محمد علي أن تكون لها العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك، فإن عظمتكم أرفع من أن تحدوها

الظروف. كيف قبلت مستشاريكم أن جازة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة ووطنية أن يخلفه في مركزه؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد للمسألة المصرية مقضي عليها بالفشل؟

عفوا يا مولانا، قد تكون مداخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذه الظروف غير لائقة، ولكن الأمر قد حل الآن عن أن يراعى فيه أي اعتبار غير مصلحة الوطن الذي أنت حامي الأمين.

وإن لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها وفيه أكبر رجاء لها ولنا لا تأخذه النصيحة إذا نصحنا إليه أن يعرف رأي أمته قبل أن يتخذ قرارا نهائيا في أمر الأزمة الحالية. فإننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد من رعاياه من لا يرى البلاد إلى أقصاها ألا وهو يطلب الاستقلال. فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم ينظر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة. لذلك حفظنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التي هي الآن أشد ما تكون رغبة في استقلالها، وأخوف ما تكون من أن تقع في أيدي الاستعمار. والتي تتطلع إليه بحقها عليه أن يغضب لنفسها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها، وأنه على ذلك قدير.

وإننا نتشرف بأن نرفع عبارات الإخلاص إلى مقام عظمتكم الكريمة.

توقيعات

سعد زغلول وجميع أعضاء الوفد

هذا الكتاب زحام ونصح ورجاء في ظاهره. أما في باطنه فهو احتجاج ونقد وإنذار..

احتجاج على السلطان لأنه قبل استقالة رشدي. وهذا القبول ينطوي على أمرين خطيرين: الأول. منع الوفد من السفر إلى الخارج منعا نهائيا حتى لا

يحضر مؤتمر الصلح في باريس ويعرض قضية إلغاء الحماية وإنهاء الاحتلال والاعتراف بالاستقلال. والثاني: حرمان مصر دون سائر الدول من أن يسمع صوتها في الوقت الذي يبت فيه في مصيرها كما سجل رشدي في استقالته.

ونصح السلطان حتى لا ينكر أو يماطل تعيين خلف لرشدي وأنه لن يجد مصريا يقبل على ضميره أن يخرج على إجماع الأمة ويرتكب خيانة وطنية كبرى.

ثم إنذار للسلطان حتى لا يخرج هو نفسه على هذا الإجماع وأن من الواجب عليه أن يحترم إرادة الأمة مهما تكن ظروفه الخاصة وأن ينضم إلى جانب أمته إذا لزم الأمر

هذا كتاب ناعم في ملمسه غاية النعومة ولكنه خشن غاية الخشونة في معناه ومغزاه والغاية منه. معناه مطالبة السلطان أن يؤثر الوقوف إلى جانب الأمة. فهذا هو واجبه ومغزاه ألا تكون في مصر أية حكومة مصرية بعد اليوم. والغاية منه كشف الإنجليز أمام العالم أجمع وفضيحتهم في الأوساط الدولية. إذ تظهر مصر في هذه المرحلة

متحدة شعبا وقيادة ووزارة مستقلة وسلطانا، ويظهر الإنجليز على حقيقتهم غاصبين يحكمون مصر بالعسف والاستبداد والحديد والنار. حينئذ يرى العالم الاستعمار البريطاني على حقيقته ويفهمون معنى حمايته وفي ذلك خير دعاية لمصر بل هي ذلك خير دفاع عن قضيتها لا يقل عن دفاع الوفد أمام مؤتمر السلام

٢ - اليوم الثالث ٢ مارس

تكهرب الجو لأن منعت الرقابة البريطانية نشر كتاب الوفد إلى السلطان بل حتى مجرد الإشارة إليه. ولكن هذا لم يمنع أن قامت بعض المطابع في الخفاء

مطبوع مئات الألوف منه ووزعت على أوسع نطاق وأصبحت النسخ في متناول الناس جميعا في المدن والريف، في المحافظات وجميع المديريات. ومهما بحثت بصائر البوليس عن النسخ إذا وجدها ويعتقل حامليها أو قارئيها إذا عثر عليهم، واشتدت حماسة الناس وجاوزت أبعد مداها..

ويحتج الإنجليز صباحا وظهرا ومساء في مركز القيادة البريطانية بقصر دار الحماية وتنطلق الدوريات البريطانية في جميع الشوارع والميادين

قنبلة الوفد الثانية

احتجاج الوفد لدى ممثلي الدول الأجنبية في مصر

٤ - اليوم الرابع ٤ مارس:

في هذا الجو المكهرب وجه الوفد ضربة ثانية قاصمة للإنجليز. فقد أرسل الرئيس صباح اليوم الاحتجاج الآتي نصه باللغة الفرنسية إلى معتمدي الدول الأجنبية في مصر

جناب المعتمد:

مضى الأمر وبلغ السيف حديه. لم يمنع مصر أن كانت مشرقا لأقدم المدنية في العالم، ولا أنها زينت صحف التاريخ بآثار مصرها الخالد. لم يمنعها أن نالت حريتها من قبل بسفك دماء أبنائها، ولا أنها ما زالت دائبة يوما بعد يوم من عهد محمد علي الكبير إلى الآن حتى أن تستعيد المركز الذي لها حق الوجود فيه بين الأمم. لم يمنعها ما قدمته لقضية الحلفاء أثناء الحرب من معونات متنوعة أفادتهم أعظم فائدة واعترف بفضلها ساستهم وقوادهم. ومع ذلك اغتصبت بريطانيا العظمى تلك الحرب بإنزالها بمصر أشد ضروب التصرفات السياسية ظلما وهو إعلانها الحماية. لم يمنع مصر مالها من وحدة العنصر ونبوغ الطبقة

التركية. وما منيه أهلها من الشغف بالنظام وحب الحرية والتسامح العظيم، تلك الخصائص التي تجعلها جديرة بالاستقلال.

وإذن فكل شيء يجب أن يتوارى أمام مطامع الاستعمار بين اللامتناهية. إن المصريين دون جميع الأمم التي حررت الحرب مركزها السياسي، هم وحدهم الذين سلطت عليهم يد القوة فحرمتهم حتى من حقهم في إسماع صوتهم في مؤتمر السلام: ظلم صارخ يزيد في إيلامه للأنفس ما يصلنا كل يوم من الأنباء عن المطالب القومية التي يعرضها على المؤتمر نواب الحجاز وأرمينيا وفلسطين وسوريا والعراق ولبنان، تلك البلاد التي كانت بالأمس ولايات تركية. أما نحن وحدنا محكوم علينا بالبكم نملك فيه شكيمة الغيظ والحزن المبرح نلبس ثياب الحداد كمدا على حريتنا المسلوبة..

وإن الدول التي تسومنا هذا الخسف ما لبثت أن قررت نهائيا قطع الطريق علينا إلى المؤتمر، مناصرة بوعودها كأنها لم تقصد بتلك الوعود سوى أن تفوت على الأمة فرصة ثمينة وأن تخيب آمال بنيها.

وإن الوزارات التي انبعثت بوطنيتها إلى انتهاج ما يوافق القضية المصرية قد اضطرت إلى الاستقالة لأنها لم تستطع الثبات على مثل هذا الانتهاك اللاحق بأقدس حقوقنا ونحن نعتقد أنه لا يوجد مصري واحد جدير بأن يدعى مصريا يستطيع أن يؤلف وزارة يكون مفروضا عليها حتما أن تسير على برنامج يرمي إلى خنق مصر والقضاء على البقية الباقية لها من الحقوق.

ولئنا آملنا عنايتكم من قبل أماني البلاد ومطالبها، فمن الفضلة تكرير بيانها الآن. ولم يخف على جنابكم أيضا جميع أساليب الدهاء المستعملة لابتلاع مصر جملة تحت ستار ما يسمونه إصلاحات سياسية وقضائية وإدارية وليس يعنينا الآن إلا أن نشهدكم على الحالة الحاضرة التي تئن بها مصر كل

تبلغوا حكومتكم أنه على الرغم من العهود التي التزمت بها بريطانيا على رؤوس الأشهاد، وعلى الرغم من المبادئ التي أقرها الحلفاء بالإجماع، مازالت في العالم أمة واحدة تتحكم فيها القوة الغاشمة لخدمة مصالح لا تتفق مع دواعي المدنية، بل هي أقل اتفاقا مع كل مبادئ الحق والإنصاف»

الجو يتكهرب إلى درجة الانفجار

اليوم الخامس (5 مارس)

طبعت صور من هذا الاحتجاج ووزعت بنفس الطريقة التي اتبعت في كتاب الوفد إلى السلطان. ولم يعد هناك أدنى أقل شك في أن الوفد بدأ المعركة مع الإنجليز بخطوتين محسوبتين. وما هي إلا ساعات معدودات حتى بدأ الصدام

إنذار السلطات العسكرية البريطانية

اليوم السادس (6 مارس)

استدعى ميجور جنرال واطسون قائد القوات العسكرية البريطانية في مصر صبيحة هذا اليوم، الزعيم سعد زغلول وأعضاء الوفد المصري إلى مركز القيادة بفندق سافوي بميدان سليمان باشا. وفي الموعد المحدد في الساعة الثالثة بعد الظهر عقد الاجتماع وكانوا جميعا وقوفا فألقى عليهم القائد البريطاني البلاغ الآتي باللغة الإنجليزية وهذه ترجمته:

«علمت أنكم تجعلون مسألة وجود الحماية موضع المناقشة، وأنكم تضعون العقبات في سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعي في منع تشكيل وزارة جديدة. وحيث إن البلاد لاتزال تحت الأحكام العرفية العسكرية، لذلك يلزمني أن أنذركم أن أي عمل منكم يرمي إلى عرقلة سير الإدارة يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية.

وبعد الفراغ من تلاوته بالإنجليزية ألقى ترجمته بالفرنسية ضابط بريطاني.

وأراد الزعيم أن يتكلم فرفض الجيش البريطاني أن يسمع وقال بالإنجليزية «لا مناقشة» وتركهم وانصرف. ثم تقدم الضابط البريطاني وسلم الزعيم نسخة من الإنذار بنصه الإنجليزي.

قنبلة الوفد الثالثة

رد الوفد على الإنذار البريطاني

لم يتراجع أعضاء الوفد أمام هذا الإنذار وأسلوبه الوقح، بل قاوموه ورفضوه وتحدوه وأجمعوا على الملأ أنه لن يثنيهم عن أهدافهم ولن يفت في عضدهم. وتجلى ذلك في مسلكهم الرائع الذي برز للعيان بعد ساعات معدودات.

فقد عقدوا اجتماعا بعد وصولهم إلى منزل الزعيم وأسفر الاجتماع عن برقية أعدوها ووافقوا عليها بالإجماع أرسلها الزعيم إلى رئيس الوزارة البريطانية وفيما يلي أهم ما جاء فيها

«إن السلطة العسكرية البريطانية أنذرتنا اليوم بأننا نضع الحماية موضع البحث والمناقشة وأننا نعرقل تأليف الوزارة الجديدة وتوعدتنا بأخذ العقاب العسكري على أننا جميعا نعلن جهارا أننا نطالب بالاستقلال التام ونستنكر الحماية ونرى أنها غير مشروعة. إن تلك السلطة العسكرية البريطانية لاشك تعلم أننا أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن أدائه بالطرق المشروعة مهما كلفنا ذلك. ويهمنا أن نذكر لكم هذا التصرف الجائر الذي يجر على أصحابه سخط العالم المتمدين ونرجو أن تفكروا في حل هذه الأزمة بغير الوقوف حتى يرتاح بال الشعب المصري.

حال لا يطاق

لو أن دارسا للتاريخ عنى بجميع الأسباب المتعددة للثورات التي قامت في هذا العالم قديما وحديثا لوجد أن هذه الأسباب قد اجتمعت وتوافرت في مصر، خنق الحريات جميعها للانفراد وتجاهلات، استعلاء واستبداد ومظالم لا أمل مطلقا في إزالتها بالوسائل السلمية، عنف الحكام وعنتهم وغطرستهم وجبروتهم وجمودهم ومخالفتهم لكل مبادئ المروءة والإنسانية والحق والعدل والإنصاف. تمرد الشعب وغضبه وسخطه المتزايد المستمر على سكانه الإرهاب الطغاة ونظام الحكم الغاشم المدمر لكل أمن وطمأنينة وكرامة شعور عام بالمهانة واجتياح الرغبة في الانتقام. استحالة التوفيق بين الحياة العزيزة وهذه المعيشة الكريهة المحمومة المسمومة التي يضيع فيها كل شعور بالشرف وحب الحياة. ثم ذكريات مريرة طويلة عميقة مثيرة عن مظالم واعتداءات وإهانات وقسوة وإعنات بعد إهانات استمر أكثر من ٧٠ عاما من ١٨٨٢-١٩٥٢. لقد توافرت للثورة المصرية كل العناصر والمسببات للثورات قديما وحديثا، فالثورة أمر واقع ليس له من دافع. وقد آن أوانها وإن غدا لناظره قريب.



اعتقال ونفي الزعيم

يوم السبت ٨ مارس ١٩١٩:

في الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم حضر إلى منزل الزعيم ضابط بريطاني ومعه مترجم قبرصي وخمسة من الجنود الإنجليز المسلحين بالبنادق في سيارة كبيرة بريطانية تحمل مدفعا رشاشا «مترليوز» ووقف ثلاثة من هؤلاء الجنود على الباب الخارجي للمنزل ودخل الضابط والمترجم وجنديان على الزعيم في مكتبه وهو يجمع أوراقه ويستعد لفترة الراحة بعد الغداء، وأبلغه الضابط الإنجليزي الأمر باعتقاله فورا بلا مناقشة فخرج وركب معهم سيارتهم الحربية وانطلقوا به إلى ثكنة قصر النيل. وبعد حوالي نصف ساعة لحق به ثلاثة من زملائه هم محمد محمود باشا وإسماعيل صدقي باشا وحمد الباسل باشا. اعتقلتهم السلطات العسكرية البريطانية بنفس الطريقة من منازلهم في الساعة الثالثة بعد الظهر كذلك وفي ثكنة قصر النيل حيث قضوا جميعا ليلتهم. وقد أحضرت لهم حقائبهم بملابس تكفي شهرا لكل منهم"[1].

وفي صبيحة اليوم التالي ٩ مارس نقلوا إلى بورسعيد في ديوان خاص بهم

---

[1] [illegible]

بقطار الصباح وكان في مرافقتهم ضابط بريطاني وعشرون جنديا من الإنجليز شاهرو السلاح، وما أن دخلوا إلى الميناء حتى أصعدوهم إلى باخرة صغيرة وهي نقالة بريطانية على أعين من الجنود البريطانيين في طريقهم إلى مالطة.

وبعد ثلاثة أيام من إبحارهم وصلوا إلى جزيرة مالطة التي اختارتها الحكومة البريطانية لتكون لهم منفى ومستقر"..

كتاب احتجاج إلى السلطان

من بقية أعضاء الوفد

في الوقت الذي كان فيه قطار بورسعيد ينقل الزعيم وزملائه الثلاثة. ينهب الأرض نهبا كان أعضاء الوفد الباقون في مصر مجتمعين في بيت الأمة منزل الزعيم، يدرسون مشروع كتاب أعده الأستاذ عبد العزيز فهمي بك بوكالة لإرساله إلى السلطان.

وقبل أن يصل القطار إلى بورسعيد وصل الكتاب إلى يد السلطان في سراي عابدين وهذا نصه

«ياصاحب العظمة»

«يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصري برفع ما يلي إلى مقام عظمتكم السامي: فبلغ استقالة الوزيرين رشدي باشا وعدلي باشا علمنا فهمنا أن هذا ربما كان أحد أسباب مسألة سفر الوفد الكف عن الدفاع عن قضية بلادكم الآسيفة، وأنه حل لا يسمح لرجل مصري ذي كرامة ووطنية أن يقبل تأليف الوزارة مادام الوزيران المستقيلان علقا سبب استقالتهما على أمر سفر الوفد. عرضنا لسدتكم العلية متضرعين أن تتعرفوا رأي الأمة قبل البت نهائيا في هذا الأمر وأن تمعنوا النظر في الخطة التي اختطها مستشاروكم وأن تبدو للأمة أنه من آيات ما جبلتم عليه من حبها فتكونون في صفها مدافعين عنها لتنال

فرفعنا تضرعنا بذلك إلى مولانا وأبلغناه متظلمين معلقين الثقة في أن يبر إسماعيل الجالس على عرش محمد علي الكبير شعوبنا من شكاته ما يحقق الأمل..

غير أنه لم يمض إلا يومان حتى استمدت السلطة العسكرية البريطانية في ٦ مارس، وأبلغتنا أنها علمت أننا نضع مسألة الحماية موضع البحث وأننا نلقي العراقيل في سبيل الحكومة المصرية تحت الحماية بمحاولة منع تشكيل الوزارة، وأنذرتنا بالعقاب العسكري الشديد أن أتينا عملا يرمي إلى تعطيل سير الإدارة. ثم منعتنا من مناقشتها في هذا البلاغ. لم تصب السلطة في رأيها. فإن هذه الحماية باطلة ولكل إنسان الحق المطلق في أن يضعها تحت البحث والمناقشة القانونية. وأما عدم نجاح الحكومة في تشكيل الوزارة فإنما هو النتيجة الطبيعية للسلطة التي اتخذت في مسألة سفر الوفد. فإن كل مصري ذي كرامة لا يمكنه حقيقة أن يقبل الوزارة في هذا الظرف من غير أن يستهين بمصلحة بلاده.

ولم يقف الأمر عند هذا الإنذار بل قبضت السلطة أمس على رئيسنا سعد زغلول باشا وزملائنا محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وإسماعيل صدقي باشا ورموهم في قصر النيل ثم سيق بهم اليوم إلى بورسعيد فإلى حيث لا نعلم، وذنبنا هو أننا نطلب حريتنا السياسية طبقا للمبادئ الشريفة التي أصبحت قاعدة للسياسة العالمية الجديدة والتي قبلتها بريطانيا نفسها، ومع أننا لم نتعد حدود القانون. فلم نهيج في البلاد خاطرا ولم نحرك بها ساكنا. بل قصدنا توكيل الشعب إيانا أن نأتمر بأمره ونسعى لتحقيق مشيئته ضد الذين يقولون إنه لم يبق في العالم شعب سيد وشعب مستعبد، بل العالم الإنساني في الإخاء الإنساني سواء..

وفي هذه الاعتبارات يصعب علينا يا مولانا أن نفهم مبررا لهذه الخطة القاسية التي جرتها علينا السياسة الإنجليزية تحت ترب الأحكام العسكرية

لتلك الأحكام التي لا ندري ما يسوغ وجودها إلى الآن بعد الهدنة بأربعة أشهر وبعد أن امتحنت مصر في أثناء ظروف الحرب حرجًا، فلم يكن منها إلا إطاعة للأوامر العسكرية من غير بحث واخلاد إلى السكينة التي لم يكن لها مثيل حتى في بريطانيا العظمى نفسها.

إليكم يا صاحب العظمة وأنتم تتبوأون أكبر مقام في مصر وعليكم أكبر مسئولية منها، نرفع باسم الأمة أمر هذا التصرف القاسي. فإن شعبكم الآن يحق له أن يحتمل هذه الطريقة بادرة تعيمه على مسكنته كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا في صفه مدافعين عن قضيته العادلة.

وإننا مع كمال الاحترام نتشرف برفع آيات إخلاصنا إلى مقام عظمتكم الكريم.

توقيعات أعضاء الوفد

٩ مارس ١٩١٩

هذا الكتاب في الواقع إنما هو صرخة من الوفد إلى السلطان لكي يتحرك ويجابه قوى الكبت الجاثمة على صدر الشعب. ثم هو مناشدة صريحة لكي يقف إلى جانب الشعب في محنته في هذه الأزمة العصيبة عسى أن يكون في تدخله ووقفته في صف الشعب ما يحمل الإنجليز على العدول عن مظالمهم، وهو على أية حال مكسب هائل لقضية البلاد لو أنه تم. ولكن السلطان لم يتحرك ولم يتدخل ولم ينطق بكلمة وظل وليًا مطيعًا للإنجليز. فذهبت صرخة الوفد في الفضاء إذ وقعت على آذان صماء..

ومهما يكن من أمر فإن طبع هذا الكتاب وتوزيعه على الشعب بالطريقة السرية أحدث دويًا هائلًا في جميع أنحاء البلاد بعد أن كشف أمر الاعتقال والنفي وكل الحقائق. كشفًا واضحًا مؤثرًا..

وفي اليوم نفسه أرسل الوفد برقيات ثلاث إلى كل من لويد جورج: رئيس

الوزارة البريطانية ومستر ولسون صاحب المبادئ المشهورة ومسيو كليمنصو رئيس الحكومة الفرنسية ورئيس مؤتمر الصلح في فرساي. وقد انطوت هذه البرقيات الثلاث على الاحتجاج الشديد على أعمال السلطة العسكرية البريطانية في لاحتجاج الشديد على أعمال السلطة العسكرية البريطانية في مصر من اعتقال الزعيم وأصحابه الثلاثة ونفيهم إلى مالطة والاستنكار الشديد لتحدي بريطانيا للمبادئ التي قام مؤتمر الصلح على أساسها. ثم العزم الأكيد على مواصلة الوفد في جهوده لتحقيق استقلال البلاد وإزالة الاحتلال والحماية عن مصر.

فصادر الرقيب البريطاني هذه البرقيات الثلاث، ومنع خروجها من مصر ولكنها طبعت سرا ووزعت في مصر

الثورة

في 9 مارس سنة 1919

كان اعتقال الزعيم وصحبه كما قلنا الشرارة المنتظرة لقيام ثورة عارمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البلاد. ولكن أي شكل أو أسلوب اتخذته الثورة؟

إن الثورة لم تنفجر بالشرارة انفجار القنبلة ذات الدوي القوي القصير السريع المؤقت. ولا كانت كانفجار البركان يوحي بالحمم المتأججة والتفجرات المندفعة ذات التخريب المريع ثم يسكن ويخمد

ولكن الثورة كانت أشبه بحريق هائل شامل بدأته شرارة فرحت وزحفت حتى وصلت إلى هشيم حطام، بالأخشاب وشتى أنواع المتفجرات، وهذا هو الوصف الصادق الصحيح لنهضة الشعب المصري أفرادا وجماعات في تلك الفترة العصيبة، واستمر الحريق الهائل المدمر يتزايد ويتفاقم وقد بذل الإنجليز أقصى ما يملكون من قوة وجهد وعنف وقسوة لإطفائه وإنهاء الثورة فأعجزهم

ذلك وأمهلهم، فاضطروا اضطرارا إلى الإفراج عن الزعيم وصحبه بعد شهر واحد من اعتقالهم ونفيهم إلى مالطة، أي بعد ثلاثين يوما لا أكثر من قيام هذه الثورة المباركة. وكان ذلك في ٧ أبريل سنة ١٩١٩.

ولكن مالنا نسارع فنسبق الحوادث. نذكر نتيجتها قبل أن نصف هذه الثورة العارمة الموفقة في هذا الشهر الأول من قيامها. إنها ثورة شعبية كاملة شاملة لم تعرف مصر لها مثيلا في تاريخها الطويل حتى الآن.

لقد مرت الثورة في مراحل ثلاث تداخل بعضها في بعض وتكامل بعضها مع بعض. والعجيب أن المراحل الثلاث استمرت متوازية ومتساندة طوال الشهر فلم تنته إحداها لظهور الأخرى بل كان من تعاونها جميعها وتساندها وتقاطعها والتحام آثارها ما جعل لهيبها وسعيرها يعم البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها. ومما جعل أثرها أقوى وأنجع وأنجح وجعل بركاتها أعم وأشمل وأبقى.

المرحلة الأولى: مرحلة المظاهرات العامة

سبق إن قلنا أن الاعتقال تم في سرعة خاطفة وفي خفية كاملة واستعداد مرتب منظم من جانب الإنجليز، ثم كتم الأمر عن الناس أجمعين بطريقة مدروسة وعلى مفهوم التدبير. فمنعت الجرائد حتى من مجرد الإشارة والتلميح إلى تلك الأحداث الرهيبة الذاهلة. واشتدت سيطرة الرقابة العسكرية البريطانية على كل وسائل البرق والبريد فما عرف الناس شيئا عما حدث.

حقيقة ظن الإنجليز بعد أن فكروا ودبروا وتآمروا فقدروا فسخرت منهم المقادير. ولكن الشرارة قد وجدت على كل حال. وهي شكل شرارة حية أخذت تزحف ثم تزحف. وقد زحفت وتفشت بالأفواه في سرعة بلغت حد الإعصار..

حسبك أن تعلم أنه لم يمض يوم واحد حتى عرفته القاهرة كلها. ولم تمض ثلاثة أيام حتى عرفه المصريون أجمعون في الريف والحضر. ففي اليوم التالي

للاعتقال أن يوم ٩ مارس قامت مظاهرات سلمية في القاهرة عمدت بقيامها بوادر الثورة، قام بها طلبة المدارس العالية، والحقوق والهندسة والمعلمين والطب والزراعة والتجارة وجمهرة خرجوا من مدارسهم بأعلامهم. فتلقاه الجنود البريطانيون بهم بإطلاق الرصاص عليهم لتفريقهم فقتلوا وجرحوا عشرات بل مئات. وفي اليوم التالي بل الأيام المتتالية استمرت المظاهرات على نطاق أوسع وأشمل وأكمل قام بها طلبة المدارس جميعها العالية والثانوية والابتدائية وطلبة الأزهر والمعاهد الدينية وانضم إلى المظاهرات جميع فئات الشعب. عمال المتاجر والسكك الحديدية والمحامين الأهليين والشرعيين و: حتى القضاء والأطباء والمعلمون كما اشترك في جميع المظاهرات المسلمون والأقباط من رجال وعمامة ومشيخة على السواء، وكان خطباء المسلمين يدخلون الكنائس ويخطبون فيها، وخطباء الأقباط يدخلون المساجد ويخطبون فيها. فلم يخل شارع ولا ميدان في القاهرة والإسكندرية من مظاهرات قابلها الجنود البريطانيون بقسوة بالغة إذ أمطروا المتظاهرين كل يوم وابلا من رصاص المدافع الرشاشة فسقط عدد كبير جدا من القتلى والجرحى، ولم يكن المتظاهرون حينذاك قد ارتكبوا أية جريمة كلهم إلا مجرد التظاهر السلمي والهتاف بسقوط الحماية والمناداة بحياة الزعيم والنداء بالاستقلال.

هذا العنف الدموي الشديد من جانب السلطات العسكرية البريطانية حتى معاملتهم لمظاهرات جنازات الشهداء، لم يكن القصد منه إلا سحق الحركة الوطنية وإرهاب المصريين وقتل الروح الوطنية بأسرع ما يمكن. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ زادت المظاهرات عددا وزاد اشتراك جميع الهيئات والأفراد على اختلاف مراكزهم وأعمارهم حتى السيدات المصريات قمن بمظاهرات ضخمة فخمة في ١٦ مارس ومن ماركن تحت الحجاب، فقد حاصرهن الجنود في بعض الشوارع وحول بيت الأمة وتركوهن واقفات محصورات ساعات طوالا

تحت شمس حارة في يوم عاصف وكان من مظاهر الجلال لهذا النضال الباسل أن المتظاهرين والمتظاهرات ازدادوا إقبالاً واستماتة وتحدياً واستخفافاً بالموت والتعذيب كلما زاد الجنود البريطانيون فتكاً بالمظاهرات وتقتيلاً وتصدياً.

روح الوطنية ما أعظمها وما أعمقها وشجاعة ما أنبلها وما أروعهاااا وعقلية عدالية تجلت بوادرها وظهر اتساعها. وليس معنى الروح العدالية أن يتحمل الإنسان التعذيب والموت في جرأة واستخفاف فحسب، بل في أن يحسب الإنسان التعذيب والموت على خصومه وأعدائه كذلك، ولقد تجلى ذلك إلى حد ما في المرحلة الثانية ثم تجلى إلى أبعد الحدود وعلا كل حسبان في المرحلة الثالثة من الثورة حيث جرى التقتيل والتعذيب على أوسع نطاق. ورد المصريون الصاع صاعين للإنجليز حتى أرعبوهم وأذهلوهم.

المرحلة الثانية: مرحلة الإضراب العام

بدأت مرحلة الإضراب العام بعد مرحلة المظاهرات بوقت قصير جداً لا يزيد على يوم واحد، بل إن بعض الإضرابات وقعت فعلاً في نفس الوقت الذي قامت فيه أول مظاهرة، فمظاهرات طلبة المدارس العالية وإضرابهم عن الدراسة حدثت جنباً إلى جنب باستمرار ثم جرت الإضرابات بعد ذلك تباعاً على اختلاف جهاتها متتابعة متلاحقة متزايدة. أضرب طلبة الأزهر والمعاهد الدينية وتلاميذ المدارس جميعاً. أغلقت المتاجر والدكاكين. أضرب عمال الترام وسيارات التاكسي وعربات الأجرة والحناطير، فتعطلت جميع المواصلات داخل العاصمة واقتصر الانتقال سيراً على الأقدام أو ركوباً على الحمير كلما وجدت. ثم أضرب المحامون الأهليون والشرعيون فتعطلت المحاكم ولم يلبث أن أضرب القضاة وأضرب عمال العنابر بالسكك الحديدية، وهم أكثر من خمسة آلاف فتعطلت المواصلات بين القاهرة والمديريات والمحافظات يومين كاملين استطاع

الانجليز مدعما بواسطة جنودهم السائقين السابقين للقطارات في بريطانيا أن يسيروا تسيير بعض القطارات، وكان المضربون ينزلون إلى الشوارع في مظاهرات بأعلامهم فلم ينقطع سيل المظاهرات يوما واحدا رغم ما استباحه الإنجليز لأنفسهم من الفتك بالمتظاهرين بالمدافع الرشاشة والقبض على العشرات بل المئات لتعذيبهم في السجون أو لتقديمهم إلى المحاكم العسكرية البريطانية التي كانت تصدر ضدهم أحكاما جائرة بحد من القسوة البالغة والرغبة في الانتقام.

ثم أضرب عدد غير قليل من الموظفين فأسرع القائد العام للقوات البريطانية إلى توجيه إنذار شديد اللهجة إليهم، طالبهم فيه بضرورة اجتناب الحركات السياسية والاستمرار في أعمالهم وإلا عرضوا أنفسهم لأشد العقاب بمقتضى الأحكام العرفية

هذا ولم تقتصر حركة الإضرابات على القاهرة وحدها بل عمت جميع المدن والمحافظات حتى وقع الشلل في معظم الأجهزة الحكومية في معظم المصالح والإدارات

المرحلة الثالثة- مرحلة الثورة الإيجابية ونشاط الفدائيين وحرب العصابات وأعمال التقتيل والتحطيم والتخريب في جميع أنحاء البلاد

رأينا كيف اندمجت الإضرابات في المظاهرات وأصبحت المرحلتان في الواقع ظاهرة واحدة شاملة. فالمضربون متظاهرون والمتظاهرون مضربون، وتعطلت الأعمال وماجت الشوارع وانسابت جموع زاخرة من المتظاهرين الساخطين الغاضبين وكان فتك الجنود البريطانيين بالمتظاهرين وبالمارة يتيح لسيارات الشهداء شيئا عظيما قاسيا داعيا بوحشية معدومة النظير. حسبي الآن أن أقدم دليلا رسميا مكتوبا في ذلك الوقت ألصق بالأقلام رجال مسئولين

يثبت صحة الأوصاف من عمليات القتل الاستعمارية. وهذا نص الوثيقة:

مستشفى قصر العيني: القاهرة في ١٩ مارس سنة ١٩١٩ جناب مدير مصلحة الصحة العمومية (تحولت فيما بعد إلى وزارة الصحة).

نحن الموقعين على هذا أطباء مستشفى قصر العيني ومدرسة الطب والأطباء الشرعيين لدى المحاكم الأهلية نتشرف برفع هذا لجنابكم وهو مدير إنجليزي.

إنه يحزننا أن نرى السلطة العسكرية البريطانية قد استعملت ضرب الرصاص والمدافع الرشاشة في تفريق الجماهير المجتمعة لغرض سلمي وهي غير مسلحة مطلقا ورأينا من بين المصابين أطفالا ونساء قتلى وجرحى، ولا يمكن مطلقا أن يكون قد وقع منهم أي اعتداء على السلطة، كما رأينا أن عددا ليس بالقليل من الجرحى مصابين بإصابات خطرة متهتكة في البطن والصدر مما يدل على أن ضربهم بالرصاص كان اعتباطا وبغير مبالاة، ولم يكن الغرض منه كما هو اللازم مجرد تخويفهم وتفريقهم، مع العلم بأنه كان يكفي لتفريق اجتماعات مثل هذه وليس بها شخص واحد مسلح قط طرق أخرى غير ضرب الرصاص من المدافع الرشاشة والبنادق جزافا.

ولذلك نحتج أشد الاحتجاج على هذا، ونطلب من جنابكم بصفتكم مديرا عاما لمصلحة الصحة المصرية تبليغ هذا الاحتجاج إلى جهة الاختصاص منعا لما ينتج عن مثل هذه الأعمال في المستقبل خصوصا وأن العاطفة التي دفعت المتظاهرين إلى عملهم عاطفة بشرية توجد في جميع الأمم.

التوقيعات

من جميع الأطباء وعلى رأسهم الدكتور سليمان عزمي

ذهب هذا الاحتجاج صرخة في واد ودل على أن بريطانيا صماء. وتعرض هؤلاء الأطباء أنفسهم إلى كثير من اللوم والإنذارات والإعنات والتهديد من

جلب رؤسائهم الإنجليز. فكان إذن لابد من انتقال الثورة إلى مرحلة جديدة حاسمة فإن للصبر نهاية وللاحتمال حدودا، وما كان في طاقة البشر أن يتحملوا التقتيل والتعذيب والإذلال وهم مسالمون مكتفون بالصراخ والعويل والاحتجاجات والمظاهرات والمكاتبات بالبرق والبريد.

من هنا كان حتما أن تبدأ المرحلة الثالثة الإيجابية حرب العصابات وتخللها الصدامات وأعمال القتل والانتقام[1] والتحطيم والتخريب على أوسع نطاق لكل ما من شأنه شل الإنجليز في جميع أنحاء البلاد. فانتشر في جميع القرى والمدن في الوجهين البحري والقبلي كثيرون من الطلبة ورجال الثورة الذين أصبحت في حالة غليان للعمل الجدي واستعداد للقيام بعمليات التحطيم والتخريب والتقتيل وإشعال النيران في محطات السكك الحديدية، وقطعت أسلاك البرق والتليفون على أوسع نطاق واقتلعت بعض قضبان السكك الحديدية في أكثر من مكان، فتعطلت جميع المواصلات والاتصالات وأصبحت المراكب الشراعية في النيل وسيلة الاتصال الوحيدة بين القاهرة وسائر المدن وقرى الريف.

فماذا يفعل القائد العام للقوات العسكرية البريطانية؟ لقد استفحلت الأمور وخرج الزمام في حكم البلاد من أيدي المستعمرين أو كاد. ولذلك أصدر ثلاثة إنذارات متتالية نشرت في جميع الجرائد بالخط العريض ولصقت على الجدران في جميع الشوارع.

الإنذار الأول: في ١٤ من مارس يصدر وينذر بأن كل من يتلف مواصلات

١- في مصر الأسبوع الأول لبدء المرحلة الإيجابية للثورة [illegible]

السكك الحديدية أو التلغراف أو التليفون أو يلحق أي عطل بها أو يعبث بها بأي وجه من الوجوه يعرض نفسه للإعدام رمياً بالرصاص بمقتضى الأحكام العرفية البريطانية.

فماذا كانت النتيجة؟ لقد زادت أعمال التخريب في قضبان السكك الحديد وأسلاك البرق والتليفون وأحرق عدد غير قليل من محطات السكك الحديدية وحطمت بقية فوانيس النور في شوارع القاهرة وسائر المدن في أنحاء البلاد. فتحول الليل إلى ظلام حالك.

الإنذار الثاني: في ١٧ مارس وجاء فيه ما يلي:

إن القرى الواقعة بقرب خطوط السكك الحديدية التي يحدث تلف في ضمانها تكون مسئولة عن جميع نفقات الترميمات. وكذلك التعويضات في حالة إحراق المحطات أو حدوث نهب وسلب.

فماذا كانت النتيجة؟ ازدادت الحرائق في المباني الحكومية ونجحت أعمال التخريب والتدمير وامتدت إلى مساكن الإنجليز ومعسكراتهم وخطوط السكك الحديدية التي علق الإنجليز عليها كل أهمية وكل اهتمام.

الإنذار الثالث: في ٢٠ مارس وهو أشد وأعنف من الإنذارين السابقين إذ جاء فيه: «كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الأخرى سيلحق عقابه بإحراق القرية التي هي أقرب من غيرها إلى مكان التدمير. وهذا آخر إنذار».

فماذا كانت النتيجة؟ اتسعت دائرة التخريب بدل أن تضيق وزاد عدد الحرائق والاغتيال بدل أن يقل. لقد ظهر جلياً أن من العبث والسخف الاستمرار في إصدار مثل هذه الإنذارات التي لم تطفئ حريقاً ولم تمنع تخريباً ولم ترهب أحداً بل لعلها زادت الثورة قوة واتساعاً وتطرفاً وثبت للمصريين الثائرين أنهم الآن على الطريق المستقيم من الثورة، وأن هذه الأعمال الإيجابية أصبحت كافية

شاوية للإنجليز ومحطمة لرءوسهم وغطرستهم وتحديا سافرا لقوتهم وطغيانهم وجبروتهم وهم الذين خرجت بلادهم من الحرب العالمية الكبرى أقوى نفوذا وأشد بأسا وأوسع سلطانا مما كانت عليه قبل الحرب.

فماذا يفعل الآن القائد العام للقوات العسكرية البريطانية وهو الحاكم بأمره في البلاد؟ كيف يسيطر على الموقف؟ كيف يعيد الأمن والنظام والاستقرار؟ لقد ثبت بصورة مقنعة واضحة أن الانحلال والتفكك في الإدارة الحكومية يعمان البلاد كلها وأن حرية العمل قد انتقلت في الحقيقة إلى أيدي المصريين الثائرين الذين بدأوا الثورة متظاهرين سالمين فأصبحوا الآن عصابات أقوياء يضربون في الصميم ضربات مدوية قاتلة لعدوهم الطاغية.

وفيما يلي ما فعله القائد العام بعد تلك الإنذارات الفاشلة:

1- دعا لمقابلته في مركز القيادة البريطانية بعض الأعيان والوزراء السابقين وأنذرهم في غلظة وعنف بأن يبذلوا كل ما في وسعهم لتهدئة الأهالي ومنعهم من إحداث القلاقل والقيام بأعمال التخريب حتى لا يضطر إلى الالتجاء إلى حرق القرى والبلاد وتخريب البيوت وتدمير المعاقل وختم إنذاره بتهديدهم من عمله على انتهاج خطة تكون عاقبتها وبالا على مصر كلها.

2- ... الإنجليز الطائرات الحربية لحماية خطوط السكك الحديدية نهارا.

3- استخدموا كذلك كتائب من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة والترالبوزه لتجوب البلاد في اللوريات والسيارات المصفحة وكانوا يطلقون الرصاص على كل جماعة يشاهدونها فوقعت خسائر كبيرة في القرى والضواحي.

4- منعوا الناس من الخروج من منازلهم ليلا من الثامنة مساء حتى الرابعة صباحا إذ وجدوا بالتجربة أن تخريب الخطوط الحديدية لا يحدث إلا ليلا.

5- منعوا حتى الخفراء المصريين من السهر للمحافظة على خطوط

السكك الحديدية بعد غروب الشمس وتولى القيام بهذه المهمة الجنود البريطانيون.

٦- أرسلوا تجريدات عسكرية تأديبية مسلحة في لوريات إلى بعض بلاد الوجه البحري مثل الإسكندرية ورشيد وبورسعيد وزفتي وطنطا والمحلة الكبرى وبركة السبع وقلين وميت غمر ودسوق وشبين الكوم والمنصورة وغيرها وكانت ستائر المصريين جميعها في القتلى والجرحى. كما أرسلوا إلى الوجه القبلي تجريدات عسكرية مسلحة بواسطة البواخر النيلية التي حملت معهم كميات كبيرة من مدافع الماكينات والدبابات الحربية.

٧- أصبح المهندسون الانجليز عددا قليلا من خطوط السكك الحديدية الرئيسية مثل خط القاهرة- الإسكندرية. خط القاهرة- الإسماعيلية- بورسعيد. وخط القاهرة- قنا- الأقصر.

وأعلنوا أنه لايسمح بالسفر على هذه القطارات إلا لفئات معينة وهم الأجنبيون الرخص لهم بالسفر إلى الخارج وموظفو الحكومة الذين يحملون معهم ترخيصا موقعا عليه من أحد رؤسائهم الانجليز. والمصريون الذين يحصلون على ترخيص خاص من السلطة العسكرية البريطانية نفسها.

وبعد بوعين الثين من هذا الإعلان وقع تخريب في أكثر من مكان في هذه الخطوط الجديدة. فأعلن القائد البريطاني أنه سينفذ وعيده وإنذاره بإحراق القرى المجاورة لمناطق التخريب وإعطاء الأهالي درسا لن ينسوه حتى لا يعودوا إلى مثل هذه الأعمال التخريبية مرة أخرى، وقد نفذ فعلا وعيده بأعمال القتل الوحشية على أوسع نطاق وتحصيل الغرامات الباهظة لعمليات الإصلاح الجديدة لخطوط السكك الحديدية التي أحرقت والقضبان التي أتلفت. وأسرع المهندسون البريطانيون في إصلاح ما خرب وعادت هذه الخطوط إلى الاستعمال مرة أخرى.

القرى التي أحرقت ، والفتك بالأهالي على أوسع نطاق

من العسير المؤلم أن نذكر هنا على سبيل الحصر جميع القرى التي احترقت وجميع الأعمال الإجرامية التي ارتكبها الإنجليز ضد الأهالي الآمنين حتى بعد استجداء الشيوخ والنساء والأطفال. فنذكر بعضها وأهمها على سبيل المثال.

ديروط ودير مواس :

هاجم الثوار القطار القادم من الأقصر إلى القاهرة عند وقوفه في محطتين وكان به بعض الضباط والجنود الانجليز فقتلوا ثلاثة من الضباط وخمسة من الجنود الملحقين ودارت معركة داخل القطار وخارجه فقتل عدد كبير من الثائرين وأشعلت النار في القريتين ولكن سرعان ما تمكن الأهالي من إطفاء الحريق قبل أن يستفحل ثم عاد الانجليز بعد يومين وأتموا إحراق القريتين.

أسيوط :

بلغت فيها الثورة ذروتها. فتحصن الضباط والجنود البريطانيون في مبنى المدرسة الثانوية ومعهم من المدنيين البريطانيين حوالي ٩٠٠ شخص مسلح وتمكن الثوار المصريون المهاجمون من اختراق الأسوار الخارجية لمبنى المدرسة وقتلوا عددا من الجنود البريطانيين الذين أطلقوا على الثوار كل ما في أيديهم من الذخيرة ... فقتلوا مئات منهم. ومع ذلك استمرت المعركة ثلاثة أيام حتى وصلت نجدة عسكرية بريطانية وسلطتها بعض الطائرات التي ألقت قنابلها على الثوار واستمرت النجدات تصل إلى أسيوط بواسطة البواخر النيلية وقد أحرقت بعض القرى المجاورة لأسيوط وامتد الحريق إلى أسيوط نفسها.

العزيزية والبدرشين :

انقض على هاتين القريتين الملتصقتين بعد منتصف الليل قوة مثلث بريطانيتان مكونة كل منهما من أكثر من ٩٠٠ جندي مدججين بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية عدا المسدسات وطلبوا من العمد في كل من القريتين أن يسلم ما فيها

من أسلحة قبل مضي ربع ساعة. وهو مطلب عسير بل مطلب مستحيل. فلما انقضى الزمن المحدد بدأوا في إحراق القريتين في وقت واحد. فخرج الأهالي من بيوتهم مذعورين للحرائق ومن ضرب الرصاص بغير وعي ولا حساب. ولم يتركهم الجنود يغادرون القريتين بل يحاصرونهما وأخذوا في تفتيشهم. وكان بعضهم يحمل معه أعز ما يملك من مال وحلي، فاستولوا عليها اغتصابا. وحتى النساء فتشوهن بطريقة سافرة وحاولوا الاعتداء على بعضهن، فدافع عنهن أزواجهن الذين فقدوا حياتهم برصاص المستعمرين دفاعا عن نسائهم وشرفهم. فازدادت ثورة الأهالي وسخطهم وهاجموا الجنود بكل ما يملكون من عصي وبنادق وحجارة وقتلوا من هؤلاء الجنود المعتدين أكثر من عشرين جنديا عدا الجرحى. وماتت من الأهالي عشرات بل مئات.

إمبابة والعياط:

أحدثت فيهما الحرائق وارتكبت جرائم القتل كذلك على أوسع نطاق

نزلة الشوبك:

ارتكبت فيها فظائع زادت عما حل بالقرى الأربع التي ذكرناها آنفا. فقد وصل إليها قطار مسلح يحمل قوة كبيرة من الجنود المدججين بالسلاح. وبعد اقتحامهم لمنازل القرية جهرا سلبوا كل ما فيها من مال وحلي للنساء ثم حاولوا الاعتداء على أعراض النساء، فوقعت معارك دموية قتل فيها كثيرون من الرجال والنساء، ولكن مقاومة الأهالي الباسلة أسفرت عن مقتل خمسة عشر جنديا بريطانيا، ثم أشعل المجرمون البريطانيون النار في منازل القرية فاحترق منها ١٤١ بيتا من ٢١ بيوت هي كل القرية الصغيرة.

هذا فيما يختص بالوجه القبلي.

ووقعت في مديريات الوجه البحري وقراه أمثال هذه الجرائم والفظائع نخص بالذكر منها ما يأتي:

الشبانات:

«مركز الزقازيق» أحرقت وظلت النيران مشتعلة فيها يومين كاملين حتى دمرت ثلاثة أرباع القرية

صفط الملوك مركز إيتاي البارود بمديرية البحيرة:

أحرقت مع القرى القريبة منها واستمرت النيران فيها يوما كاملا..

ووقعت أمثال هذه الفظائع الوحشية في بلاد عديدة أخص بالذكر منها رشيد وقليوب وعافور والواسطى وملوى والمنيا.

هنا سؤال بل أسئلة تفحم نفسها وتصرخ بطلب الجواب.

- ماذا كان من أثر هذه الجرائم الدموية والمحاكم الاستعمارية في الثورة المصرية؟

- هل أخمدت الثورة أو أضعفتها أو عدلتها أو منعتها كما أمل المستعمرون؟

- هل نشرت الإرهاب والذعر بين المصريين وجعلتهم يؤثرون الاستكانة والسلامة؟

هل أبهت حركة الاضرابات وأعمال التخريب وقتل الانجليز خوفا وحذرا من السجن والشنق؟

- هل منعت أو قللت نشاط أحد فيه وإشعال الحرائق هنا وهناك وفي مساكن الانجليز أنفسهم؟

الجواب على ذلك كله بالنفي القاطع الحاسم. فلم تنثن الثورة في سيرها أو اتجاهها؟ أو أهدافها أو قوة اندفاعها وعنفها بل إن الثورة قد زاد لهيبها واتسع نطاقها وكأنها كانت في أشد الحاجة إلى تلك الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية لتزداد قوة وصمودا وثباتا وانتشارا وعزما وتصميما. وآية ذلك أن تخريب خطوط السكك الحديدية استمر ولم ينقطع، وإذا كان الانجليز قد أسرفوا في إشعال الحرائق في القرى، وتقتيل الأهالي فإن الثوار المصريين قد

عاروا لأنفسهم بإشعال الحرائق في المحال التجارية الإنجليزية في المدن وفي العاصمة بصفة خاصة مثل محلات دافز براين ومخازن روبرت هيوز. كما برعوا في صنع القنابل اليدوية وقذفها على الجنود البريطانيين من النوافذ والأسطح. وقتلهم نهارا وليلا بأساليب جريئة أذهلت الإنجليز كلهم من عسكريين ومدنيين.

والآن لابد لنا من وقفة ونظرة فاحصة لهذه الثورة قبل الاسترسال في تكرار وصف بقية القصص التي جرت كلها على وتيرة واحدة.

ظاهرتان بارزتان

إن هذه الثورة قد امتازت بظاهرتين بارزتين على جانب عظيم من الأهمية:

الظاهرة الأولى:

إن الشعب المصري بجميع أفراده وطبقاته وهيئاته قد قام بها واكتوى بنارها واشترك فيها بروح فدائية عجيبة. الطلبة والمثقفون والعمال والفلاحون والأزهريون والموظفون وأصحاب المهن الحرة حتى النساء المحجبات خلعن البرقع ونزلن إلى الشوارع في مظاهرات عديدة جريئة وتعرضن للاصطدام بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح فضلا عما لقينه من الإهانات والمتاعب القاسية.

الظاهرة الثانية:

لم يتول قيادة الثورة فرد معروف، بل كانت هنالك قيادات شعبية محلية متفرقة في كل مدينة وفي كل حي وكل قرية. لم يتلقوا الأوامر والتوجيهات من أية جهة. بل كانوا يجاهدون ويكافحون ويضحون بروح المنافسة والفداء وكانت هنالك جوائز تمنح لمن كان أعظم جرأة وأكثر فدائية وأخطر عملا.

ألم أقل أنها ثورة شعبية كاملة شاملة هائلة لم تعرف مصر لها مثيلا في تاريخها الطويل؟

أليست هذه معجزة تاريخية أن المصريين المعروفين بالمسالمة والوداعة قد أصبحوا محاربين سياسيين وزعماء فدائيين يستخفون بالحياة والموت على السواء. فما عادوا يرون للحياة قيمة ولا للموت رهبة، فإما الخلاص والكرامة والاستقلال وأما الموت والفناء.. والإنسان لا يموت إلا مرة..

لقد أصبح جليا للعيان أن أمام الانجليز من عسكريين ومدنيين حلين للأزمة لا ثالث لهما ولابد من اختيار أحدهما

إما الاستمرار في سياسة القمع والتنكيل والتعذيب والقتل والاحراق حتى يتمكنوا من إبادة الشعب المصري كله وإزالته من الوجود

أو الإفراج عن الزعيم وصحبه وتمكين الوفد كله من السفر إلى مؤتمر الصلح في باريس وعرض قضية البلاد القائمة على أساس إلغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال وانهاء الاحتلال وتحقيق الجلاء.

واختارت الحكومة البريطانية الحل الثاني بعد شهر واحد من قيام هذه الثورة المباركة العارمة، ولكن كان لابد من تمهيد لهذا الحل حتى لا تبدو هزيمة الحكومة البريطانية كاملة وحتى لا تبدو أنها بدلت سياستها إزاء مصر رأسا على عقب في لمح البصر. فكيف كان هذا التمهيد؟

التمهيد للإفراج عن الزعيم وصحبه

في ٨ مارس ١٩١٩ أعتقل الزعيم وصحبه كما ذكرت.

– في ٢٦ مارس ١٩١٩ عين اللنبي مندوبا ساميا فوق العادة في مصر والسودان، وأذيع في اليوم نفسه بيان رسمي جاء فيه «بسبب خطورة الحالة عين الجنرال اللنبي مندوبا ساميا فوق العادة في مصر والسودان ووكل إليه أن يقوم بالسلطة العليا في جميع المسائل العسكرية والمدنية وأن يتخذ جميع التدابير التي يرى ضرورتها ومناسبتها حتى يعيد القانون والنظام في هذه البلاد وحتى يدير

جميع الشاكين إذا دعا الأمر ناظرا إلى ضرورة تأييد حماية جلالة الملك على مصر على قاعدة ثابتة وعادلة»

في ٢٥ مارس وصل اللنبي إلى القاهرة.

في ٢٦ مارس أدلى بالتصريح الآتي على بعض أعيان القاهرة الذين دعاهم لمقابلته: «لقد تعطف جلالة الملك (١) بتعييني نائبا عن جلالته في مصر والسودان وأوصى بقصد لي حق أن أساعد على إعادة السلام والأمن والراحة إلى البلاد ولي أغراض ثلاثة وهي:

١- أن أضع حدا ونهاية للاضطرابات الحالية.

٢- أن أعمل تحريات دقيقة في جميع الأسباب التي حملت أهل البلاد على الشكاوى.

٣- أن أزيل كل الشكاوى التي تستوجب العدالة إزالتها..

وفي استطاعتكم أنتم أن تقودوا الشعب المصري، والواجب يقضي عليكم أن تعملوا لمصلحة بلادكم. ولست أظن أن أحدا منكم يحجم عن مساعدتي بكل ما في طاقته لإدراك الأغراض التي أسعى إليها. وإني مستعد أن أعتمد عليكم لتبدأوا بالعمل فورا بقصد تهدئة الخواطر المتهيجة الآن وبعد إعادة الأمن إلى البلاد فإن لي ملء الثقة بأنكم تسلمون حتى بأن أنظر بلا محاباة في جميع أسباب الشكاوى وبأن أوصي بأمور كل ما يلزم لسعادة الشعب المصري ورضائه».

استمرت الثورة في رحلتها الثانية مصحوبة بمطاردة الشعلى كما سبق وصفها رغم نداء الأعيان والكبراء لتهدئة الحالة.

في ٣١ مارس استدعى اللنبي رشدي باشا وأعضاء وزارته المستقيلة ليعرض آراءهم في أسباب الثورة وكأنه يجهلها، ثم دعا لمقابلته أعضاء الوفد المصري

---

(١) [illegible]

النافين في القاهرة وسألوهم كذلك عن أسباب الاضطرابات والثورة ولم يتركهم يشرحونها له بل طلب منهم بعد دقيقة واحدة من مقابلته أن يسجلوها له كتابة في تقرير أو مذكرة. ثم وقف إيذانا بانتهاء الاجتماع. وفي اليوم التالي مباشرة أي في يوم ١٦ مارس قدموا له مذكرة من ثلاث صفحات نسبوا فيها الثورة إلى أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة. أما الأسباب المباشرة فهي نفي الزعيم وصحبه إلى مالطة ومنعهم ظلما وعدوانا من السفر إلى باريس وعرض قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح. وأما الأسباب الأخرى فتنحصر في سخط المصريين جميعا على نظام الإنجليز وضغوطهم بإعلان الحماية على مصر. واشتد استياء المصريين بصفة عامة لعدم معاملتهم بالمساواة مع الأمم الأخرى حتى الصغيرة منها.

ثم قالوا في ختام المذكرة: إن المصريين قد نفد صبرهم ودفعهم اليأس من الإنصاف إلى إعلان ما في نفوسهم. كل يترجمه على شاكلته. فالرجال المسؤولون من رسميين وغير رسميين قد ترجموه بالاجتماعات المختلفة وبالامتناع عن العمل كالمحامين والقضاة والموظفين والطلبة بالمظاهرات السلمية والبعض الآخر بالاعتداءات المختلفة ردا على فظائع الإنجليز في قمع المظاهرات. تلك هي حقيقة الوضع الذي فيه بلادنا الآن بسطناها إلى فخامتكم باختصار. لهذا نرجو أن تأمروا بتحقيقها والرجاء معقود أن تفرجوا عن الزعيم وصحبه المنفيين وأن تزيلوا هذا الاستياء بالقضاء على أسبابه فإن الأخذ بناصر أمة بأسرها أقدس واجب على عظماء الرجال.

خطبة كيرزون تضرم الثورة

لم يمض يوم واحد على هاتين المقابلتين اللتين قام بهما الثلاثي مع رشدي ووزرائه السابقين ومع أعضاء الوفد الباقين حتى ثارت موجات من السخط الشديد في جميع موظفي الحكومة ورجال الجيش المصري ورجال البوليس ذلك

لأن المراقد هنا في مصر نشرت خلاصة الخطبة التي ألقاها وزير خارجية بريطانيا لورد كيرزون في مجلس اللوردات يوم ٢٤ مارس، وقد جاء فيها ثناء على هذه الفئات الثلاث. الموظفين ورجال الجيش المصري ورجال البوليس. وإشادة بسلوكهم في أثناء الاضطرابات واستنتاج بأن عقلاء الأمة المصرية لم يشتركوا في الثورة، ثم زعم بأن هذا كله برهان على صداقتهم للانجليز وعدم رضاهم عن الثائرين.

وإنه لثناء من عدو مهين مثير للنفوس، وإنه لاستنتاج باطل سخيف بأن الإجماع غير منعقد على المطالبة بتحقيق المطالب الوطنية التي قامت من أجلها تلك الثورة الشعبية العارمة الكاملة الشاملة.

فماذا كانت النتيجة؟

قرر الموظفون جميعا الإضراب العام ثلاثة أيام في جميع الوزارات والإدارات والمصالح التابعة لها احتجاجا على ما صدر من وزير خارجية بريطانيا من اتهام كاذب خطير لوطنيتهم وعدم اشتراكهم في ثورتهم، وكان الاتهام في شكل ثناء كاذب واستنتاج باطل وعلى غير أساس من الصحة.

وبهذا صدر التكذيب قويا لمزاعم كيرزون من جميع موظفي الحكومة المصرية بإضرابهم الكامل الشامل وسنعود إلى الحديث فيما بعد عن هذا الإضراب الرائع الذي كان حاسما في نجاح الثورة التي ازدادت حدتها وشدتها وقوتها بهذا الإضراب، والثورة في مرحلتها الثالثة وقد بلغت الذروة بهذا التضامن الجديد من جانب جميع موظفي الحكومة المصرية فأصيبت الإدارة الحكومية بشلل تام

هذا وقد ورد في الخطبة نقطتان أخريان تستحقان النظر، ونعرضهما على قسط جانب من الأهمية.

الأولى: ثناء على رشدي وعدلي وأسف لعدم تمكنهما من السفر لانجلترا مع أن وجودهما في انجلترا يقابل بمنتهى الرضا والارتياح للخدمات التي قدماها

لمصر وللأمبراطورية البريطانية خلال الحرب، ثم قال: «إننا نرى دائماً أن من أهم الأمور أن نتفق معهما على تحديد الشكل الذي ستكون عليه الحماية البريطانية في مستقبل الأيام».

الثانية: سخط على الزعيم سعد زغلول وصحبه، إذ قال:

«إن الحال مع سعد زغلول باشا يختلف كل الاختلاف عنها مع هؤلاء لأنه وأعوانه أعداء لبريطانيا وهم الذين دبروا هذه الاضطرابات وأنهم قوم غير مسئولين.. وغرضهم هو إخراج الانجليز من مصر وقد اختاروا وقت انعقاد مؤتمر الصلح في باريس موعداً للقيام بهذه الحركة الثورية، فلا سبيل للمناقشة معهم الآن وحبسهم هنا في انجلترا كان بسبب هياجهم في مصر وليتخذ دليلاً على أننا راضين بالبحث معهم عن التخلي عن تعاقدنا نحو تلك البلاد تخلياً تاماً، وكان فوق ذلك يهيء الأسباب لعرقلة وإحباط المباحثات التي ننتظرها ولا نزال ننتظرها إذا ما حانت الفرصة الملائمة لوضع تسوية تكون مرضية لمصر وللدولة البريطانية».

ما معنى هذه الخطبة في الحقيقة وماذا تكشف عنه؟ إنها تكشف أمرين أو حقيقتين:

الأولى: أن الحكومة البريطانية تحب رشدي وعدلي وتثق فيهما وتريد المفاوضة معهما لتنظيم الحماية البريطانية وتحديد الشكل الذي ستكون عليه في مستقبل الأيام. وهي تنتظر الفرصة الملائمة لذلك.

الثانية: أن الحكومة البريطانية تكره الزعيم سعد زغلول ولا تطيقه ولن تتفاوض معه لأنه يهدف إلى إخراج الانجليز من مصر وإلغاء الحماية البريطانية وبريطانيا لا تريد ذلك.

فهل ستحقق لهذه الحكومة الاستعمارية ما تريده؟ هيهات هيهات وسنرى عما قريب.

إضراب جميع موظفي الحكومة

الإضراب العام من جميع موظفي الحكومة جدد النشاط في المظاهرات فازداد ما فيها من دفع ثوري وضاقت بها الشوارع والميادين كأول العهد بها وجدد الحيوية في الاستمرار تلك الحلقة الأخرى فازداد مددها واتسع نطاقها ودفع الدم الجديد في عروق الفدائيين والثائرين في كل مكان، وبهذا كله عادت الثورة بمراحلها الثلاث تعمل متعاونة متفاعلة مترافقة شديدة الوهج والهياج. وبعد أن كانت شعبية فقط أصبحت شعبية وحكومية معا. وتجلى النكث والبهتان في مزاعم وزير خارجية بريطانيا الذي استثنى الموظفين ومن سماهم بالعقلاء من الاشتراك في الثورة بحماسة واندفاع.

في ٢ أبريل:

بدأ هذا الإضراب الفعلي الشامل لجميع موظفي الحكومة فخلت المصالح والدواوين من جميع الموظفين واتخذت القاهرة من ذلك اليوم مظهرا غير مألوف فقد أغلقت دور الحكومة وجميع المتاجر في جميع الأحياء وحقق الإضراب في أيامه الثلاثة الأولى كل الغرض الذي أريد منه وهو نفي مزاعم كيرزون عن الجمود الذي نسبه إلى الموظفين إزاء الحركة الوطنية فهل عاد الموظفون إلى وظائفهم بعد هذه الأيام الثلاثة؟ كلا. لقد لمسوا فوائد الإضراب في خدمة الثورة وخدمة قضية البلاد، فقرروا إطالة الإضراب إلى أجل غير مسمى تقوية للعوامل الفعالة في خدمة قضية الوطن وأعلنوا في منشورات أذاعها زعماؤهم أنهم لن يعودوا إلى وظائفهم إلا إذا أجيبت مطالب الأمة وهي الإفراج عن الزعيم وصحبه المنفيين ورفع كل قيد عن سفرهم وسفر الوفد إلى مؤتمر السلام

وفي يقيني أن هذا الإضراب الشامل لجميع موظفي الحكومة قد بلغ بالثورة إلى ذروتها، وكان أحد العوامل التي عجز الإنجليز في قدرتهم على سحق الثورة وبث بأسهم وجبروتهم منها ما لم يذعنوا ويقرروا الإفراج عن الزعيم وصحبه.



وفي ٧ أبريل سنة ١٩١٩، أعلن الفيلد مارشال اللنبي قراره بالإفراج عن الزعيم سعد زغلول وصحبه وإباحة السفر للمصريين.

وقد جاء في إعلانه هذا ما نصه: «بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان، أعلن أنه لم يبق حجر على السفر وأن جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم هذه الحرية. وقد تقررت علاوة على ذلك أن كلا من سعد زغلول وإسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر».

الإمضاء

نائب جلالة الملك الخاص

أ. هـ. اللنبي

النتائج الأولى لقرار الإفراج

١ - مظاهر الفرح والتفاؤل:

فرحة شاملة كاملة عمت جميع المصريين في جميع أنحاء البلاد، عمت الريف والحضر والقرى والمدن، وعادت الشوارع والميادين تموج بالمظاهرات الشعبية، ولكن سبحان مغير الأحوال، بعد أن كانت مظاهرات غضب

وسخط وهياج واحتجاج وتقاتل بالحديد والنار أصبحت مظاهرات فرح وبشر وتعانق وابتهاج وتقابل بالقبلة والابتسام والازدهار. تحففت المظاهرات رافعة الأعلام وهاتفة بحياة الزعيم والاستقلال وسقوط الحماية والاحتلال. وسارت عربات الترام وعربات النقل مزينة بالأزهار وأغصان الأشجار. وتحلت المقاهي والمحال التجارية وهي مزدانة بالرايات أو الأزهار والرياحين. ابتسامات في كل مكان، ونشوة سرت في جماهير الشعب وجميع المثقفين ما بعدها نشوة هي السعادة بعينها

لماذا كل هذا؟ أهو إسراف في المزاج المصري؟ أهي خفة في النفس المصرية؟ أهي هوية؟ كلا. بل شعور طبيعي سليم، لقد عشت هذه الثورة في مطلع شبابي واكتويت بنارها، اشتركت فيها وانفعلت بها، شقيت فيها وسعدت بها وعرفت روحها معرفة المحب الخبير فلأسجل مشاعري في ذلك الوقت.

رأي مصر في قرار الإفراج

كان قرار الإفراج قرارا بهزيمة الحكومة البريطانية في الواقع وانتصارا للثورة المصرية بعد شهر واحد من قيامها. أي بعد حرب مريرة بين الشعب المصري الأعزل وقوات الاستعمار البريطاني المسلحة أكمل تسليح حرب سقط فيها آلاف من المصريين موتى وجرحى ومشوهين وأحرق بأيدي الانجليز عدد كبير من القرى المصرية ووقع في البلاد من أعمال التخريب ومختلف المسالك ما يقدر بملايين الجنيهات وتعرض المصريون لشتى أنواع التعذيب والإهانات والآلام جميعا ليس إلى وصفه من سبيل. والآن يرفع الانجليز بهذا القرار الراية البيضاء بالتسليم. يسلمون فيما كانوا يعارضونه ويمنعونه. سفر الزعيم والوفد إلى مؤتمر الصلح عارضوه في قوة وعزم وشراسة، واليوم يوافقون عليه صاغرين ومطالبة مصر بالغاء الحماية وملحقاتها منعوها في قسوة وغطرسة

وتعذيب وتقتيل بالحديد والنار، واليوم لا يمنعون وتركوا المصريين يعرضونها حيث شاءوا.

والذين طاردوا وعاقبوا أول الأمر هم أنفسهم الذين عدلوا عن سياسة المنع والمطاردة.

فما معنى هذا الأمر؟

إن بريطانيا قد رفعت الراية البيضاء إيذانا بالتسليم ورجوعا عن المنع والمطاردة. ألا لم يكن هذا انتصارا باهرا فأي نصر نطلقه عليه؟ لقد قابل الشعب المصري بمظاهرات الفرح والابتهاج يوم انتصاره كما قابل الإنجليز أنفسهم بمظاهرات الفرح والابتهاج يوم الهدنة وخروجهم من الحرب منتصرين. هكذا فعل كل الشعب في ساعات الانتصار ونشوتها، فلا إسراف هناك ولا خفة..

رأي الإنجليز في قرار الإفراج

كان رأيهم بلا شك أن لابد مما ليس منه بد، فقد عجزوا عن سحق الثورة المصرية التي أصبحت بعد شهر واحد أكثر اتساعا وأشد مراسا وفي ازدياد مطرد. وعجزوا عن تأليف وزارة مصرية تحكم البلاد أو يحكمون بواسطتها البلاد. فقد ظلت مصر أربعين يوما بغير وزارة وظل الإنجليز وحدهم يحكمون حكما مباشرا بالحديد والنار في الوقت الذي يجلسون فيه في مؤتمر الصلح في فرساي يقررون مبدأ حق تقرير المصير ويطبقونه على شعوب أقل ثقافة وحضارة وثروة وسكانا وتاريخا من الشعب المصري. إنها لفضيحة لهم ما بعدها فضيحة فاضطروا إلى الإفراج اضطرارا، ولهم من وراء ذلك أربعة أهداف.

الهدف الأول:

التمكن من تأليف وزارة مصرية تحكم البلاد أو يحكمون البلاد بمساعدتها وبأسلوب غير مباشر.

الهدف الثاني:

إنفاذ مصلحتهم في المحافل الدولية لاسيما في مؤتمر الصلح في باريس.

الهدف الثالث:

تخفيض حدة الحقد والغيظ والضغينة التي امتلأت بها قلوب المصريين بسبب الجرائم الدموية والمظالم الاستعمارية التي ارتكبوها في البلاد

الهدف الرابع:

تهيئة الجو السياسي للمحادثات والمساومة ثم المفاوضات.

ولاشك أن هذه أهداف بريطانية سوى الإقدام على قرار الإفراج، على ما فيه من اعتراف بالهزيمة لبريطانيا

ويا حبذا كل الحبذا لم يمض إلا يوم واحد على قرار الإفراج حتى تمكن الانجليز من تحقيق هدفهم الأول، ففي ٩ أبريل ألفت وزارة مصرية مرة أخرى برياسة رشدي باشا

سفر الوفد إلى باريس

يوم ١١ أبريل سنة ١٩١٩:

سافر أعضاء الوفد المصري من القاهرة إلى بورسعيد بقطار الصباح وأبحروا على الباخرة كاليدونيا في طريقهم إلى مالطة وهم: عبدالعزيز فهمي بك، أحمد لطفي السيد بك، محمد علي علوبة بك، واصف غالي بك، حسين واصف باشا، سينوت حنا بك، علي شعراوي باشا، عبداللطيف المكباتي، مصطفى النحاس بك، جورج خياط بك، الدكتور حافظ عفيفي، الأستاذ ويصا واصف، محمود أبوالنصر بك.

يوم ١٥ أبريل:

وصلت الباخرة إلى مالطة فاستقل عليها المنفيون وهم: الزعيم سعد زغلول

باشا، إسماعيل صدقي باشا، محمد محمود باشا، حمد الباسل باشا.

وهكذا يجتمع شمل الوفد المصري وكل الأمة.

يوم ١٨ أبريل:

وصل الوفد إلى مرسيليا.

يوم ١٩ أبريل:

وصل الوفد إلى باريس حيث لقي صدمة أليمة مذهلة إذ في اليوم نفسه اعترف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر.

على أنه في اليوم السابق لسفر الوفد إلى باريس تألفت لجنة مركزية تنوب عن الوفد مدة غيابه عن مصر برئاسة محمود باشا سليمان وسكرتيرها العام عبد الرحمن بك فهمي.

والآن أتناول بالبيان ما يلي:

١- الحالة في مصر بعد تأليف وزارة رشدي.

٢- الحالة في باريس بعد وصول الوفد إليها وأثر الصدمة في نفوس أعضائه.

٣- الحالة في بريطانيا. ماذا جرى وماذا أتجه لتنتهي إليه في سياسة الحكومة البريطانية؟!

تطورات الحالة في مصر بعد سفر الوفد إلى باريس

بعد قرار الإفراج بيوم واحد وبعد انقضاء أربعين يوما بالتمام بغير وزارة، وفي الوقت الذي كانت فيه مصر تهتز وتموج بمظاهرات الفرح والابتهاج والتفاؤل وتنعم بنشوة الانتصار، ألف رشدي باشا وزارته الرابعة في ٩ أبريل في سرعة مفاجئة خاطفة. ولم يذكر في كتاب تأليف الوزارة كلمة واحدة عن الحماية أو الاستقلال أو أفراح البلاد أو سفر الزعماء إلى باريس بعد النفي والمصادرة. ولا

كلمة واحدة عما ينتويه أو يرسمه أو يعمله وزارته الجديدة وكل ما هنالك عبارة غامضة مبهمة وهي "نظراً لما في الظروف الحاضرة من مصاعب وأملاً في حل يرضي الأمة أرى من واجبي القيام بالمهمة التي اقتضت إرادتكم السنية إحالتها على عهدتي"..

وتلقت الأمة تأليف هذه الوزارة على هذه الصورة الغامضة المبهمة بشيء كثير من الريبة وسوء الظن، وكان جميع موظفي الحكومة في الوزارات والمصالح مضربين عن العمل منذ ٢ أبريل. وقد ألفوا من بينهم لجنة من اثنين وثلاثين عضواً كهيئة تنفيذية تجتمع وتقرر بالنيابة عن جميع الموظفين. وكان أول ما عملته هذه اللجنة الاستمرار في الإضراب حتى تجاب المطالب الآتية:

١- أن تعترف الوزارة بصفة الوفد الرسمية.

٢- أن تعلن الوزارة أن تشكيلها لا يعني الاعتراف بالحماية.

٣- إلغاء الأحكام العرفية.

٤- سحب الجنود البريطانيين المسلحين من الشوارع ومن المدن والقرى.

٥- تفويض حفظ الأمن والنظام إلى رجال البوليس المصري.

وفي يوم ١٧ أبريل أصدر رشدي باشا بياناً من رياسة مجلس الوزراء ناشد فيه الموظفين بالعودة إلى أعمالهم وإنهاء الإضراب وهذا نص البيان:

"الآن وقد رخص للمصريين بالسفر وتألفت وزارة شعارها الإخلاص التام في خدمة الوطن ومشاطرة الأمة شعورها ومقدرة لأمانيها حق قدرها فإن الحكومة تدعو الأمة إلى الهدوء والسكينة. كما أنها تدعو الموظفين وغيرهم ممن أضربوا عن العمل تلبية للعواطف القومية إلى العودة إلى أعمالهم. وإن الإصرار على الإضراب في الحالة الحاضرة يؤدي إلى ارتباك الأعمال وانتشار الفوضى. فيتحمل المضربون عن العمل المسئولية الهائلة التي تقع عليهم بإزاء بلادهم إذا ما أصروا على موقف يعرض البلاد إلى مثل هذه الأخطار والحكومة على يقين

بأن الكلفة يمركون أن لغتنام عظمة السلطان بتأليف الوزارة قبل أول باعث عليه وضع مقاليد الأمور في يد السلطة المدنية متسعة لإناطة المحافظة على النظام والأمن برجال السلطة المصرية والرجوع إلى الحالة العادية.

ورأت لجنة الموظفين أن هذا البيان لا يحقق مطالبها وقررت عقد مؤتمر عام.

وفي يوم ٦٦ أبريل:

عقد مؤتمر وطني عام في الأزهر برئاسة المفتي وحضور جمع زاخر من الموظفين وممثلي جميع الهيئات وقرروا ضرورة الإضراب والتضامن مع الموظفين في مواقفهم من استمرار الإضراب وعدم العودة إلى العمل. هذا وقد أعلن كثيرون من التجار والعمال والمحامين وأصحاب المهن الحرة عزمهم على الإضراب كذلك.

استقالة الوزارة الرشدية

في ٢١ أبريل:

استقالت وزارة رشدي باشا بعد أن شعرت بعجزها عن إقناع الوطنيين بالعودة إلى العمل وبعد أن رأت أن حركة الإضراب أخذت تتسع وتتفاقم لاسيما بعد أن تضامن العمال مع الموظفين.

وكان من دواعي الأسف أن رشدي لم يسجل هذه الحقائق كتابة في استقالته رامما على الاستقالة بأسباب صحية. ومع ذلك فإن مجرد الاستقالة في هذه الظروف كبيرة المعنى عزيزة المغزى

معناها أن الرأي العام الثوري بلغ من القوة بحيث يجبر وزارة على الاستقالة على الرغم من أن السلطان يؤيدها والحكومة البريطانية تسندها وترحب بها. ومغزاها أن الانجليز فقدوا صنعهم الأول من قرار الإفراج بإقامة وزارة مصرية

يتطلعون معهم في حكم البلاد وتعمل على تهدئة الخواطر.

ولقد شاع من غيظ الانجليز وكمدهم بسبب هذه الاستقالة أن نشرت جريدة المورننج بوست بأن الصراع القادم سيكون بين اللنبي وموظفي الحكومة المصرية وأن المعركة ثابتة لا ريب فيها إذ لا يطاق أن يترك الوطنيون المصريون متزعمين الثورة يقبضون على الوزارات ويسيطرونها بتدخلهم في السياسة وفي حكم البلاد.

ثم ختمت الجريدة مقالها بالتهديد الآتي: «إذا لم يعد الموظفون إلى أعمالهم فورا ويتخلون عن الإضراب فإن الواجب يقضي بفصلهم جميعا من وظائفهم. ويتولى الانجليز الحكم المباشر في البلاد كما هو الحال في المستعمرات وأن الذنب في ذلك سيكون على الموظفين لأنهم لا يريدون الاشتراك في إدارة الحكم في بلادهم ولا يدركون ما عليهم من مسئوليات».

أما المصريون عامة والموظفون خاصة فقد اغتبطوا بقوة إضرابهم وثباته واعتبروا استقالة الوزارة الرشدية ترضية لهم. فلا معنى لاستمرار الإضراب ولهذا قررت لجنة العشرة عودة جميع الموظفين إلى العمل وهي اللجنة التنفيذية الممثلة للجنة الموظفين الكبرى في هذا الشأن. وصدر هذا القرار يوم ٢٠ من أبريل. وفي اليوم التالي أي في صبيحة يوم ٢١ أبريل أذاع القصر بلاغا رسميا أنذر فيه الموظفين بالعودة فورا إلى أعمالهم ووظائفهم وإلا شطبت أسماؤهم من سجلات موظفي الحكومة.

ومن الطريف أن أغلب الموظفين كانوا في مكاتبهم في اليوم نفسه استجابة لقرار لجنة العشرة.

وفي ٢٤ أبريل اجتمعت لجنة الموظفين بكامل أعضائها وقررت قرار ممثلي اللجنة معلنة أن عودة الموظفين قد بنيت على استقالة الوزارة لا على تهديد اللنبي.

ويتجلى غيظ المصريين وكمدهم مرة أخرى في سلوك الرؤساء الانجليز إذ

أصبحوا يهينون الوطنيين بعد عودتهم إلى العمل مما أثار السخط والحقد عليهم أضعافا مضاعفة.

هذا وقد ظلت البلاد بغير وزارة مصرية ثلاثين يوما ثم فوجئت يوم ٢١ مايو ١٩١٩ بتأليف وزارة برئاسة محمد سعيد باشا. فقوبلت بمظاهرات شعبية عدائية وسخط عام ووقعت اعتداءات متكررة على بعض الجنود البريطانيين وفى خلال هذه الثلاثين يوما كان اللنبى يحكم بأمره يفعل ما يشاء كما يشاء فأصدر قانون الميزانية بقرار منه بصفته القائد العام للقوات البريطانية فى مصر وخول وكلاء الوزارات سلطة الوزراء فى بعض الشئون والاختصاصات وكان هؤلاء الوكلاء أربعة من المصريين وأربعة من الانجليز هم دوسن وكيل المالية ولاسجلى وكيل الزراعة ودنيتهلم وكيل الأشغال وموزيس وكيل الداخلية.

كل هذا والثورة مستمرة فى مرحلتها الثالثة بغير هوادة من جانب الثائرين المصريين وجانب المستعمرين البريطانيين.

اعتراف ولسون بالحماية

فى نفس اليوم الذى وصل فيه الزعيم والوفد إلى باريس. أعلن الرئيس ولسون اعترافه بالحماية البريطانية على مصر وهو توافق مدبر وتوقيت عجيب وتآمر مدروس منظم من جانب الاستعمار البريطانى قصد به من غير شك أن يكون صدمة عنيفة ألهبة مريرة للثورة فى مصر وللوفد فى باريس. ولا أنكر أن الضربة كانت بالفعل موجعة. أثارت اليأس والكمد فى بعض النفوس وأثارت النخوة والغضب والعزيمة فى البعض الآخر. ولقد سبق أن أثبت فى الفصل الرابع كيف كانت مبادىء ولسون وخطبه من أكبر الحوافز للثورة فتفتحت بها أبواب الأمل فى النجاح. اليوم يتنكر ولسون لمبادئه ويثبت للعالم أنه رسول سلام مزيف وأنه وقع فريسة للمستعمرين حين جلس معهم فى مؤتمر الصلح وأنه

أصبح ذيلا لمستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ورئيس وفدها في مؤتمر الصلح والسلام. فثبت أنه رجل ضعيف منخوب الفؤاد.

وأخذ الناس في مصر يتساءلون في دهشة وألم ومرارة عن سر هذا الاعتراف وأهدافه وبواعثه، كيف يعترف ولسون بحماية فرضت على مصر قهرا وقسرا من دولة تعهدت أكثر من ستين مرة بالجلاء. وكيف يبرر اعترافه بغير حياء أو رعاية لمبادئه المقررة لحق الشعوب في تقرير مصيرها؟ ولماذا أسرع إلى الاعتراف في يوم وصول الوفد إلى أبواب مؤتمر الصلح ليطالب بالاستقلال؟

وعشرات أخرى من أمثال هذه الأسئلة والإجابة عنها كلها واحدة وهي مؤامرة استعمارية بريطانية استغلت ضعفه لإدخال اليأس في قلوب المصريين عامة والوفد خاصة وإفهامهم جميعا وإقناعهم بخيبة المسعى في معارضة السياسة البريطانية ونفوذها في كل مكان.

فهل نجحت هذه السياسة الاستعمارية؟ كلا. لقد كانت مبادئ ولسون مصدر إثارة دائمة لمصر وكان تنكره لها واعترافه بالحماية صدمة مؤقتة وخيبة طارئة للأمل لم يلبث أن زال أثرها زوالا تاما.

وتطلع المصريون جميعا إلى باريس ليعرفوا مسلك الوفد وماذا هو صانع.

كتب سعد في مذكراته العبارة التالية الآتية: "لقد تعمد الانجليز أن يصدموا الوفد باعتراف ولسون بالحماية يوم وصولنا أملا في أن تتزعزع ثقتنا في أنفسنا وفي النجاح. وما كان غريبا في الإفراج عنا ثم استقبالنا في باريس بهذه الصدمة إلا كتدبير السجان الذي يطلق أسيرا ثم يرصد له على أبواب السجن من يصدمه ويغتاله ليحيق به الكمد في ساعة الفرح والاستبشار بالخلاص والأمل في المستقبل".

والخلاصة كانت الصدمة قاسية مريرة في الوفد كله وانقسم أعضاء الوفد

في مدى الشعور بها وسمع الألم منها فقد يئس بعضهم يأساً تاماً من جدوى البقاء في باريس والسعي للاستقلال، وآثروا العودة إلى مصر طلباً للسلامة. في الحقيقة. وتظاهروا بأن العمل في مصر أجدى وأنفع. ومن هؤلاء إسماعيل صدقي باشا ومحمود أبو النصر بك وحسين واصف باشا.

وعادوا فعلاً إلى مصر وقرر الوفد اعتبارهم منفصلين من عضويته.

ورأى بعض الأعضاء ضرورة الاقتصار على الاتصال بالحكومة البريطانية وذلك لأنهم في قرارة نفوسهم يؤمنون باستحالة التغلب عليها في مثل هذه الظروف ولاسيما أن مؤتمر الصلح في قبضة يدها وأن ولسن ذيل للويد جورج.

ومنهم من رأى أن المناقشة الدولية من شأنها أن تحمل الحكومة البريطانية على الإصغاء لمطالبنا

أما الزعيم نفسه فقد رأى ضرورة البقاء في باريس ذلك لأن الرجاء ليس مقصوراً على الحكومات وحدها بل على الشعوب من وراء هذه الحكومات وأن الطريق إلى الشعوب مفتوح لمن يحسن السير فيه ويقوى على صعابه وإذا كان الرجاء في مؤتمر الصلح في باريس قد زال فإن وراء المؤتمر شعوباً حية ومترابطة فلا يجوز اليأس من التأثير في الشعب الأمريكي مثلاً والشعب الفرنسي والشعب الإنجليزي نفسه. والدول كالأفراد تحرص على حسن السمعة ولا تقوى على تحدي الفضائح التي تنسب إليها والمظالم التي تصدر منها.

قال الزعيم لأعضاء الوفد (كما علمت فيما بعد):

وإذا عاد إلى مصر بعض أعضاء الوفد فقد وقع الخلاف وبدأ الانحلال وهو ما يرجوه الإنجليز، وإذا عاد الوفد كله إلى مصر فقد ملكته الحكومة البريطانية ورجعت به إلى قبضة يدها، هذا فضلاً عن أن الوفد يصبح عرضة للسخرية نهائياً من أبناء وطنه لاسيما بعد تلك الضجة التي أقامتها الأمة ليتمكن الوفد من السفر، فالعودة إلى مصر تحدث خيبة أمل جسيمة

لا تحمد عقباها ولا تقدر آثارها القريبة والبعيدة فتيأس الأمة من رجالها وتتشكك في رجالها. لهذا أرى ضرورة البقاء في باريس لأنه أولى وأنفع على كل حال، وهذا لا يمنع من تركيز العمل في مصر والاعتماد عليه في الدعاية في أوروبا ولاشك أن الدعاية في أوروبا تزيد في تنبيه عزيمة الأمة كلما استطاعت إلى تنبيه، وهكذا يحدث تفاعل ناجح مفيد بين الوفد في أوروبا والثورة في مصر.

وكانت النتيجة أن مرت الأزمة بسلام. وانتهت المحنة وكأنها لم تكن. ووافق الوفد على البقاء في باريس لاستمرار الجهاد في خدمة قضية البلاد.

وكان عمله الأساسي نشر الحقائق عن مصر وتفنيد الأباطيل التي تذاع فما من مقالة تنشر عن مصر في جريدة انجليزية أو فرنسية محترمة إلا ويتصدى بالرد عليها، ولا تصريح ينسب لوزير بريطاني إلا رد عليه وفنده ولا قرارا يصدر ضد مصر إلا احتج عليه وأظهر فساده.

حملة بالحق تنويرا للأذهان وإثارة للضمائر وكشفا للأكاذيب والأضاليل ونشر أخبار الجرائم الدموية والمظالم الاستعمارية التي ترتكب في مصر نشرا لفضائح الانجليز وحكومتهم وأملا في التأثير في الرأي العام البريطاني ومن تحريك ضمائر بعض الأحرار من أعضاء البرلمان البريطاني حتى يضغطوا على توجيه الأسئلة المحرجة لحكومتهم الاستعمارية الباطشة الجائرة.

هذا إلى مقابلات واتصالات شخصية يقوم بها الزعيم وأعضاء الوفد بالرجال الرسميين والصحفيين وكبار الكتاب في باريس ولندن. وما كان اختياري للعمل مع الزعيم والوفد في باريس إلا مثلا صالحا عن قدرتي على الإسهام والمعاونة في هذه العمليات النوعية التي تنشيها الدعاية باللغة الإنجليزية على أوسع نطاق.

احتجاج الوفد على مؤتمر الصلح

في ١٩ مايو ١٩١٩، أرسل الزعيم سعد زغلول احتجاج الوفد إلى كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح وهذا نصه:

«جناب مسيو جورج كليمنصو رئيس مؤتمر السلام بباريس.

«لم يشأ مؤتمر الدول المتحالفة المشتركة أن يطبق على مصر مبادىء الحق والعدل مع أنها جديرة بأن تعامل بمقتضى هذه المبادئ، نظرا لما قامت به من المساعدات التي أدت إلى النصر. لم يشأ أن يسمع صوت مصر مع أنها كانت في مقدمة الدول التي أعلنت أنها في حالة حرب مع أعداء دول الائتلاف. وقدمت أعظم التضحيات في سبيل قضية الحلفاء. لم يشأ أن يسمعها مع أنها بلاد غيرت الحرب مركزها السياسي. وقد اعترف المؤتمر بالحماية البريطانية بدون أقل مراعاة لرأي الأمة المصرية وبغير أن يمنح أدنى التفات لقيام هذه الأمة بأجمعها في وجه هذه الحماية وإظهار معارضتها لها بأجلى المعاني.

«إن العقل ليأبى إسناد هذا القرار إلى المبادئ التي من أجلها خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب والتي قررها الرئيس ولسون بعد ذلك لتكون أساسا للهدنة ثم للصلح ولا إلى المبادئ التي أعلنت بريطانيا نفسها على تحكيم التقاليد السياسية التي كان معمولا بها قبل الحرب. لأنه كيف يستطيع العقل البشري أن يفسر نيل الحجاز استقلالها وهي ولاية صغيرة وعدد سكانها لا يذكر ومواردها ضئيلة ولم تتحمل شيئا من أعباء الحرب. ومصر التي قامت بنصيب وافر منها وعانت ما عانته في سبيل الفوز النهائي يكون نصيبها الرفض البات إذا طلبت أن يسمع صوتها، ثم يعقب هذا الرفض ضياع حقوقها المقدسة التي كسبتها بدماء أبنائها في ميادين القتال.

«لا يمكن التسليم بأن مصر التي اشتركت من أوائل القرن الماضي في إقامة صرح المدنية وساعدت تركيا في انتصاراتها الذي أدى إلى استتباب النظام في

الحجاز بل وعلى اليونان كذلك وحتى قهرت تركيا نفسها في ميدان الحرب، يكون حقها أن تعامل بأقل مما عوملت به شعوب إفريقيا الوسطى وقد أصبحوا اليوم محلا لرعاية ما كانوا ليحلموا به. ليس في العالم قاض نزيه يستطيع الاهتداء إلى سبب واحد مقبول للموقف الذي اتخذه المؤتمر إزاء القضية المصرية أو اتخذته بريطانيا العظمى نفسها وهي التي أشهدت العالم أكثر من ستين مرة على أنها لا تفكر مطلقا في ضم مصر أو في إعلان الحماية عليها كرها وإنما هي ترمي في سياستها إلى استقلال هذه البلاد.

ونهاية القول إن العقل لا يمكن أن يرتاح لقرار المؤتمر كيفما قلبه ومهما كانت العلة التي تتخذ أساسا لتبريره حتى إذا سلم بأنه حق القوي على الضعيف لأن حق القوة معناه الحرب والفتح ولاشك أن مصر لم تكن في حالة حرب مع بريطانيا بل كانت حليفتها، ولم تفتح بريطانيا مصر بل إن الأمر على العكس من ذلك، فإن مصر هي التي ساعدت بريطانيا على فتح ما فتحته من بلاد العدو.

نعم إن بعض الصحف قد قبلت تلك النظرية القائلة بأن الشعوب الشرقية لا يمكن معاملتها بما تعامل به الشعوب الغربية وأن المبادئ التي أعلنت في هذا الشأن قد نشأت عن وعود لم تحسب عواقبها. فهل يريدون التمسك بمثل هذه النظرية ليهدموا في زمن السلم تلك المبادئ السامية التي أقامت الحرب بنيانها وليحسبوا بعد نيل الصلح تلك الوعود التي وعدوا بها من أشركوا معهم في تشييد صرحها. إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يفسروا طريقة عدم تطبيق هذه النظرية في جميع الأحوال بلا استثناء. فإننا نرى بعض الأمم الشرقية التي كانت بما صدر لها من الوعود قد تحققت آمالها فعلا.

لم يبق إلا فرض واحد لابد من التسليم به وهو أن الشعب المصري قد اعتبر سلعة من السلع التي يتجر فيها وهذا التصرف هو ما ينقضه العقل والدين نفسه سندا في مطالبه التي كان يتظلم فيها من حق القوة ومن وجوب التضحية

عصرها لأنه تصرف جائر لا يتفق وروح العصر الحاضر. إنه ليشق علينا أن نذكر أن الإنجليز قد عاملونا هذه المعاملة. غير أننا لسوء الحظ مضطرون لتقرير الواقع. ومهما يكن من بواعث الاحترام الواجب لهذه المحكمة العليا فإنه لا يسعنا إلا إثبات الواقع كما هو. لأن من الأوقات والظروف ما يكون فيه خطر على الإنسان إذا هو لم يضع كل شيء في سبيل تقرير الحقيقة..

ولقد كان للشعوب المغضوبة الحق أن تجد فيها معنى من ذلك المثل الحكيم الذي وضعه الفيلسوف روسو وهو «أن القوى مهما بلغت قوته لا يأمن أن تكون له الغلبة على الدوام ما لم يساعده على التذرع بالصبر». أما الآن وقد أثبت الرئيس ولسون بأجلى بيان أن من الأمور المعقولة التي تنفر منها الطباع أن تسود أمة على أمة، فقد بلغ كره السيادة في نفوس الأمم المظلومة أنها أضحت تفضل الفناء على البقاء في قيود الذل.

ولا شك أنه ما كان لهذه المبادئ الجديدة إلا أن تصادف في مصر وسطا مستعدا لتثبيتها. لأن مصر بلد من سلالة كريمة الحسب نشيطة المزاج إذا نيلت منها الأمن أثار غضبها على الذين ينلوثونها في استقلالها. إن الأمة المصرية لا تقبل أبدا أن تكون السلعة القديمة التي تتداولها أيدي الأقوياء. ولا شك أنها اليوم بعد التصريحات التي فاه بها الرسول الجديد في عالم السياسة الذي كشف كلماته عن أسمى معاني الأدب وأرفعها.. أبعد منها في أي زمن مضى عن الرضى بمثل هذا المصير فإن مجرد خوفها من عدم تطبيق مبادئه ولسون على قضيتها قد دفعها إلى تعريض صدور أبنائها وهم عزل من السلاح لنيران الرصاص القتالة. ومن غريب الاتفاق أن تكون تلك الساعة هي التي تجتمع فيها عشرون دولة لتقرير موافقتها على الحماية البريطانية أن مثل هذا العمل المحزن لن يكون من ورائه إلا إنماء بذور اليأس وعوامل الغضب في قلب الشعب المصري. وقد قال الرئيس ولسون بأن الصلح لا يمكن أن يكون صحيحا وطيد الأركان إلا إذا

اندثر به كل أثر من آثار الحقد في قلوب الشعوب سواء أكانوا أقوياء أو ضعفاء. وكان العدل موزعا عليهم بدرجة واحدة بغير أقل تمييز بين قويهم وضعيفهم.

فهل وقع الاختيار على الشعب المصري ليكون ضحية تقدم هدية لحبي اتفاق الدول المظفر. إذا صح ذلك فكيف يمكن التسليم بأن نكون نحن الضحية ونحن أمة ذات تاريخ ومدنية معروفين. وما الذي كان يصيبنا لو كنا انضممنا إلى أعداء الحلفاء عوضا عن أن نشاطرهم متاعب القتال؟

إن الواجب المفروض علينا بصفتنا نوابا عن الشعب المصري يقضي علينا أن نسمع المؤتمر صوت هذا الشعب البائس التعس الذي حرم بغير ذنبه من التمتع بالعدل الذي مدت ظلاله جميع الأقطار المعمورة. وقد بات يرى نفسه أنه إنما كان يعمل للإضرار بمصالحه باشتراكه في العمل مع الحلفاء. نعم إن صوته يرتفع عاليا بالاحتجاج لأنه وحده الذي حرم من نعمة الصلح وعزائه مع أنه كان عاملا أمينا في الحرب ولكن الأمة التي لها أمان خاصة نصبتها فوق كل احترام والتي تشعر بشخصيتها وتعرف حقوقها لن تمكن الغير من أن يتصرف في أمرها وفيها دون غيرها خاصة الحق في البت في مصيرها.

عن الوفد المصري

رئيس الوفد سعد زغلول

وطبع من هذا الاحتجاج حوالي ٢٠٠٠ نسخة وزعت على الجرائد الكبرى في باريس ولندن ونيويورك وواشنطن وعلى رؤساء الوزارات من دول أوربا ورؤساء البرلمانات في بريطانيا وفرنسا وأمريكا، وأرسل الزعيم مع نسخة الاحتجاج خطابا خاصا مؤثرا إلى كل من رئيس مجلس العموم البريطاني ورئيس مجلس الشيوخ الأمريكي. كما أرسلت عشر نسخ إلى رئيس اللجنة المركزية الوطنية في القاهرة لترجمته ونشره في الجرائد إن أمكن أو توزيعه على الشعب سرا كمنشورات.

قرار عظيم
لمجلس الشيوخ الأمريكي

في شهر أغسطس ١٩١٩ قررت لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكي بعد دراستها ومداولاتها في معاهدة الصلح:

«إن مصر من الوجهة السياسية ليست تابعة لتركيا ولا لبريطانيا العظمى ويجب أن تكون صاحبة الحق في تقرير مصيرها».

ووافق مجلس الشيوخ الأمريكي على تقرير لجنة الشئون الخارجية الذي سجل هذا القرار.

وانتهت مناقشة المجلس في معاهدة الصلح إلى تقرير عدم الموافقة عليها في مارس ١٩٢٠، فكان هذا المصير أكبر صدمة لولسون وللحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية، وكان قرار اللجنة المباركة أكبر فرحة للزعيم سعد زغلول والوفد والشعب المصري.

وهكذا انعكست الآية: صدمنا أولا وصدموا أخيرا. وفرحوا أولا وفرحنا أخيرا.. ومن ضحك أخيرا ضحك أطول كما يقول المثل الانجليزي.

وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

الحالة في بريطانيا

١ - بعد اعتراف ولسون بالحماية ثم اعتراف معاهدة الصلح بها.

٢ - تأثر الثورة المصرية بها.

فلهذين العاملين أثرا في الحكومة البريطانية تأثيرا بليغا بعيد المدى فيما أرى. ولأبدأ بثانيهما قبل الأول لأنه موجز ومجرد تسجيل لحقيقة ولا يحتاج إلى تحليل أو تعقيب وتعليق، بينما العامل الأول قد خلق مشاكل وسلسلة متصلة الحلقات من الأقوال والأعمال والنتائج التي تتابعت في سياق طبيعي ومنطقي، وما أريد

لحلقات السلسلة أن تنفصل عن جوهر الصورة وينقطع البيان.

لا شك في أن اعتراف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر قد أثلج صدر الحكومة البريطانية ذلك لأن مساعيها قد تكللت بالنجاح في الضغط عليه وانتزاع ذلك الاعتراف منه، ولأن هذا الاعتراف نفسه قد قوى يديها وشدد من عزيمتها على المضي في سياستها الاستعمارية في مصر والتمسك بالحماية التي فرضتها قسرا وقهرا وبغيا وعدوانا وعلى الرغم من سابق عهودها ووعودها بالجلاء، وعدم فرض الحماية، وعلى الرغم من الثورة المصرية الشعبية العارمة. وعلى الرغم من كل الاحتجاجات التي صدرت من رجال مصر ونسائها بشتى الأشكال والصور وفي مختلف الظروف والمناسبات.

وأما العامل الأول والأهم فهو الثورة المصرية الشعبية العارمة بطبيعتها وبواعثها وأهدافها فقد هزت الحكومة البريطانية هزا وصدمتها صدمتها وأيقظتها من حلم الطمأنينة الذي نعمت به طويلا بل على الدوام إزاء مصر الوديعة المسالمة الهادئة. أزعجها بصفة خاصة ما امتازت به هذه الثورة من طابع المفاجأة والعنف والتقتيل والتخريب على توسع مطلق، وما تجلى فيها من مشاعر الكره والمقت والحقد على الانجليز وحكمهم وحمايتهم، وما برز فيها من مظاهر النقمة والسخط. وأخيرا وما ذلك بأقل أهمية من كل ما سبق الروح الجديدة التي تجلت في المصريين في أشكال البذل والتضحية بغير رهبة أو تحفظ أو حساب للعواقب الوخيمة

كانت مصر في نظرها بل في عقيدتها ملك يديها فأصبحت مصر شعلة نار لاتنطفئ تكوي يديها وتشوي جسدها وتشوه وجهها. فما العمل الآن بعد أن عملت كل شيء لإطفائها فلم تنطفئ؟ لقد جربت أقوى ما عندها من سلاح ووسائل القتل والتعذيب والتدمير واستخدمت أقصى ما في نفسها من روح الشر والانتقام فما أجداها ذلك نفعا حتى الآن. ثم جربت الإفراج عن زعيمها وصحبه

والسماح للمصريين بالسفر إلى الخارج أملاً منها في تأليف وزارة مصرية وإنهاء الثورة أو تخفيف حدتها على الأقل فباءت بالفشل وخيبة الأمل مرة أخرى، وهكذا لم تنفعها المخاشنة ولا الملاينة. فماذا تفعل الآن؟

من تقاليد الإنجليز المحببة إلى الحكومة البريطانية أنها في كل مشكلة معقدة تواجهها وفي كل أزمة مستحكمة تتخطاها لا تتصل بنفسها مباشرة خشية أن يكون الحل معيقاً يجر إلى عواقب وخيمة، ولذلك فهي تلجأ إلى لجان التحقيق تؤلفها من خيرة رجالها فتتولى كل لجنة مهمة البحث والدرس والتحقيق في الموضوع الذي انتدبت له وتقليب الأمور على مختلف وجوهها. ثم تبدأ عملية الموازنة بين مختلف الاقتراحات للاهتداء إلى أحسن حل ممكن بعد تقدير العواقب قبل وقوعها المباشرة منها وغير المباشرة، وبعد طول التأمل والتدبر والاهتداء إلى أحسن حل تتقدم به اللجنة إلى الحكومة البريطانية. والحكومة بعد ذلك حرة في أن تقبله كله أو بعضه أو تغفل عنه ما تراه من التفصيلات. فالرأي الأخير للحكومة البريطانية على كل حال.

ولاشك أن مزايا هذا التقليد ظاهرة الفوائد فهي على الأقل تعفي الحكومة من سرعة البت وتحميها من الوقوع في الخطأ وتريحها من المشكلة إلى حين حتى تفرغ اللجنة من وضع تقريرها الكامل الشامل المفيد على كل حال.

وهذا بالضبط ما فعلته الحكومة البريطانية في مشكلة مصر، فقد ألفت لجنة ملنر من خيرة رجالها المتنورين العارفين أتم معرفة بمصر قديما وحديثا كما سنرى فيما بعد.

هذا الاستهلال أو هاتان الشخصيتان قد ظهرتا في مجلس بريطاني: سمعنا على لسان وزير خارجية بريطانيا.

ففي يوم ١٥ مايو ١٩١٩ ألقى اللورد كيرزون خطبة في مجلس اللوردات كشف فيها عن التفكير البريطاني وما تنويه الحكومة البريطانية في القريب العاجل.

وفيما يلي أهم ما جاء في خطبته.

بعد أن أشار إلى قرار الإفراج عن الزعيم وصحبه وسفر المصريين إلى الخارج قال «لقد أفضت هذه المنحة إلى تأليف وزارة رشدي باشا وكانت مهمتها الكبرى حض الموظفين على العودة إلى العمل. ولكنها أخفقت فاستقالت في ٢١ أبريل، ومنذ ذلك التاريخ فإن الحكم في مصر يجري بغير معاونة الوزراء المصريين».

ثم تحدث عن اغتباطه واغتباط الحكومة البريطانية باعتراف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر وما سبقه من اعتراف فرنسا وروسيا بها على أثر إعلانها سنة ١٩١٤. وما تضمنته معاهدة الصلح المعروضة على ألمانيا وحلفائها من الاعتراف بها.

ثم قال ومع ذلك لا ينقضي زمن يسير حتى تنال الحماية البريطانية الاعتراف العام من جميع الدول. وزعم أن المصريين لم يجنوا أية فائدة من ثورتهم. وأشار إلى فداحة الأضرار التي أصابت السكك الحديدية وخطوط المواصلات والمصانع والآلات والأملاك العامة وإلى أن الخسارة في ذلك كله واقعة على مصر وأهلها.

ثم تحدى وتبجح فقال: إذا كان الغرض من هذه الثورة وما صحبها من الخسائر الفادحة والأرواح والممتلكات هو إنهاء العلاقة بين بريطانيا ومصر وتحقيق استقلال مصر. فقد باءت هذه الثورة بالفشل لأن الحكومة البريطانية لا تنوي مطلقا أن تتخلى عن الالتزامات والتبعات التي تحملتها عندما وضعت مهمة حكم مصر على عاتقها. وأن هذه الالتزامات والتبعات قد تأيدت الآن بإعلان الحماية على مصر.

ثم نزل من علائه وأظهر العطف المزيف على ما سماه «الأماني المصرية المشروعة في دائرة الحماية» ثم اعترف قائلا إنه لا ينكر أن كرامة المصريين قد جرحت لعدم تمثيل مصر في مؤتمر الصلح مع تمثيل الهند والحجاز فيه،

وبأن منع الوفد من السفر إلى أوروبا للدفاع عن قضية مصر كان من أكبر أسباب الثورة والاضطرابات التي وقعت.

ثم قال أخيرا إن الحكومة البريطانية تعتزم كعلاج لهذه الحالة أن توفد لجنة كبرى برئاسة لورد ملنر إلى مصر لتحقيق أسباب الاضطراب وبحث الحالة الحاضرة واقتراح القانون النظامي الذي يعود على البلاد بالخير والسلام واليسر والنجاح والتقدم في سبيل الحكم الذاتي وحماية المصالح الأجنبية في ظل الحماية البريطانية.

ثم أعرب في ختام خطبته عن ثقته من أن نتيجة أعمال هذه اللجنة ستكون إزالة سوء التفاهم وتثبيت الحماية البريطانية على مصر على قواعد توجب الرضى للدولة الحامية والمصريين على السواء.

نرى أثر العاملين اللذين تحدثت عنهما في نسيج هذه الخطبة ولكن الرواية لم تتم فصولها

تأليف لجنة ملنر

في ٢٣ سبتمبر ١٩١٩ ألفت الحكومة البريطانية اللجنة المخصوصة المنتدبة لمصر على الوجه الآتي:

١- لورد ملنر – وزير المستعمرات رئيسا – وكان مستشارا ماليا للحكومة المصرية في السنوات الأولى من الاحتلال.

٢- سير رنل رود – من كبار رجال وزارة الخارجية وكان سفيرا لبريطانيا في إيطاليا وكان ممن عملوا مع لورد كرومر ممثل بريطانيا في مصر.

٣- سير سيسل هرست – المستشار القانوني لوزارة الخارجية البريطانية

٤- الجنرال سير جون مكسويل – كان قائد القوات العسكرية البريطانية في مصر عند إعلان الحماية.

٥- المستر سير أوين توماس – العضو بمجلس العموم.

٦ – مستر سبندر – رئيس تحرير جريدة وستمنستر جازيت الناطقة باسم حزب الأحرار

٧ – مستر لويد سكرتيرا للجنة.

٨ – سير انجرام مساعد السكرتير للجنة والسكرتير الخاص لرئيس اللجنة.

وتضمن تفويض اللجنة الذي أذيع يوم ٢٣ سبتمبر ١٩١٩ بيانا مهمتها وجاء فيه ما يلي:

«تحقيق أسباب الاضطرابات التي حدثت أخيرا في القطر المصري وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة في تلك البلاد وعن شكل القانون النظامي الذي يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام والنمو والرخاء بها ولتوسيع نطاق الحكم الذاتي فيها تدريجيا ودوام التقدم والترقي ولحماية المصالح الأجنبية».

الرئيس يطلب سكرتيرا من مصر

– أرسل الرئيس خطابا إلى عبد الرحمن فهمي سكرتير اللجنة المركزية في القاهرة جاء فيه:

نحن في حاجة ماسة إلى سكرتير يعرف الانجليزية معرفة جيدة لدرجة أن يكون قادرا على التحرير بها والترجمة منها وإليها

ويلزم كذلك معلمة للمراسلة – قد نحو اختيار الكفء، لذلك وليسافر إلى باريس في أقرب وقت ممكن.

– وقع اختيار عبد الرحمن فهمي على. وكتب إلى الرئيس خطابا أخبره فيه باسمي ووظيفتي ومؤهلاتي العلمية. ورأى أنني كفء وجدير لجميع الصفات التي ترضيكم).

– لم أسافر: لأن عبد الرحمن فهمي علق سفري على موافقة الرئيس النهائية على هذا الاختيار.

بعد أسبوعين أرسل برونيير إليه خطابا ثانيا جاء فيه:

«إن الأمر محتاج أشد الاحتياج إلى مترجم يحسن الإنجليزية والعربية وعلمت أنكم وفقتم لوجود من تتوافر فيه هذه الصفات وفهمت أنكم على وشك إرساله فعلا إلى مصر؟ وقد أرسلت إلى محمود باشا سليمان تلغرافيا عن ضرورة سرعة إرساله».

عندئذ كلفت بالسفر فورا إلى باريس، واعترف لي عبدالرحمن فهمي أنه أخطأ في تأجيل سفري.

- وفي ٢٧ نوفمبر وصلت إلى باريس وذهبت فورا لمقابلة البرنس في مسكنه ٣٦ شارع الشانزليزيه، وكان الجو شديد البرودة وحجرته شديدة الحرارة بالمدفأة، وقد بدت عليه شيخوخة متقدمة ومازال يشكو من إصابته بالانفلونزا شهرا كاملا فاهتزت نفسي إلى أعماقها من فرط التأثر برأي همته النافذة وقلبه الصوفي أن خفف ما بي من عناء السفر، والترحيب الكريم وقد سجلت ما جرى في هذا اللقاء في مقال لي نشرته مجلة الثقافة

- أرسل البرنس خطابا إلى عبدالرحمن فهمي في ٨ ديسمبر ١٩١٩ جاء في مطلعه «حضر السكرتير ونشكركم كثيرا على حسن اختياركم. وجاء فيه «المورننج بوست» الإنجليزية أخذت من بضعة أسابيع تنشر الفصول الطوال عن الحوادث الجارية في مصر وقد أعددنا أيضا كتابا مفتوحا إلى اللورد كيرزون عما قاله في مجلس اللوردات متعلقا بمصر ومستقبلها كما أعددنا احتجاجا آخر عليه بهذا المعنى»



وصول لجنة ملنر

وصلت لجنة ملنر إلى مصر في صباح الأحد ٧ من ديسمبر سنة ١٩١٩ واتخذت السلطات العسكرية البريطانية كل أنواع الاحتياطات للمحافظة على سلامة أعضائها ومعاونيهم من روح العداء المتحفز والسخط البالغ المتدفق في نفوس هذه الأمة ورتبتها التي اتخذت لها فندق سميراميس مقرا ومستقرا.

وزار أعضاء اللجنة في اليوم التالي ومرافقيهم السلطان فؤاد وسمعوا منه بعض التوصيات فيما يختص ببعض كبار المصريين الذين يمكن الاعتماد على أصالة رأيهم مثل رشدي باشا وعدلي باشا ومحمد سعيد باشا ورئيس الوزارة المعاصرة يوسف وهبة باشا الذي يمكنهم الاعتماد على معاونته كل الاعتماد.

ولم يكد يذاع نبأ وصول اللجنة إلى القاهرة حتى عم هياج النفوس وتوافرت الأدلة لدى بعض أعضاء اللجنة ورئيسهم على تصميم المصريين على مقاطعتهم مقاطعة تامة. وانهالت على ملنر البرقيات من جميع المدن والقرى معلنة الاستنكار لقدوم لجنته إلى القاهرة وعزم مرسليها على الإضراب احتجاجا وسخطا واشتركت جميع مدارس البنات وكثيرون من موظفي الحكومة والنقابات والعمال والعلماء وكتبت الجرائد المصرية رغم الرقابة الشديدة على الصحف معلنة أن كل مصري تكون له أية علاقة بأعضائها يرتكب خيانة للوطن واتفقت كلمة الجرائد كلها على أن الرئيس سعد زغلول باشا المقيم في باريس

هو الوكيل الذي أنابه الشعب المصري عنه، فالأولى باللجنة مفاوضته في الأمر.

وعم الإضراب جميع المدارس والمحاكم حتى عمال الترام.

وكان فريق من الشعب يخرج في مواكب صاخبة ويطوف الشوارع بالهتاف والدعاء لسعد باشا والوفد والاستقلال التام لمصر، ولم تقتصر هذه المظاهرات على الشباب والرجال بل شاركتهم فيها سيدات القاهرة فيخرجن من حجابهن وركبن المركبات وطفن الشوارع وهن يرددن الهتاف بحياة الوفد وسقوط لجنة ملنر. وخروج السيدات في مثل هذه المواكب أمر غير مألوف في مصر التي يسود فيها الحجاب وعدم الاختلاط بين الجنسين. وهكذا كان لهذه الثورة القومية أعظم المفعول وأبلغ الأثر في تحرير المرأة المصرية في سرعة عجيبة.

ومضى على هذه الحال أسبوع فأسبوعان، ثم وقعت مصادمات دموية بين الشعب وبعض الجنود البريطانيين الذين أطلقوا النار على المتظاهرين وقتل من هؤلاء الجنود جماعة في يوم واحد. كما حدثت محاولتان لاغتيال رئيس الوزراء وأحد الوزراء.

ومما هو جدير بالذكر أن علماء الجامع الأزهر الشريف وضعوا منشورًا كان له دوي كبير في البلاد وأرسلوه إلى ملنر بينوا فيه حق مصر في طلب الاستقلال وفي طلب إلغاء الحماية، وألحوا في عبارات قوية على ضرورة الجلاء وخروج الإنجليز من البلاد، وقد زعمت الجرائد الإنجليزية أن علماء الأزهر اضطروا إلى إصدار هذا المنشور تحت ضغط طلبة الأزهر وطلبة المدارس العليا وهذا غير صحيح. ثم تلا هذا المنشور منشور آخر أشد وقعًا وأبعد أثرًا وكان له أجمل الوقع في نفوس المصريين وأسوأ الوقائع في نفوس البريطانيين، ذلك هو منشور الأمراء، فقد وقع عليه ستة منهم* وقد تعرضوا في ذلك إلى غضب السلطان والإنجليز معًا. وقد زعمت جرائد لندن كذلك أن السبب الحقيقي في

* كمال الدين - ... - عمر طوسون - يوسف كمال - اسماعيل داود - محمد علي ابراهيم وحسن ...

مسلك هؤلاء الأمراء هو رغبتهم في كسب حب الشعب المصري لهم بانضمامهم إلى الحركة الوطنية والثورة القومية التي عمت البلاد كالسيل الجارف.

وقد أقام المصريون عددا منهم لمراقبة تنقلات أعضاء لجنة ملنر ومحاولاتهم الاتصال بوجهاء المصريين للوقوف منهم على قيمة الطلب المتواضع للاستقلال التام والعلني الدائم في الحماية. هكذا فرضت جموع الشعب الحوض الكامل وراء هذه المراقبة. وأخيرا شعرت اللجنة بأنها تحت مراقبة حراس خفيين من المعارضين. فلم يحضر مصري واحد ذو شأن لزيارتها في فندق سميراميس بل إن جماعات من الطلبة كانوا يسهرون على تحركات ملنر وأعضاء لجنته فما سافر واحد منهم إلى أي مكان خارج القاهرة إلا كان اثنان من الطلبة يصاحبانه كظله. شعر بذلك أو لم يشعر.

ومع ذلك استطاع عدلي ورشدي وثروت أن يقابلوا في منازلهم ملنر وبعض أعضاء لجنته. ولكن المعروف والمفهوم أن هؤلاء الثلاثة أصدقاء لسعد باشا زغلول. وأنهم كانوا يصارحون ملنر وزملاءه في مفاوضة الوفد في باريس وإقناعهم بأنه من العبث تضييعهم لأوقاتهم في مصر بدون عمل جدي مفيد..

لتمضي الأسابيع الثلاثة على ملنر ولجنته في مصر. وهم يحاولون تحطيم هذه المقاطعة الشاملة دون جدوى والخروج من هذا الحصار المضروب حولهم. فأقدم ملنر على محاولة أخرى حل فيها الحيرة له وذلك بإفهام الشعب أن من بنود اللجنة. فزيارته لا تؤثر في مشكلته ولا تلقي ظلالا على وطنيته.

فما هي هذه المحاولة؟

تصريح لجنة ملنر

نشرت الجريدة الرسمية وجميع الجرائد المصرية في ٢٩ ديسمبر التصريح الآتي:

جاءت اللجنة البريطانية إلى مصر فأدهشها ما رأته من الاعتقاد الشائع

بين الجمهور بأن الغرض من مجيئها هو سلب شيء من الحقوق التي كانت لمصر إلى اليوم. فاللجنة تعلن فساد هذا الاعتقاد وأنه لا نصيب له من الصحة البتة، وأنها إنما أوفدتها الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطاني لغرض واحد التوفيق بين أماني الأمة المصرية وبين ما لبريطانيا العظمى من المصالح الخاصة في مصر مع المحافظة على الحقوق المشروعة التي لجميع الأجانب القاطنين فيها، وأن اللجنة لعلى يقين من أنه إذا توافر حسن النية وصدق الإخلاص بين الناس يصبح من الميسور تحقيق هذه الغاية وأنها لترغب رغبة أكيدة في أن تكون الصلات بين بريطانيا العظمى ومصر أساسها الاتفاق وحتى يستأصل كل سبب للتنافر فيتمكن المصريون من أن يفرغوا جهدهم في ترقية شئون بلادهم في ظل أنظمة حكم ذاتي.

وللوصول إلى هذه الغاية تود اللجنة أن تقف على آراء الهيئات المختصة للأمة المصرية وآراء الأشخاص الذين يهتمون اهتماما صادقا بخير بلادهم وتمكين كل فرد من إبداء رأيه بغاية الصراحة وبغاية الحرية. إذ ليس من غرض اللجنة تقييد الآراء أو المناقشة بقيد ما أو حصرها في دائرة معينة. وهي تعلن أن الدخول في المناقشة لا يعتبر اعترافا بمبدأ أو تنازلا عن رأي من قبل اللجنة أو من قبل المناقشين لها. وأن حرية المناقشة شرط أساسي للنجاح وبغيرها يتعذر رفع سوء التفاهم والوصول إلى الاتفاق.

ملنر

رد اللجنة المركزية للوفد

ونشرت لجنة الوفد المركزية بالقاهرة في اليوم التالي أي في ٣٠ ديسمبر الرد التالي:

«كانت لجنة الوفد تود أن يكون بلاغ اللورد ملنر صريحا واضحا وأن يتضمن

الاعتراف باستقلال مصر التام. لكنه اقتصر على توسيع دائرة المناقشة فبعد أن كانت المفاوضة التي تطلبها اللجنة محصورة في دائرة الحماية أباح الإبلاغ المفاوضة في غير دائرة محددة. مع أن توسيع دائرة المناقشة يدل على اقتناع الإنجليز بأن المصريين يرفضون الحماية رفضاً باتاً. ولكن لا ينفي مخاوف المصريين من التصريحات السياسية الإنجليزية التي تقدمت مجيء اللجنة. وليس من شأنه بحال من الأحوال أن يحمل الأمة على العدول عن خطتها. وفضلاً من ذلك فإن الأساليب السياسية لا تسمح بمفاوضة بين لجنة وأمة بأسرها.

ولما كان الغرض الوقوف على مطالب المصريين فإن هذه المطالب أصبحت معروفة معرفة تامة في جميع أنحاء العالم، وهي تنحصر في شيء واحد هو الاستقلال التام. وأما التوفيق بين استقلالنا وبين ما لغيرنا من المصالح فالمناقشة فيه تكون مع الوفد المصري متى كان الأساس عدم المساس بحقوقنا المقدسة.

فلتحيى مصر، وليحيى الاستقلال التام

التمهيد للمفاوضات

في مساء هذا اليوم نفسه ٣٠ ديسمبر تسلم الزعيم سعد زغلول برقية من عدلي يكن باشا يرجو فيها ألا يبت في قرار بشأن تصريح لجنة ملنر حتى يصله خطاب منه، ولم يكن لدى الزعيم ولا أي عضو في الوفد علم وقت ورود هذه البرقية المهمة بما نشر في مصر من جانب لجنة ملنر أو من جانب لجنة الوفد المركزية، فاجتمع الوفد وأخذ كل عضو يدلي بتخمينه في هذا الموضوع، وكان الجو يسوده الانتعاش والتفاؤل.

وردت ظهر اليوم ٣١ ديسمبر برقية مسهبة مطولة من لجنة الوفد المركزية إلى الزعيم سعد زغلول تحتوي على نص التصريح الرسمي للجنة ملنر وردها

عليه. عرض العرض وزاد تعلق الوفد ورئيسه إلى الخطاب الموعود من عدلي الذي سارع ببرقيته في منع الوفد من اتخاذ قراره الحاسم ولكن بعض الأسئلة تفرض نفسها هنا وتصرخ بطلب الجواب.

١ - لماذا اهتم عدلي دون سواه بإرسال مثل هذه البرقية إلى الوفد؟

٢ - ما هو السر في مسارعته هذه بإرسال البرقية ورجاء الوفد بعدم اتخاذ أي قرار بشأن بلاغ أو تصريح لجنة ملنر حتى يتسلم الوفد خطابا منه؟

٣ - هل حصل عدلي على رد لجنة الوفد المركزية على تصريح لجنة ملنر؟

٤ - ما سبب عدم رضاه حتى رأى من الصواب ألا يتورط الرئيس والوفد بتأييد ذلك الأمر؟

٥ - وأخيرا هل يريد عدلي أن يكون قنطرة بين الوفد ولجنة ملنر. أي يكون همزة الوصل بينهما؟

أسئلة تمر بالخاطر ولم يبد لي عليها أي جواب الآن. فإلى أن يصل الخطاب المنشود المعلوم أسجل هنا أهم ما نشرته كبرى جرائد لندن مثل التيمس والمورننج بوست والوستمنستر جازيت والديلي تلغراف عن مقاطعة لجنة ملنر في مصر وعن الحالة العامة في مصر.

زعمت كل جرائد لندن أن تصريح لجنة ملنر قد خفف من نفوس المصريين منها وخفف من عداوتهم للجنة ومقاطعتهم لها وأن بعض كبار المصريين قد أخذوا يتصلون بها وأخذت اللجنة تتصل بهم. وأن أعضاء اللجنة متفرقين قد بدأوا اتصالاتهم بممثلي جميع الطبقات والهيئات المصرية لمعرفة آرائهم ومشاعرهم.

إن السلطات البريطانية في مصر قد وضعت تحت تصرف اللجنة مجموعة هائلة من البيانات والمعلومات عن الشئون المصرية وآراء كبار الوطنيين والأعيان

في المسائل السياسية مما ساعد اللجنة على تكوين فكرة صحيحة في مصر في الوقت الحاضر وما يجب أن يعمل لها في المستقبل.

اطلعت اللجنة على آراء الغرف التجارية الفرنسية والإيطالية واليونانية والبريطانية وكبار الشركات الأجانب والوزراء السابقين والحاليين.

إن اللجنة استفادت كثيرا من آراء عدلي باشا ورشدي باشا وثروت باشا

ونشرت جريدة التيمس مقالا افتتاحيا كله ثناء وتقدير لهؤلاء المصريين الثلاثة ووصفتهم بالنصح والحصافة وسلامة القصد وبعد النظر وحسن الاستعداد للتفاهم والاتفاق. كما وصفت اقتراحاتهم بأنها عملية ومقبولة وجديرة بكل اعتبار.

إن علي ماهر بك الذي فصل من قبل من منصبه الحكومي وقرر الوفد ضمه إلى عضويته في شهر نوفمبر الماضي سيسافر قريبا إلى باريس. ومعه بعض الوثائق الهامة التي ستكون موضع دراسة خاصة من زغلول باشا والوفد.

وصول علي ماهر إلى باريس

وصل علي ماهر بك إلى باريس يوم ١٩ يناير سنة ١٩٢٠ ومعه خطابان الأول من لجنة الوفد المركزية وصفت فيه الحالة العامة في البلاد وشرحت رأيها بالتفصيل في تصريح لجنة ملنر، والثاني من الأصدقاء الثلاثة عدلي وثروت ورشدي وبرفقة خطابهم تقرير شامل عن المحادثة التي دارت بين كل منهم وملنر وقد ألح هؤلاء الأصدقاء الثلاثة على الوفد في أن يعودوا فورا إلى مصر للمفاوضة مع لجنة ملنر معتبرين أن بلاغها قد فتح الباب على مصراعيه للدخول فيها وأن الفرصة سانحة جدا لهذا الدخول، وأن مصر يرجح كل الترجيح عودة الوفد كله أو بعض أعضائه. وقد أيد عدلي في بيان رأيه أن هذه العودة ضرورية إذا تم تكن المفاوضة مباشرة لمبادلة الآراء في مضمونها وشروطها.

وبعد أن درس الوفد تفصيلات المحادثات والأدلة التي أوردها على استحسان عودته. قرر بالإجماع رفض هذه العودة وعدم الأخذ برأيهم فيها، ذلك لأن تصريح لجنة ملنر لا يختلف عن غيره من البلاغات والبيانات الرسمية السابقة له والمحددة لمهمة لجنة ملنر اللهم إلا في الشكل فقط. أما من حيث الموضوع فإنه مثلها تماما في اعتبار لجنة ملنر لجنة تحقيق وموقف المصريين منها موقف المسئول أو المسألة والغاية التي تهدف إليها من نتيجتها هذا هو وضع نظام لحكومة مصر في دائرة الحماية البريطانية.

وأرسل الرئيس سعد زغلول يوم ١٥ يناير، برقية إلى عدلي باشا أوضح فيها بعد بيان ما تقدم عدم إمكان عودة الوفد إلى مصر لهذه الغاية ولكنه يقبل أن يعود إذا أعلنت لجنة ملنر أنها مأذونة من قبل حكومتها لأن تتفاوض باسمها مع الوفد المصري بصفته وكيلا ممثلا للأمة المصرية للوصول إلى عقد اتفاق بين مصر وبريطانيا يوفق بين استقلال مصر ومصالح هذه الدولة. ثم شفع هذه البرقية بخطاب تضمن فوق ذلك أن عودة الوفد كله أو بعضه بناء على هذا التصريح بعد خفة في نظر العقلاء ويسود وقعه لدى الشعب المصري الذي قاطع لجنة ملنر عملا بنصيحة الوفد ومادام أن الغاية من المفاوضات التي ترغب فيها هذه اللجنة الوصول إلى وضع نظام حكومي في دائرة الحكم الذاتي وتحت الحماية فلا يمكن للوفد الدخول فيها لأن غاية ما تعطيه أقل كثيرا مما يطالب الوفد وتطمح الأمة فيه.

كان يجب أن تنتهي المراسلات عند هذا الحد ذلك لأن في الموقف ثلاث حقائق تسيطر عليه:

الحقيقة الأولى: أن مهمة لجنة ملنر معينة محددة بنص التفويض الذي صحب إنشاءها وهو تحقيق أسباب الاضطرابات التي حدثت أخيرا في مصر وتقديم تقرير الحالة الحاضرة في تلك البلاد. وعن شكل القانون النظامي

الذي يعد تحت الحماية غير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتي فيها توسيعاً دائم التقدم والترقي ولحماية المصالح الأجنبية.

الحقيقة الثانية: أن مهمة الوفد معينة محددة وهي السعي لإلغاء هذه الحماية وتحقيق الاستقلال التام، والوفد هو الهيئة الوحيدة الممثلة للشعب المصري أكمل تمثيل بحكم الاستفتاء العام الذي حققته التوكيلات الشعبية التي حصل عليها.

الحقيقة الثالثة: هي أنه ليس في استطاعة لجنة ملنر أن تخرج من دائرة التفويض الذي عين مهمتها وحدد لها العمل في دائرة الحماية. وليس في استطاعة الوفد أن يخرج من دائرة التوكيلات المكتوبة والأهداف المعلنة مراراً وهي تسليم هذه الحماية وإزالتها وتحقيق الاستقلال التام.

فالموقف واضح ومشروح الخصم في رابعة النهار ولا سبيل إلى مفاوضة بين طرفين لا يهدفان إلى غرض واحد، بل يهدفان إلى غرضين مختلفين متناقضين لا سبيل إلى التوفيق بينهما. ولكن عدلي لم ييأس ولم يسكت وبعض أعضاء الوفد مع ذلك متفائلين حتى يجب التشاؤم..

الخطاب الثاني من عدلي إلى سعد

تسلم الرئيس سعد زغلول يوم ٢٨ من يناير ١٩٢٠ خطاباً مطولاً من عدلي يكن باشا وقد جاء فيه: «إن امتناع ملنر عن التصريح بأن تكون المفاوضة على أساس الاستقلال إنما يرجع إلى أن الاستقلال في نظر اللورد ملنر إنما يكون نتيجة للمفاوضات لا أساساً للتفاوض عليها». كانت هذه العبارة موضعاً للتندر والفكاهة والسخرية على لسان الرئيس وبعض الأعضاء وقال ساخراً: إن حصل ملنر أن يكون الاستقلال نتيجة ولا يقبله أساساً فما الفرق بين الحالين؟!.

وما لبث النكر كذلك أن جنح في خطابه هذا فعاد مرة أخرى إلى القول بأنه

وزميليه رشدي وثروت باشا: إلى المصريين على الرأي الذي سبق أن بينوه في خطابهم الأول. وكرر أن تصريح لجنة ملنر لم يحقق دائرة المناقشات ولم يحدد النقطة منها. وذكر بأن الوفد فهم خطأ أن اللجنة تهدف إلى وضع نظام حكومي في حدود الحكم الذاتي وأن هذا لو كان صحيحا كانت أحاديثهم مع ملنر مبنية على غير أساس سليم. ولما جاء نقضها إلى الرئيس والوفد، وختم عدلي خطابه بأن الذي أكده ملنر لهم أثناء المناقشة معهم في هذا الموضوع أن العبارة الإنجليزية Self Governing Institutions ليس معناها الحكم الذاتي وإنما معناها الحكومة الدستورية.

كان الرئيس يقرأ هذا الخطاب في جلسة الوفد بصوت عال كنت حاضرا فتطوعت قائلا إن هذا غير صحيح لأن الحكومة الدستورية يقابلها في الإنجليزية Constitutional Government وتفضل محمد محمود باشا فأيدني فيما قلت فابتسم الزعيم وقال: «ما علينا الآن وإنما يهم أن نحدد موقفنا ونعرف ما يجب علينا عمله إزاء هذا الخطاب.

وهنا دارت مناقشة استمرت نصف ساعة واشترك فيها أكثر الأعضاء وأسفرت عن أمرين:

الأمر الأول: ضرورة استمرار الاتصال بعدلي عن طريق البريد والبرق عسى أن يثمر وساطته عن خير للبلاد لاسيما وأنه على ما يظهر قد وطد صلات متينة بملنر ورجال لجنته.

الأمر الثاني: ضرورة السعي للتخلص من الوزارة المصرية الحالية التي يرأسها يوسف وهبة باشا وتمهيد الطريق لإقامة حكومة دستورية، ورئي أن أفضل سبيل للوصول إلى هذه الغاية هو أن تجيء وزارة جديدة يكون في برنامجها المفاوضة للحصول على اتفاق يضمن التوفيق بين استقلال مصر والمصالح البريطانية ثم وضع نظام لانتخاب هيئة نيابية تعرض عليها نتيجة المفاوضات للنظر فيها والتصديق عليها.

استقر رأي الوفد على عدم الأمرين، وما كان ذلك ممكنا أو ميسورا لولا ما كان للرئيس سعد وزملائه من حسن الظن بعدلي لا سيما بعد خروجه من رشدي وأوبته إلى العمل بعد اعتزاله إياه زمانا طويلا. هذا من جهة ومن جهة أخرى فاشتداد الكراهية لوزارة هذا العهد ونفور الأمة منها وسخطها عليها.

خطاب وبرقية من الوفد إلى عدلي

أرسل الوفد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٢٠، خطابا مسهبا إلى عدلي شرح فيه تغيير الوزارة الحاضرة وإقامة وزارة تعهد بضمانة برلمانية. وحرص الوفد على أن ينص في هذا الخطاب على أن أحدا من أعضاء الوفد لا يشترك في هذه الوزارة وأن الوفد قد يرى أسرعية العودة إلى مصر إذا تم تأليف الوزارة الجديدة على النحو المقترح. وإذا كانت أهدافها في الحكم كما وصفنا حينذاك تكون لعودة الوفد معنى مساعدة الوزارة على القيام بمهمتها لدى الأمة والسعي في أن ينتخب أعضاؤه في الهيئة النيابية. هذا وقد وردت في هذا الخطاب العبارة الآتية

وإذا كان لورد ملنر لا يريد كما أعلنتم في خطابكم المؤرخ يوم ٢٨ يناير أن يكون الاستقلال أساسا للمفاوضات لأنه يراه نتيجة لها لا أساسا تبنى عليه فقد رأينا ضرورة النص في برنامج الوزارة الجديدة على هدف الاستقلال. وهذا بطبيعة الحال لا يربط أحدا غيرها. ومن الخير أن يرتبط به الوزراء حتى يكونوا أول قصدهم وأكبر همهم.

هنا جلت وجهي ابتسامة دهشة لأني وجدت الفكرة أبلغ في الغرابة أولا لأنها لن تكون لها أية قيمة عملية سوى ذر الرماد في عيون المصريين، وثانيا لأن لجنة ملنر لن تقيم لها أي وزن لتعارضها مع التفويض الذي قامت على أساسه.

هذا وقد أفضيت برأيي للرئيس بعد انصراف الأعضاء فقال هذا صحيح. ولكن ما حيلتي، أن الأعضاء متهافتون على فتح أبواب الأمل في وجه ملنر. أما أنا

فلا أرى في ملنر أي خير ينتظر منه. ولكني أعرف أنه استعماري قح، ثم استطرد الرئيس قائلاً: ظهر الخير بسببه في قومه. لكن سببه قومه المتناهي.

وأرسل الرئيس في المساء برقية إلى عدلي جاء فيها: إن الوفد مازال متمسكاً برأيه في موضوع عدم العودة إلى مصر. انتظر خطابي.

الخطاب الثالث من عدلي إلى سعد

تسلم الرئيس سعد زغلول يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠ خطاباً ثالثاً من عدلي ذكر فيه أن ملنر يقترح تشكيل لجنة مصرية للمفاوضة معه تكون مكونة من ثمانية: رئيس الوفد ومعه اثنان من أعضاء الوفد ورشدي باشا وعدلي باشا ومحمد سعيد باشا واثنان من الوزراء الحاليين وأن يكون برنامج هذه اللجنة المفاوضة للتوفيق بين أماني المصريين والمصالح البريطانية، وقد حرص عدلي أن يبين في خطابه أنه عارض ملنر في تأليف هذه اللجنة على هذه الصورة، وأنه حبذ رأي الوفد في تأليف وزارة جديدة للعمل على تحقيق الأماني الوطنية وتثق بها الأمة ويعتبر ذلك الوسيلة القانونية الوحيدة للوصول إلى الغاية المنشودة، وكان عدلي لبقاً بالمفاوضة وحدها، وبوضع النظام الدستوري للبلاد، وأنه يرى أن يكون هذا كله باشتراك الوفد معها، وأن طريقة العمل في ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعي إلى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح البريطانية والأجنبية ووضع مشروع نظام دستوري للبلاد، ثم تعهد بالمفاوضة إلى هيئة تضم بعضها من أعضاء الوزارة وبعضها من أعضاء الوفد ثم تنتخب جمعية وطنية بأوسع طرق الانتخاب لبحث نتيجة المفاوضات ومشروع الدستور، وأنه من المستحسن أن يدخل في الوزارة أعضاء الوفد قبل البدء في الانتخابات لهذه الجمعية الوطنية.

هذا وقد جاء في ختام الخطاب فقرة على أعظم جانب من الأهمية إذ قال: «إن هناك طريقة أخرى لحل المسائل المعلقة وهي أن يسافر إلى باريس ويجتمع بالوفد ويتحدث معه شخصيا وبطريقة غير رسمية، حتى إذا ما أدت هذه المحادثات إلى وضع أسس المفاوضات مع الانجليز بدأت هذه المفاوضات في غير ضياع كثير من الوقت.

ويختم عدلي خطابه اللبق بالجملة الآتية: «رأيت أن أسألكم رأيكم في هذه الطريقة. فإذا كنتم ترون فائدة من وجودي معكم في باريس اتخذت ما يلزم من التدابير لذلك».

عودة لجنة ملنر إلى انجلترا

مكثت لجنة ملنر في مصر حوالي ثلاثة أشهر وهي تدرس بوسائلها الخاصة الطويلة أحوال البلاد عامة وأسباب الثورة خاصة. ولولا الصحافة أو العناد لاعترفت بأنها فشلت في مهمتها فشلا ذريعا. ذلك أن المقاطعة الشعبية معها كانت شاملة وتامة. واستحال على ملنر التعاون الجدي إلا مع عدلي ورشدي وثروت. واستحال على ملنر التعاون الجدي إلا مع عدلي ورشدي وثروت. ولاسيما مع عدلي الذي كان معروفا من الشعب أنه على اتصال وثيق بالوفد في باريس. وصديقا للزعيم سعد وكثير من أعضاء الوفد.

وغادرت اللجنة مصر في الأسبوع الأول من مارس، عائدة إلى انجلترا في حين أما ملنر فقد سافر من القاهرة إلى القدس في صبيحة يوم ٦ مارس ١٩٢٠ في رحلة لزيارة فلسطين. ثم عاد إلى الاسكندرية وأبحر منها يوم ١٨ مارس إلى انجلترا.

وفي ٢ مارس، أرسل الزعيم سعد زغلول برقية إلى عدلي أبلغه فيها بأن الوفد يكون سعيدا برؤيته في باريس والاجتماع به.

اجتماع الجمعية التشريعية

في ٩ مارس ١٩٢٠، اجتمعت الجمعية التشريعية في منزل الرئيس سعد زغلول وقد كانت معطلة رسميا منذ أكتوبر سنة ١٩١٤ فلم يكن في الإمكان عقد جلستها في مقرها الرسمي وأصدرت القرارات الخطيرة الآتية:

١ - أن الجمعية التشريعية تعتبر الحماية التي أعلنتها انجلترا من تلقاء نفسها على مصر عملا باطلا لا قيمة له من الوجهة القانونية.

٢ - تقرر الجمعية أن البلاد المصرية التي تشمل مصر والسودان مستقلة استقلالا تاما وفاقا لقواعد الحق والعدل والقانون، وكل مظهر من مظاهر اعتداء القوة على هذا الاستقلال لا يؤثر في وجوده من الوجهة القانونية وليس من شأنه إلا أن يزيدنا تمسكا به.

٣ - تحتج الجمعية على تعطيلها، وعلى كل القوانين والنظم التي وضعت في أثناء تعطيلها لصدورها من غير عرضها عليها.

٤ - تحتج على كل الاعتداءات التي أصابت البلاد وأبناءها سواء كان الاعتداء واقعا على النفس أو على المال أو على أي نوع من أنواع الحرية

٥ - تحتج على البدء في مشروعات الري في السودان وتطلب وقف هذه المشروعات وقفا تاما حتى يبت في المسألة المصرية ويعرض الأمر على الهيئة النيابية التي تمثل البلاد بجميع أجزائها وذلك للأسباب الآتية

ا) لأن مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة، وكل مشروع يتعلق بهما لا يجوز تنفيذه قبل أن توافق الأمة عليه

ب) لأن هذه المشروعات لم تلاحظ فيها مصلحة السودان منفردا ولا مصلحة مصر وحدها ولا مصلحة الاثنين معا. وقد قامت عليها اعتراضات فنية واقتصادية وسياسية وصحية، من كثيرين ومنهم رجال من الانجليز ذوي المكانة الذين أثبتوا أن هذه المشروعات ضارة بالبلاد وأنه لم يقصد بها سوى

مصلحة الأجنبي وحماية أصحاب رؤوس الأموال والشركات من الانجليز.

٦ – تقرر أن كل عمل قامت أو تقوم به الهيئة الحاكمة ويكون فيه مساس بالاستقلال التام لمصر والسودان أو مصالحهما يعد لغوا ولا يلزم الأمة في شيء فالأمة وحدها هي صاحبة الشأن في تقرير كل ما يتصل بأمورها الحاضرة والمستقبلة.

٧ – تقرر الجمعية إبلاغ هذه القرارات إلى الجهات الآتية:

الوفد المصري في باريس ورئاسة مجلس الوزراء وقناصل الدول في مصر والصحف المصرية ومكاتبات الصحف الأجنبية خارج مصر وسكرتيرية الجمعية التشريعية لحفظها في سجلاتها.

٨ – إرسال برقية إلى رئيس الوفد المصري بباريس لتشكر الوفد على ما قام به من الأعمال

تلي المحضر وصدق عليه وانتهت الجلسة حين كانت الساعة السابعة والدقيقة ٤٥ مساء.

وقعها بالإمضاء جميع الأعضاء الحاضرين

إبراهيم سعيد باشا – حسين واصف باشا – قليني فهمي باشا – راغب عطية بك – فتح الله بركات باشا – حسين هلال بك – حسن سيف الله – الدكتور محمد لطفي بدر الدين – محمود الأتربي باشا – السعدي بشارة الطحلاوي بك – عمر مراد بك – متولي عزيز بك – عمر خلف الله بك – إبراهيم علي بك – محمد محمود بك – حفني منصور بك – محمد علام بك – علي المنزلاوي بك – محمد رشوان الرمر بك – إسماعيل أباظة باشا – الشيخ محمد شاكر – محمد السيد أبو علي باشا – عبد الرحمن عوض بك – الشيخ عبد الفتاح الجمل – علي شعراوي باشا – حافظ المنشاوي باشا – أمين سامي باشا – منصور يوسف بك – يوسف أصلان قطاوي باشا – زكريا نامق بك – عبد السلام

الهلباوي بك - محمد كمال أبو جازية بك - المنفلوطي بك المنفلوطي - إبراهيم نوار بك - علوي الجزار بك - محمد أمين أبو سنتيت بك - محمود همام بك - محمد محفوظ باشا - عبد الرحمن محمود بك - ميخائيل لطف الله بك - محمد المنياوي بك - محمد علي سليمان بك - حسن الشريعي بك - محمد عبد الخالق مدكور باشا.

والمتغيبون عن حضور هذه الجلسة هم:

أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية - طلبة سعودي باشا - محمد شريعي بك - مرقص سميكة باشا - محمد عثمان أباظة بك.

انزعجت السلطات البريطانية في مصر انزعاجا شديدا من صدور هذه القرارات من أكبر هيئة تمثيلية في البلاد، واخشيت عاقبتها مما عسى أن يكون من آثارها في البلاد لا سيما بعد إعلانها صراحة بطلان الحماية وإعلان الاستقلال التام.

وعلى الأثر أصدر لورد اللنبي المندوب السامي البريطاني أمرا عسكريا في ١٦ مارس ١٩٢٠ بمنع اجتماعات الجمعية ومنع اجتماع كل هيئة تمثيلية في غير الأوضاع المقررة في القوانين واللوائح.

وهذا نص هذا الأمر العسكري:

«أنا الموقع أدناه أدموند هنري فيكونت اللنبي بمقتضى السلطة المخولة لي بصفة كوني فيلد مارشال قائدا عاما لقوات جلالة الملك في القطر المصري، آمر وأعلن ما يأتي:

«ممنوع كل اجتماع للجمعية التشريعية أو لأي مجلس مديرية أو لأي هيئة منتخبة، وكل اجتماع من أعضاء تلك الهيئات بصفتهم أعضاء فيها، ما لم يكن ذلك بمقتضى الشروط المنصوص عنها في القوانين أو اللوائح الخاصة بها ويشمل هذا المنع كل اجتماع من هيئتين أو أكثر من الهيئات المتقدمة، ومن أعضاء

هيئتين أو أكثر من تلك الهيئات بصفتهم أعضاء فيها ما لم يكن مرخصاً بهذا الاجتماع ترخيصاً صريحاً بمقتضى القانون.

وكل مخالفة للأحكام المتقدمة تقع تحت طائلة الأحكام العسكرية وكل قرار تتخذه أو توافق عليه إحدى الهيئات المنتخبة في أي موضوع خارج عن اختصاصها يكون ملغياً ولا يعمل به. وجميع الأعضاء الذين يكونون قد وافقوا على ذلك القرار يكونون عرضة للمحاكمة أمام مجلس عسكري.

فيلد مارشال

اللنبي

الخطاب الرابع من عدلي إلى سعد

وصل ظهر اليوم ١٠ من مارس الخطاب الرابع من عدلي إلى الزعيم سعد زغلول بخطه يقول إنه تكلم مع ملنر قبل سفره من القاهرة بشأن ما عرضه الوفد من تأليف وزارة تمهد لوضع نظام دستوري للبلاد. فقال ملنر: إن الفكرة لا بأس بها. ولكنني لا أرى من المصلحة تغيير الوزارة الحاضرة في هذه المرحلة وذلك لأنه إذا شكلت وزارة مهمتها مقصورة على المفاوضة واعترضت هذه المفاوضة صعوبات قد يكون من نتائجها سقوط هذه الوزارة بينما أعضاء كل وزارة يجب أن يكونوا مسئولين عن إدارة شئون البلاد ويجب ألا يكونوا عرضة للتخلي عن خدمتها لمجرد أشكال يمكن أن يحل فيما بعد. واستعمل في تقريب هذا المعنى عبارة انجليزية.

فقد عدلي للنشر لم يبق إذن سوى حل واحد وهو أن نتفاوض مع الوفد.

ويختم عدلي خطابه الطويل بالعبارة الآتية.

«إني بعد التفكير والمشاورات رأيت أن فكرة تشكيل وزارة جديدة قبل الدخول في المفاوضات لا تخلو من بعض المحظورات. إذ لا يخفى عليكم أن وزارة تشكل الآن

والصحابة قاتمة. والسلطات الانجليزية متغلغلة في البلاد ومسيطرة تماماً على جميع المصالح الحكومية والبلاد تحت الأحكام العرفية تكون وزارة ضعيفة ويكون مركزها محفوفاً بالخاطر فيكون أن يخونها التوفيق في حل مشكلة واحدة من المشاكل العديدة التي ستعرض لها يوميا لتصيح لتة الأمة بها. ويتفر منها الرأي العام مصحوباً بعوامل الفساد شديدة وسوء الظن وامع الاستشارة ولا يسلم منه إنسان.

وبعد أن أورد عدلي كثيرا من المحادثات التي دارت بينه وبين ملنر قال ما يأتي بنصه:

والآن وقد سافر اللورد ملنر وانتهت أحاديثنا معه على ما تقدم وأصبح هو ينتظر منا الجواب إما بقبول المفاوضة أو رفضها. فنرى أن الأمر يحتاج قبل البت فيه إلى تبصر في الحال وبحث دقيق فيما عن صحيح وجوهها متى إذا نبهتم فائدة من المفاوضة بعد الذي كان وما حصلنا عليه من تصريحات لنتهز با هذه الفرصة وأخذنا عدتنا للدخول فيها. وإلا تركناهم يفعلون ما يريدون والله عالم بعاقبة الأمور.

وقد خطر ببالنا أنه ربما كان من المفيد وجودي معكم أثناء تروبكم فيما نحيب به. إذ ربما احتاج الحال إلى مبادلة الرأي. وإلى مخاطبة ملنر في شأن من الشئون قبل البت في المسألة. فلا نضيع في ذلك الوقت الطويل الذي لابد منه في التراسل ونحن هنا وأنتم في باريس وملنر في لندن. فإذا كنتم ترون فائدة من حضوري إليكم عجلت سفري. إذ في نيتي السفر إلى أوروبا هذا العام في شهر مايو. فإذا ما وصلنا جوابكم بالموافقة في بحر هذا الشهر سافرت إليكم في العشرة الأيام الأولى من الشهر القادم....

١١ مارس سنة ١٩٢٠: بعد أن تناقش الوفد في موضوع خطاب عدلي ودرس اقتراحه بشأن حضوره إلى باريس أرسل الرئيس برقية إلى عدلي بالموافقة على قدومه موعد حضوره إلى باريس والترحيب بقدومه

فماذا كان رد عدلي على هذه البرقية؟

أرسل عدلي برقية إلى الرئيس سعد يوم ١٢ مارس يقول فيها:

«قبل تحديد موعد سفري من مصر أكون سعيدا إذا تسلمت منكم خطابا».

فدهش الرئيس وجميع أعضاء الوفد لهذا الطلب ذلك لأن التعجيل بالسفر كان بناء على الرغبة التي سبق لعدلي باشا نفسه أن أبداها في خطابه الأخير وفصلها تفصيلا.

وأرسل الوفد يوم ١٤ مارس رده إلى عدلي في برقية جاء فيها:

«إن الوفد يكون سعيدا برؤيته في أقرب فرصة لتبادل الرأي معه طبقا لخطابه».

وفي الوقت نفسه أرسل الرئيس خطابا رقيقا قصيرا إلى عدلي أبدى فيه دهشته من برقيته عن الإتيان بتفصيلات المسائل أعلم بها من المسئول.

والآن نترك عدلي مؤقتا بعد مخاوفه ويرتب أوراقه ويستعد للسفر إلى باريس بقصد الاتصال بالزعيم وبالوفد. وقد استقر رأي أغلبية أعضاء الوفد على تعطيل نشاط الوفد وعدم عقد جلساته لعدم جدواها حتى يصل عدلي..

ولابد هنا من وقفة أسجل فيها حقيقتين بارزتين:

الأولى: رأي الرئيس سعد في مسلك عدلي ومراسلاته المتعددة.

والثانية: الأزمة النفسية التي أصيب بها الرئيس من جراء زملائه في الوفد

رأي سعد في مسلك عدلي

في ليلة كنت أتناول العشاء وحدي مع الرئيس سعد كالعادة كل يوم. سألته السؤال الآتي:

«ما هو الأثر الذي وقع في نفسك من مسلك عدلي حتى الآن ومراسلاته المتعددة التي كثرت واستمرت حوالي شهر كامل».

فسكت الرئيس قليلا ثم قال: إنني أسأت التصرف وتسرعت فيما لا يعنيني،
ولكنه نظر إليّ باسما وقال هي شيء من الوزارة وهي كثير من التصرف منه.

أولا: أن الوفد لم يخطر بباله أن يدعو عدلي إلى الحضور إلى باريس إلا بناء على طلبه واقتراحه. وقد كرر عدلي استعداده للحضور إلينا فلما وافقنا على حضوره عاد يسألنا عن خطاب نبين له فيه أسباب رغبتنا في حضوره وهو صاحب الرغبة أولا وأخيرا. وهذه مماحكة غير لائقة بالرجال.

ثانيا: إن عدلي في الحقيقة لم يكن رسول الوفد لدى ملنر بل كان العكس رسول ملنر إلى الوفد، مهمته أن يقنع الوفد بالدخول في المفاوضة مع ملنر وهو يعلم أو يجب أن يعلم أن ملنر ولجنته لم يحضروا إلى مصر للمفاوضات وإنما للتحقيق في أسباب الثورة واقتراح نظام لحكم مصر في دائرة الحماية في حين أن الوفد يهدف إلى إلغاء الحماية وتحقيق الاستقلال. ومع هذا فقد أراد عدلي من الوفد أن يعود إلى مصر ليساعده على إنجاز مهمته على أحسن وجه بوضع تقرير شامل بعد سماع كل ذوي الرأي من المصريين. فلما فشل في هذه المهمة أراد المضي إلينا ليقنع المتصلبين منه بمفاوضة ملنر في أوروبا تحقيقا لرغبة ملنر في سماع الوفد حتى يخرج تقريره كاملا شاملا.

ثالثا: إن عدلي لم يقصر في إظهار رغبته في تشكيل الوزارة التي عرضت عليه بل استحسن الفكرة وعرضها فعلا على ملنر. وأن ملنر هو الذي عارض فيها. ويفضل إدخار عدلي وأصدقائه ليكونوا ذخرا للمستقبل.

رابعا: إن عدلي صرح للوفد في خطابه المؤرخ يوم ٢٩ مايو أن ملنر أكد له في أثناء مناقشته أن المقصود بالنص الإنجليزي هو الحكومة الدستورية. وهذا غير صحيح وينطوي على تضليل. فالحكومة الدستورية شيء جميل ومرغوب فيه. وأما الحكم الذاتي فهو دون الاستقلال التام الذي ننشده وقد يقوم نظام الحكم الذاتي جنبا إلى جنب مع الحماية.

خامساً: إن عدلي لم يخرج من عزلته التي لزمها بعد قيام الوفد إلا بعد أن زاره ملنر في بيته فرد له الزيارة وجرت بينهما تلك المحادثات التي كان من نتائجها إرسال برقيته التي طلب فيها منعنا من إبداء الرأي في تصريح لجنة ملنر حتى يصلنا خطابه.

سادساً: إن جميع مراسلات عدلي ناطقة بأنه إنما حاول إقناع الوفد بوجهة نظر ملنر.

سابعاً: إن جريدة التيمس نفسها قد نشرت أن عدلي سيسافر إلى باريس لا للراحة كما زعم وإنما لإغراء زغلول والوفد بالاتصال والمفاوضة مع ملنر.



الأزمة النفسية الأولى لسعد وبدء اعترافاته

في يوم ٩ أبريل ١٩٢٠: وهو اليوم التالي لصفيتي السابق مع سعد، حضرت لتناول الشاي معه كالعادة قبل عرضي عليه ما نشرته الجرائد الانجليزية الصباحية. فوجدته واجما صامتا على غير عادته. ولاحظت الانقباض ظاهرا عليه ظهورا ملموسا، فأردت انتاشه بكلام مشجع أو على الأقل حمله على الكلام فاكتشف سره الدفين.

قلت له: إنني لا أعرف زعيما في أي بلد من بلاد العالم يتمتع بثقة شعبية كاملة كشعبيتك. كلمة منك إلى الأمة بمقاطعة ملنر ولجنته فصامت المقاطعة كاملة شاملة ساحقة محطمة لكل آمال ملنر والمستعمرين. وما عرفت الأمة المصرية قبل الآن أنها جمعت على شيء بناء على رغبة رجل واحد. ألا ترى أن ثقة الأمة بك تشرف وتشعل رضعد ومن شأنها أن تدخل السرور على نفسك؟

الاعتراف الأول

فرفع سعد رأسه ونظر إليّ باسما ابتسامة هادئة لمحتها من وراء سحب الغم والكمد البادية عليه ثم قال:

إن الذين لا يعرفون حقيقة ما أعانيه من الهموم لتحزن ربما يحسدونني على ما تمنحه الأمة من الثقة بي. ولكنها ثقة الخصوم بخادمه لا ثقة القلم بإمامه. وأشعر أنني كلما فعلت ما يرضي أهواءهم رضوا عني وإذا بدا لي ما يخالف

مكرتهم انفضوا من حولي وانقلبوا عليّ . مركز ما أحوجه خصوصا وأنا في كثير من الظروف لا أستطيع أن أبوح بما في صدري دفعا للتهم عنهم. ولكنني على كل حال قد تذرعت بالصبر وسأستمر كذلك حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

لم أكن أتوقع أبدا أن لدى سعدا يمر في أزمة نفسية حادة ولم أجد لذلك مسوغا، ولم أكن أتصور أنه يعاني حالة نفسية أليمة، ويشقى بها إلى هذا الحد وأنا القريب منه المطلع على كل ما حوله، فلم أتمالك أن أسأله سؤالا صريحا لا أظنني كنت أجرأ على توجيه مثله إليه لولا حيرته واشفاقي عليه.

الاحتراق الثاني

قلت له: ما الذي يزعجك ويضنيك؟ هل بلغتك أخبار غير سارة من مصر؟

قال: كلا، ولكنني غير مطمئن إلى بعض أعضاء الوفد، لقد تشكل الوفد وليس بيننا توافق لا في التربية ولا في النشأة ولا في المشرب ولا في الأصل ولا في المزاج ولا في النظرة إلى المثل العليا. وليس المطلب الذي نسعى إليه متمكنا من نفوسنا بنسبة واحدة، بل هو ثابت مكين في البعض ومتردد هزيل في البعض الآخر، ولذلك فإننا لا نهتم بما يلزم الاهتمام الكافي. وبعض أعضاء الوفد لا يفكرون في شيء إلا عند اجتماعنا ومع ذلك حتى في الاجتماع لا يكون الاهتمام بما هو نحت البحث بدرجة واحدة ولا حتى متقاربة. ولا يعتذر الواحد منهم لصاحبه عن هفوة يهفوها أو سقطة يسقط فيها أو كلمة قاسية تصدر عنه. وهكذا تتغير النفوس ويقل التضامن وتتسع الصراحة وتتولد الوقاحة وتختل الموازين.

ولننظر إلى الجمعية المصرية بباريس قد خرجت على الوفد ثم دعت في الوقت عينه بعض أعضاء الوفد فلبوا الدعوة من غير أن يرجعوا إلى التشاور وأخذ رأيي فيما ينبغي أن يكون عليه مسلكهم أو حتى فيما يقولون. ولما شكوت ذلك إلى لطفي السيد ومررت له عن آلمي وخيبة أملي أتدري ماذا قال؟ إنه لم

بمتقدمه بل لم يعترف حتى بوجود أحد في حياتي، واكتفى بأن قال باسماً: "إن تصرفهم هذا ناشئ عن عدم الالتفات من جانبهم لا أكثر ولا أقل". فعجبت من هذا التمييز، وسكت على مضض.

هذا ولم تكن الحفلة التي حضرها هؤلاء الأشخاص مقصورة على سماع محاضرة، بل كان فيها طعام وشراب وكلام وانتقاد. تأمل يا كامل من كل هذا نستخلص منه أني في حالة توجب الأسى والأسف.

وفي يوم ٩ أبريل ١٩٢٠، خرج سعد للمشي والرياضة في غابة بولونيا وكنت معه كالمعتاد ومعي جريدة التيمس الإنجليزية لأطلعه على ما فيها عن مجيء سعد المصير.

الاعتراف الثالث

وبينما نحن نسير الهوينا قلت لسعد: "يخيل إلي أن لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي ومحمد محمود أخلص أعضاء الوفد وأكثرهم تراباً وأقربهم إلى عقلك وأعظمهم ثقة وأكثرهم لباقة. فهل أنا مصيب؟"

فسكت سعد قليلاً ثم قال: "يمكن.. يجوز.. ولكن اسمع ما حدث أمس، فقد طلب مني لطفي السيد أن يعود إلى مصر أسوة بمصطفى النحاس وويصا واصف والدكتور حافظ عفيفي فلم أوافقه وأظهرت استيائي به فامتثل راضيا، وبعد خروجه حضر عندي عبد العزيز فهمي وطلب كذلك العودة إلى مصر بحجة أن تقويه ضعفت وأن به أصبحت حالة منها. فقلت له إن هذه علة يمكن علاجها فامتعض وانفعل ونظر بوجهه بيديه وأرغى وأزبد فطلبت منه ألا يغضب إلى هذا الحد، فازداد وكان أشبه بالأسير في غضبه وحدته ثم قال: "أنا لا أقبل مثل هذه الإهانة ولست أقل منك معه أو غني إلى غير ذلك من العبارات"

وهنا قال لي سعد: "وماذا؟ كان يخطر مني أن أقول لإنسان يشكو من علة ماله

وسوء حاله وتفكيره في الثورة لهذا السبب !.

ثم سكت سعد قليلا وقال: موضع ذلك استعطفته كالطفل فيبكي.

وخرج عبد العزيز فهمي وترك سعدا ومعه سينوت حنا وحمد الباسل. ولم يستطع سعد إلا الاستمرار في الكلام مع صاحبيه حتى استنتجا من هيئته أنه متألم أشد الألم، فانصرفا بعد أن أظهرا إعجابهما بحلم الرئيس إزاء تهور عبد العزيز فهمي.

الاعتراف الرابع

وعندما ركبنا السيارة عائدين إلى مسكن الرئيس في الشانزليزيه أخبرني أن محمد محمود زاره مساء الأمس وأخذ يطعن في لطفي السيد وأخلاقه وصداقته المتينة بعدلي، فأظهر له الزعيم من صداقة لطفي له ومودته إليه ما لطف من حدته وطيب خاطره، ثم قال لي سعد وإني أشك في إخلاص هذا الرجل، وهو كثير الانتقاد لكل إنسان ومع ذلك فالأولى أن يكون لطف المعاملة خلقا وعادة في الإنسان.

وأذكر أنه ختم ملاحظاته هذه المرة بالعبارة الآتية:

إن حالة إخواننا لا تشجع على الاستمرار في العمل معهم فهم ليسوا جميعا على مبدأ واحد ولا يشعرون كلهم بشعور واحد، فهم يحبون ما لا أحب، وأحب ما لا يحبون، والأولى ألا أطاولهم في انصرافهم والعود إلى مصر من شاء أن يعود وسأنقل من منافستهم ولا أظهرهم على كل ما عندي.

هذه تصريحات بل اعترافات خطيرة مريرة لم تكن تخطر على بالي.

يوم ٦ أبريل -١٩٢٠:

قررت اليوم في نفسي قرارين:

القرار الأول: أن أمتنع مؤقتا عن التحدث مع سعد في السياسة وشئون

الوفد. فلا أوجه إليه سؤالا لا يثير مكامن صدره وإنما أحاول صرف ذهنه عن
السياسة والوفد بأن أحدثه عما قرأته وأقرأ له من بعض الفكاهات الأدبية الراقية
أو الحوادث التاريخية أو أحدث النظريات الفلسفية والعلمية. وبهذا أشغله عما
يقض مضجعه فيستريح مما هو فيه ومما يعانيه.

والقرار الثاني: أن أحاول اكتشاف ما عند أعضاء الوفد من أفكار ونيات
وعواطف نحو الزعيم وأقف على بواعثهم واتجاهاتهم وميولهم. إذ مازالت
كلمات سعد ترن في أذني «أنهم يعبدون ما لا أعبد، وأعبد ما لا يعبدون». ومعنى
هذا أن لهم أهدافا سياسية غير أهدافه أو كأنهم جميعا لا يخدمون قضية
واحدة هي قضية الاستقلال. ولعلي بمعلوماتي الجديدة أستطيع أن أوفق بينهم
جميعا.. هذا أقول؟.

فأنت يا موسى، من أنت الذي يستطيع أن يوفق بين: قيادات مصر التي صنعت
حركتها الثورية، أنا شاب في الثامنة والعشرين من عمري. وهم رجال مصر
المثقفون المصريون المتقدمون في السن، وكل أصغرهم سنا قد جاوز الخمسين
ومنهم فطاحل في الشئون المالية والقانونية والزراعية والإدارية والعلمية..

انصرفت فورا عن فكرة محاولة التوفيق تأدبا وتواضعا واستحياء.. ولكني
لم أنصرف ولن أنصرف عن محاولة استكشاف أفكارهم وعواطفهم
واتجاهاتهم والأسباب الداعية إلى خلافاتهم مع الزعيم.

يوم ٢ أبريل ١٩٢٠.

تحدثت اليوم مع محمد علي علوبة. إذ قابلته صدفة يتريض ماشيا في
الشانزليزيه. وهو رجل آية في الرقة والطيبة والابتسامة الحلوة. قابلته في
الساعة السابعة مساء، بعد أن تركت الرئيس الذي رغب في الاستراحة والنوم
مبكرا هذه الليلة. وظللت معه حتى الساعة العاشرة ليلا وقد تفضل فدعاني
للعشاء معه واستمر يتكلم طوال الوقت في أثناء السير في الطريق وأثناء العشاء

بعد العشاء وأنا أصغي إليه في اهتمام ظاهر، وصدري من ذلك نشاط المتكلم على قدر فهم السامع واهتمامه، وكنت أقول وأنا أصغي إليه حبذا لو بالأحرار من لم يروه.

بعد عرفت بفضل حديثه الطويل المفصل كل شيء. عرفت رأيه ورأي الأعضاء في زعيمهم سعد زغلول وفي بواعثه واتجاهاته

وعرفت رأيه في القضية المصرية وطريقة حلها

وعرفت رأيه في الأعضاء المكونين للأغلبية في الوفد ورأيهم في عدلي

عرفت أسرار الأزمة المصرية. عرفت كل شيء من وجهة نظره، فماذا قال

رأي علوبة واعترافاته الخطيرة

إني أسوق كلامه وأفكاره الآن في سلسلة متصلة الحلقات بغير الأسئلة التي وجهتها إليه في أثناء الحديث، فقد أجاب عنها وأريد أن أدمجها الآن في بيان متصل وذلك حتى تتكون للقارئ فكرة واضحة المعالم والحدود عن رأي معسكر الأغلبية داخل الوفد في باريس. قال:

"إننا من يوم أن تركنا مصر واستقر بنا المقام هنا في باريس وأبواب الجهاد والكفاح والعمل موصدة في وجوهنا. كان مؤتمر الصلح منعقدا عند وصولنا، وكان الأمل عندنا أن ندخله أو نتصل برؤساء الوفود والأعضاء الممثلين في المؤتمر وأن نطلعهم على قضيتنا وعلى حقنا في تقرير المصير والاستقلال، ولكن الأبواب أغلقت موصدة، ورفض رؤساء الوفود وأعضاؤها مقابلة أحد منا. وذلك بسبب نفوذ بريطانيا الساحق في هذا المؤتمر. فقد خرجت بريطانيا منتصرة في أعظم حرب في التاريخ وهي تملي الآن إرادتها على أوربا حتى إن رئيس جمهورية الولايات المتحدة اعترف بالحماية البريطانية قبل وصولنا إلى باريس، وأنكر على مصر حق تقرير المصير دون سائر العالمين. وفي رفض مقابلتنا

ودليل أن رؤساء الوفود قد نفذوا تعليمات بريطانيا لهم وعدم مقابلة أحد منا.
وظللنا نعمل في إعداد المذكرات الضافية وسرد الأسانيد القوية المثبتة لحقنا في الاستقلال والمثبتة لبطلان الحماية البريطانية المفروضة على مصر. وكانت كل هذه المذكرات والبيانات المرسلة في ظروف مسجلة إلى جميع رؤساء الوفود وأعضائها تلقى في سلة المهملات فلا يقرأها أحد إرضاء لبريطانيا. وكانت الجرائد الفرنسية في باريس وفي غيرها ترفض نشرها بل ترفض حتى مجرد الإشارة إليها. وأخيرا هدتنا الحيلة إلى نشر بعض هذه المذكرات في بعض الجرائد الفرنسية ولكن في شكل إعلانات، أي أن الجريدة تنشر فوق المذكرة كلمة «إعلان» وننشرها نص المذكرة وكانت تحاسبنا على كل سطر منشور كما هي الطريقة في نشر كل إعلان وقد تكلف الوفد بذلك آلاف الفرنكات. وحاول سعد مرارا أن يتصل بمسيو كليمنصو رئيس المؤتمر ورئيس الوزارة الفرنسية فرفض المقابلة. وانتهى مؤتمر الصلح بغير سلام لمصر. وانفض المؤتمر وعاد المؤتمرون إلى بلادهم. ونحن هنا في باريس لا ندري ماذا نعمل لخدمة قضية البلاد في الاستقلال التام.

«لأنه ما زالت موجودة في وجود الوفد والحركة الوطنية الثورية في مصر قد همدت واطمأنت وانتهت. وحكم الإرهاب البريطاني مستمر ينكل بأبنائنا وصحافتنا في مصر. والناس في مصر متوهمون أننا موجودنا في باريس يخدم قضية الاستقلال ونعمل للخلاص من كابوس الاحتلال. هذا والضمير العالمي ميت لا ينصف شعبا صغيرا ولا أمة مظلومة. وإنما ينتصر القوي على الدوام. فما العمل؟ هل نبقى في باريس بغير عمل مجد أو نعود إلى مصر أفرادا وجماعات؟ أو نستمر في إثارة الأوهام في مصر بأننا نعمل ونحن لا نعمل شيئا؟ هذه هي الأسئلة في الصميم».

«والآن فلنع أمام الوفد باب ترجو خوله ينتوقع الخير من ورائه»

«عدلي باشا يحاول فتح هذا الباب حتى ينجح في فتحه، وحمل ملنر على قبوله الاتصال بنا والمفاوضة مع الوفد في باريس أو في لندن ومهما يكن من أمر هذه المفاوضات فإنها على الأقل عمل وهي على الأقل تنتج لا محالة ثمرة خيرا من هذا البلاء والإيذاء والشقاء الموجود في مصر الآن.

فهل نرفض دخول هذا الباب ونرفض هذه المعاونة الجديدة ولا نقبل الاتصال بملنر إلا بشروط نمليها وقيود نفرضها مع أنه في حاجة ماسة إلينا ولسنا في حاجة إليه؟ وإذا رفضنا هذا كله ورفضنا غلبة ملنر في مفاوضتنا فكيف نخدم قضيتنا؟

هذه هي الأسئلة التي يتجادلها في الوفد ولم نصل فيها إلى نتيجة رغم ما هي عليه من وضوح وخطر ورغم أن الإجابة عنها من البداهة بمكان».

«سر المتاعب كلها سعد زغلول لأنه شديد الاعتداد بنفسه وبرأيه ولا يقيم وزنا لآراء الآخرين وسر المعارضة كلها سعد زغلول وهو غير عملي رغم خشونته وهو خيالي مثل أحمد عرابي».

«إن الأغلبية العظمى من أعضاء الوفد يرحبون بعدلي ويمجدون عدلي ويسطون بقرب قيام فرصة للعمل والاتصال بملنر ولجنته حتى أن تثمر المفاوضات والاتصالات خيرا تناله بلادنا التعسة».

«وسعد زغلول ومعه القلة فقط هما واصف غالي وسينوت حنا يعارضون ويمانعون. لقد سمعنا جميعا سعد حين هدد بعضنا بالعودة إلى مصر مثل لطفي السيد وعبد العزيز فهمي وأنا. وذلك لنقنع سعدا بأن مشروع عدلي في المفاوضة مع ملنر إذا رفض فلا محل ولا معنى لبقائنا هنا في باريس ولكن سعدا مع ذلك يعارض ولا يحب في المعارضة. ومن رأيه أن المفاوضة مع ملنر عبث في عبث لأنه ولجنته يريدان وضع نظام لمصر في دائرة الحماية ونحن نريد الاستقلال، والضدان لا يجتمعان».

منطق عجيب لا منطق عملي مصري حصيف.

وما يدرينا لعل المفاوضات تنتهي إلى النتائج السعيدة بالحجة والإقناع. أي إذا رأت الحكومة البريطانية أن الأمور تستقر في مصر بتنفيذ وإذا رأت أن مصالحها الحيوية تكون مضمونة أكثر ومركزها يكون أحسن.

فلماذا نسعى للمواجهة ونتشاءم. والسياسة كما نعلم هي فن الممكنات. ولكن سعدا يتعنت ويطلب المستحيلات ولا يريد أن يخضع للأغلبية داخل الوفد، فكيف نعمل معه؟ إنه يضيق ويسخط إذا عارض أحد منا رأيه أو فكرته، إن القضية المصرية ككل قضية.. ومثل أي مشكلة لا تحل إلا بوسيلة من ثلاث:

١ - إما الثورة والقوة، والثورة كما نعلم قد خفتت والقوة لا وجود لها.

٢ - وإما بالتقاضي أمام المحاكم أو المؤتمرات والمحافل الدولية وهي لا قيمة لها حتى لو وجدت.

٣ - وإما بالتراضي بين الخصمين، وهذا هو الطريق الأوحد أمامنا، ومصر وبريطانيا هما الخصمان، وفرصة التراضي سانحة الآن بفضل مسعى عدلي. فإذا رفضنا هذه الوسيلة الوحيدة فماذا يبقى أمامنا؟

عندئذ لم يتمالك سعد فهاج وماج وغضب واحتد، وقال إن جهاد الأمم لتحقيق حريتها وسيادتها واستقلالها ليس كقضايا الأفراد والهيئات وبعد أن تكلم طويلا كلاما حماسيا قذف سعد بكل جارحة في وجه أعضاء الأغلبية إذ قال: وأنتم تعملون ما لا أعمله فصرخ في وجهه عبد العزيز فهمي قائلا: «ماذا تقصد بهذا يا حضرة الرئيس» فقال سعد: «أنتم على ما يظهر تريدون أن تقبلوا أي حل للقضية المصرية، أما أنا فلن أرضى بغير الاستقلال التام بديلا، وليكن بعد ذلك ما يكون».

وهنا اضطربت الجلسة الأخيرة وتكهرب الجو وقد توترت الأعصاب وانفض الاجتماع والكل ساخطون.. ثم كانت آخر جملة قالها الأستاذ علوية عابة في

الخطورة ثم قال: لقد أصبحت أعتقد أن سعدا إ يعمل لمجده الشخصي وشهرته بين الجماهير. ولا يريد أن يحقق لمصر أية خدمة حقيقية أو يجد لها منفذا للخلاص من حالتها التعسة الحاضرة.

هنا سكت الأستاذ محمد علي علوبة إيذانا بانتهاء حديثه المتدفق الذي نزل علي نزول المطر مدرارا وظللت مطرقا ساكتا ولم يفتح الله عليّ بكلمة أقولها. لأن الحزن عصرني وعقل لساني.

ثم قال صاحبي: وما رأيك الآن. إني حريص أن أعرف رأيك؟

قلت: ألا تسمح لي بمعرفة شعوري قبل أن تعرف رأيي؟ قال إذن ما شعورك؟

قلت: إنني حزين وفي حيرة. ولكن هذا لا يهم. لأن المهم أن نعرف كيف يعمل الوفد بعد الآن لمجابهة مشكلة مصر وماذا سيكون عليه الحال عندما يصل عدلي إلى باريس

قال: لا أعرف. قلت دعنا نفكر.

وافترقنا بعد أن شكرته على ما تحمله من المشقة بإخطاري علما بالحقائق التي تسود الموقف الآن.



انقسام الوفد إلى معسك

٨ أبريل ١٩٢٠

لم أستطع أن أوي إلى فراشي ليلة أمس إلا حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأن نفسي كانت كالمرآة. وآثرت أن أسجل كتابة خلاصة وافية للحديث العاطفي المنطق القوي الذي أدلى به إلي الأستاذ محمد علي علوبة. فهنا فرغت من تدوينه استراحت نفسي نوما ما وشعرت بالتعب والاسترخاء. ومع ذلك لم أنم إلا غرارا.

واليوم.. استأنفت تفكيري مبكرا لأني يجب أن أهتدي إلى فكرة صائبة ومسلك حكيم. وإلا فسدت علاقتي بالرئيس أو بالأعضاء وما أريد إلا أن أكون على أحسن العلاقات مع الجميع. ويخيل إلي أنني عرفت كل ما أردت معرفته. فلا حاجة بي بعد اليوم إلى التحدث مع أحد من أعضاء الوفد إلا حديثا موجزا وذلك حتى لا يشعر سعد بأني شديد الاتصال بغيره. وأني لأراه في حالة من توتر الأعصاب وسوء الظن مما أخشى معها سوء المغبة.

لقد تجلى لي الموقف على الوجه التالي:

أن الوفد ينقسم الآن إلى معسكرين مختلفين.

الأول: معسكر الرئيس سعد ومعه أربعة أعضاء فقط عضوان انتقلا من باريس هما واصف غالي وسينوت حنا. وكلاهما لا يجيد العربية كلاما أو كتابة وإن كان

أولهما مفكرا عميق التفكير ومطلعا واسع الاطلاع، وكانا بارعا رصينا في اللغة الفرنسية. وثانيهما أبي سينوت بك من كبار أعيان أسيوط وعظمائها الأذكياء. ثم مجلس الثاني في القاهرة تحية الأستاذ مصطفى النحاس بك القاضي العادل والوطني المتحمس الشجاع، وجورج خياط من أعيان أسيوط وعظمائها وإن كنت لم أره ولم أسمع به قبل الآن.

والثاني: معسكر الأغلبية ويتكون من الأستاذ عبد العزيز فهمي بك نقيب المحامين والعالم الفقيه والجريء، والأستاذ لطفي السيد الكاتب الماهر والمفكر العميق والأستاذ محمد علي علوبة بك المحامي الصادق الفصيح المنطق، ومحمد محمود بك خريج جامعة أكسفورد والمدير الشهير السابق وعبد اللطيف المكباتي النائب المعروف للتصحيح المتوقد، وحمد الباسل باشا الصحفي حر العصبية والمعروف السابق في العموم والأستاذ علي ماهر القاضي العادل النزيه الشجاع، ومع هؤلاء في القاهرة الدكتور حافظ عفيفي المهاجر الرزين. والأستاذ ويصا واصف نقيب المحامين أمام المحاكم المختلطة والعجيب الغريب أني أرى كلا من هذين المعسكرين على حق، وهذا ما يحيرني. وما كنت أعرف قبل اليوم إلا أن هناك حقا وباطلا ولكني الآن أعرف أن للحق ناحيتين وكلتاهما صحيحة قوية في جهة

رأي سعد في مفاوضة ملنر

ويرى الرئيس سعد بحق أن ملنر مكلف من قبل الحكومة البريطانية بأن يجري تحقيقا لمعرفة أسباب الاضطرابات الدائرة في مصر ثم يقترح نظاما صحيحا لحكم مصر في دائرة الحماية البريطانية وليس له أن يخرج عن هذه الدائرة الضيقة وإلا خرج على التفويض الذي خلق لمهمته وخالف التعليمات التي حددت مهمته. فقد قبل ملنر بمقاطعة فريدة كاملة شاملة في مصر وعجز عن إصدار أي تحقيق لأنه كلما زار مصريا كبيرا أو حقيرا أو اتصل في الأرياف هو

وأعضاء لجنته، لم يسمع إلا جملة واحدة «اذهب إلى سعد والوفد». الوكلاء عن الأمة حتى عدلي ورشدي وثروت قد أحالوه على الوفد خشية سخط الأمة عليهم وعلى من يخرج على مبدأ المقاطعة. فملنر إذن فشل في مهمته ومن يستطيع مطلقا أن يقترح نظاما جديدا لحكم مصر يرضى عنه المصريون.

وحتى يتسنى له أن يقوم بمهمته يجب أن يتصل بسعد والوفد. وسعد لا يريد أن يساعد ملنر على أداء مهمته، وهي التحقيق وإقرار نظام جديد يوطد دعائم الحماية البريطانية، ومادام هدف سعد والوفد والأمة المصرية هو الاستقلال التام فهمت المفاوضات مع ملنر هي السبيل لتحقيق هذا الغرض السامي. ومادام الأمر كذلك فإن وساطة عدلي في تمهيد الطريق للجمع بين الوفد ولجنة ملنر توطئة لإجراء المفاوضات بينهما، إنما هي وساطة لخدمة ملنر ولجنته، لا لخدمة الوفد والأمة المصرية. وذلك لأنها وساطة من شأنها أن تساعد ملنر على إنجاح مهمته ووضع تقريره عنها بعد أن فشل حتى الآن في مهمته التي تعذرت عليه في مصر، وتعثرت جهوده في سبيل تحقيقها. وما كان لسعد ولا للوفد أن يساعد ملنر على إنجاز مهمة محصورة في دائرة الحماية، أما إذا تغيرت مهمة ملنر كلى لمفاوضة الوفد معه معنى آخر. لأن المفاوضة عندئذ تكون وسيلة قد تصح [illegible] للوصول إلى الاستقلال التام. أما إذا لم تتغير دائرة اختصاص ملنر ولجنة وإذا ظلت الحماية أساس اختصاصها ومهمتها والعمل في دائرتها. فالمفاوضة معه شر محض وتخدم ملنر ولا تخدم مصر

هذا منطق سعد، وهو منطق سديد سليم يحسبك الأطراف. أوافق عليه كل الموافقة.

ورأي الأغلبية في مفاوضات ملنر

وللأغلبية كذلك وجهة نظر وله منطق سليم فيه بعض الوجاهة والقوة إذ يتلخص في أن أبواب العمل كلها مغلقة في وجه الوفد وفي الأمة المصرية الآن

صبغته ملوثة على أمرها. وقد أخمد الانجليز الثورة المصرية بقوتهم العسكرية الطاغية في مصر وأصبح نيل الاستقلال بالقوة القاهرة مستحيلا وأصبح نيل الاستقلال عن طريق المؤتمرات الدولية مستحيلا كذلك. فلم يبق أمام الزعماء إلا المفاوضة أي محاولة التراضي بل التخاصم والتقاضي إلى آخر هذه الحجج والبراهين والسوابقات التي ساقها محمد علي علوبة في حديثه الطويل معي أمس. ولا حاجة إلى تلخيصها الآن خشية تشويهها بحذف فكرة منها رغم أن كلا من المعسكرين على حق من وجهة نظره الخاصة وكلاهما يتهم بالحجج القوية على وجاهة رأيه فإن كل معسكر يعتبر الآخر على باطل وضلال، وكلاهما عاطفي عاتو سيحطم سور الأعصاب. فلا حول ولا قوة إلا بالله

توتر أعصاب الوفد

٩ ابريل ١٩٢٠،

أخبرني الرئيس سعد أثناء تناولنا العشاء أن أرق الليلة الماضية طويلا ولم ينم غير ساعة واحدة. وكان كثير التفكير في أمر الخلاف الخطير الموجود في الوفد. وتحدث الشقاء عليه وشماتة الأعداء فيه وأنه في أشد حالات الأسف والهم والكدر رأيي لأزاء هذا فقد الشهية لكل طعام وهو يشكو باستمرار من الانقباض ومن الأرق. فقلت له: يا سيدي هون عليك أنت في حالة شديدة من توتر الأعصاب وحدة الأعصاب. الشعور بالتوتر هي التي تولد الانقباض والقلق وسرعة التعب وقلة الصبر وتوقع الكوارث وإذا استمرت هذه الحالة النفسية المظلمة من توتر الأعصاب ظهر لها أعراض جسمية مؤكدة مثل الأرق والصداع والشعور بالتعب المستمر والإسهالات وعسر الهضم فضلا عن ارتفاع الضغط الدموي.

فضحك سعد وقال: هل أنت دكتور؟ فقلت: هذا ما نشأت ومرضت في علم النفس، وأنا مشترك في إحدى المجلات الانجليزية وما أظنك يا سيدي تريد أن تقف مستطلا باستمرارك في توتر الأعصاب إن للكآبة ربا يحميها.

فقال سعد: معك حق.

قلت: وإن في العدد الأخير من هذه المجلة فصلاً عن القلق جاء فيه: أن القلق حالة نفسية منهجة تورث الانقباض والخوف، وسببها أن الإنسان يحاول أن يعيش في زمنين في وقت واحد، في الحاضر غير المستقر والمستقبل الذي يتوقع المكروه فيه. وإنه قد ثبت بالإحصاءات الدقيقة أن ٩٠٪ من المكاره التي يخشاها الإنسان في المستقبل لا تحدث مطلقاً، حتى لو وقع بعضها كان أثره أخف كثيراً مما توقعه الإنسان، وعلى كل حال فإن القلق وتوتر الأعصاب لا فائدة منهما على الإطلاق بل ضررهما محقق كما سبق أن بينت لكم بعضها، هذا فضلاً عن أنهما يصرفان الإنسان عن القدرة على التفكير السليم في مواجهة المضايق، ولا سبيل إلى حل المشاكل إلا بالتفكير الهادئ الذي يخلو من العواطف الهائجة نتيجة المخاوف أو القلق أو الغضب أو السخط أو الكره.

فقال سعد: هذا جميل وصحيح وما أكثر جهل الناس بهذه الحقائق. أفادكم الله.

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، وخرجت من حجرة الرئيس إلى مكتبي راضياً مغتبطاً بما قلت وبما سمعت.

ومضت بي تفكيري في هذا البلاء، بلاء انقسام الوفد على نفسه انقساماً خطيراً، فأدركت أن الرئيس ليس وحده المصاب بتوتر الأعصاب بل هذا التوتر موجود في شدة وعنف ومسيطر في قوة شاملة على كل عضو من أعضاء الوفد. وهذا في نظري هو سبب تفاقم الخلاف والسخط وضيق الصدور وعدم القدرة على التفهم ومواجهة النظر الأخرى. بل هو العلة الوحيدة في العناد وسوء التفاهم حتى بين الزملاء المتعاونين في خدمة قضية واحدة لتحقيق أمنية واحدة والمخلصين من عصبية واحدة.

هل هناك أية فائدة من أن تقول لإنسان: عليك بالتخلص من توتر أعصابك ومن قلقك واضطرابك. فالتفكير السليم والإرادة القوية كفيلان بكل ذلك في لمح البصر وينصلح حاله ؟ وهل يستطيع الإنسان بالإرادة القوية والتفكير السليم وحدهما أن يبرأ ويشفى؟ وهل يستطيع محموم أن يتخلص من ارتفاع درجة الحرارة في جسمه المريض بقوة إرادته وتفكيره السليم؟ وهل يستطيع الشاكي من الألم ضرسه أو صداع رأسه أن يبرأ ويشفى بالتفكير السليم والإرادة القوية وحدهما؟

كلا. فالنصيحة وقوة الإرادة والتفكير السليم كلها مجتمعة لا تجدي فتيلا. ولكن لابد من معرفة سر الداء قبل تشخيص الدواء. ثم العزم الصادق على تنفيذ ما كشفته المعرفة ثم إزالة سبب البلاء.

فهل هناك سر وأسباب متشعبة قوية لظاهرة توتر الأعصاب عند الرئيس وأعضاء الوفد جميعا كما تزعم؟

أجل. من غير شك. فما توتر الأعصاب وتحطيم الدعها بما رحبت من غير داع أو مسوغ

فكرت مليا فاهتديت إلى وجود نوعين من الأسباب وكلاهما لا يقل خطورة عن الآخر.

أسباب عامة لتوتر الأعصاب.

- أسباب خاصة لهذا التوتر في الأعصاب.

أ - الأسباب العامة:

أما الأسباب العامة فترجع إلى الحالة النفسية الموجودة في مصر والتي خلقت من ضخامة الخسوف ما يمرى بأسود السوف وأشد اليأس. رغما على خلاصتها.

مصر الحزينة

نحن الآن في النصف الأول من عام ١٩٢٠ والوفد المصري وكيل الأمة في باريس يطالب لمصر بالاستقلال ويسعى إلى هذا الاستقلال حيثما وجد إليه سبيلا وهو لا يجد أمامه في سبيل هذه الأيام. هذا حال الوفد المصري في باريس، فما هو حال مصر هذه الأيام؟

كان أسوأ حظا يتصوره إنسان، كانت مصر أتعس حالا وأشقى بالا وأبلى حياة من أية مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني. وفيما يلي صورة مصغرة لهذا الحال.

١ - الحماية البريطانية، مفروضة ومبسوطة على مصر، اعترفت بها كل الدول بلا استثناء ورفضها المصريون بلا استثناء وخضعت لها مصر خضوع المهزوم المكسور الجناح في عبث مكتوب ظاهر وشعور طافح بالذل والمهانة والعجز القاهر - ولا حول ولا قوة..

٢ - الجنود البريطانيون: اكتظت بهم البلاد المصرية من أقصاها إلى أقصاها فكانوا كالجراد المنتشر والوباء المستمر كانوا في المدن يسكنون وفي الريف يعسكرون، وعلى وجوههم يهيمون ويتجولون ويتسكعون، تراهم في الشوارع والميادين وفي الترام وفي السكك الحديدية وفي المحطات وفي دور السينما ومحال اللهو ليلا. وفي المطاعم والقهوات في جروبي وصولت. في السيارات والأحياء الوطنية والافرنجية على السواء. على الأرصفة أفرادا وجماعات في محال البيع مثل شملا وشيكوريل وسيسملوتي حتى في الحوانيت الصغيرة. في جميع محال بيع السندوتشات والمشروبات نهارا وليلا، في الحدائق العامة لا سيما حديقة الأزبكية وحدائق قصر النيل، لا يستطيع المصري أن يمتع عينيه في أي مكان أو يتجه إلى أية ناحية دون أن يرى بعض هؤلاء الجنود الانجليز، وما

ليتهم كانوا مؤدبين مهذبين بل منهم من يخطفون من الباعة المتجولين ويسرقون عنوة دكاكين بيع الفاكهة التفاح والبرتقال والموز وما إليها. ويعتدون بالضرب حتى من يعترض سطوهم ويطلقهم فضلا عن السباب والتفل والشتم بصيحة حتى من لا يرضيهم أو يرضى عن أعمالهم وسفالاتهم ورقاعاتهم وصفاقاتهم وسرقاتهم.

هذا ما حدث في مصر والاسكندرية وبورسعيد وعواصم البلاد.

وهم يحتلون ثكناتهم المنيعة في القلعة وقصر النيل والعباسية وهليوبوليس والمظلة والترع. هذا في القاهرة وحدها. ومثله في الاسكندرية وبورسعيد وكل منطقة القنال. ولهم أن يحتلوا أي مكان في البلاد المصرية إذا شاءوا!

ثم هم يطلقون من نوافذ ثكناتهم هذه يتفرجون على الغادين والرائحين من المصريين. يشتمون ويسخرون الناس بغير داع أو مسوغ سوى الوقاحة الأصيلة والسفالة التي تجري في دمائهم بغير داع ومسوغ سوى الوقاحة الأصيلة والسفالة التي تجري في دمائهم مجرى: ادع من رأس أو وادع من ضمير .

ثم هم على رؤوس الشوارع الرئيسية وغير الرئيسية بمدافعهم الرشاشة التي المظاهرات وتشتيتها بإطلاق النار عليها، وقتلهم الأبرياء من الطلبة والعمال المصريين ومنع الجنازات التي تسير في الشوارع لدفن القتلى من هؤلاء الطلبة والعمال المصريين..

ذكرياتي الخاصة

وأنت نفسي لا أنسى قبل مصرعي إلي عليهم أن شوارع القاهرة كانت مقفرة، وانعدمت فيها الحركة بعد غروب الشمس. وأذكر أنني كنت مرة عائدا من السينما ليلا حوالي الساعة التاسعة والنصف مساء من شارع عماد الدين إلى منزلي بالحلمية الجديدة مارا بشارع بولاق فميدان الأوبرا فميدان الأزبكية

شارع محمد علي، وكنت أتوجه الساتر على نفسه طوال هذه المسافة وقد مررت بأكثر من خمسين نقطة وقف في كل منها جنود بريطانيون بمدافعهم الرشاشة. ما الذي كان يمنع أحد هؤلاء أن يطلق الرصاص في ظهري أو في مواجهتي في تلك الليلة المقمرة ويقتلني كما قتل كثيرين من المصريين، قبله وبعده؟!

لست أدري. ولعله الحظ السعيد لا أكثر ولا أقل. لقد كانت مجازفة خطيرة جدا بل حماقة من جانبي أن أعود ماشيا هذه المسافة الطويلة إلى منزلي، ولكن ما الحيلة وأنا لم أجد عربة أستقلها إلى الحلمية الجديدة؟ حماقة أن أسير في شوارع عاصمة بلادي بعد غروب الشمس بقليل!؟

هل أنا في حاجة إلى أن أصف مشاعري من الهم والحزن والغيظ وتوتر الأعصاب أيضا؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر تفصيلات أخرى عن أعمال الجنود البريطانيين في مطاردة المتظاهرين والمشتبه فيهم إلى داخل الأزهر والجوامع والمدارس، أو ذكر الفظائع الوحشية التي ارتكبت في العزيزية والبدرشين وبعض القرى المصرية، أو وصف تفتيش المنازل نهارا وليلا على أيدي هؤلاء الجنود واعتقال الأبرياء من المصريين الوطنيين لأحقر وشاية أو أتفه تهمة أو أصغر شبهة والزج بهم في السجون بغير جريمة أو بعد محاكمة صورية ظالمة أمام المحاكم العسكرية البريطانية الغاشمة تحت الأحكام العرفية البريطانية وبلغ الأمر إلى أن أي مصري يوجد معه أو في بيته أي نوع من السلاح لم يسلمه يحكم عليه بالإعدام؟

كلا!! لا حاجة إلى تفصيل أكثر من ذلك لبيان البلاء الذي عانته وتعانيه مصر على أيدي هؤلاء الجنود البريطانيين، لأن هنالك بلاء أكبر وأفدح عانته وما زالت تعانيه مصر على أيدي الموظفين البريطانيين والضباط البريطانيين

الذين كانوا وما زالوا في خدمة الحكومة المصرية. ولابد هنا من بعض التفصيل لنكون فكرة عن مدى تحكم الأجانب في مصر والسيطرة الإنجليزية الكاملة الشاملة على الجيش والبوليس والإدارة الحكومية بعد كبيرها.

٣- الضباط البريطانيون:

يشغل هؤلاء الضباط كل الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية في الجيش المصري والبوليس المصري. ففي الجيش: السردار بريطاني ويعاونه عشرة من كبار الضباط البريطانيين. وكل رؤساء الأقسام في وزارة الحربية إنجليز. ومدير المخازن والمهمات ورؤساء الفرق والآلايات بل حتى وظائف الدرجة الثانية في الجيش. كلها في أيدي الإنجليز. وقد أحصى الشاعر حافظ إبراهيم أن عدد الضباط البريطانيين في الجيش المصري أكثر من عدد الضباط المصريين.

وفي البوليس حكمدار القاهرة ووكيله وكل وظائف الحكمداريين ووكلائهم في الإسكندرية وسائر المحافظات. إنجليز. ويعاونهم عدد كبير من مفتشي الأقسام البريطانيين كذلك.

٤- سيطرة الموظفين البريطانيين على الحكومة المصرية:

الحكومة في مصر. مصرية اسما وشكلا. إنجليزية حقيقة وفعلا. وليس هذا في سنة ١٩٠٠ وحدها بل منذ نكبت مصر بالاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ والإنجليز يعملون جاهدين على الاستيلاء على جميع الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية حتى لا يبرم أمر كبير أو هام إلا بعلمهم وموافقتهم أو بناء على أمرهم. وقد تم لهم ما أرادوا. فما هو الوضع الآن؟

يوجد في كل وزارة مستشار بريطاني هو في الواقع الوزير الفعلي وبجانبه وزير مصري لا يستطيع أن يبت في أمر من الأمور إلا بعد موافقة المستشار الإنجليزي. ولا يستطيع أن يخالف رأيه أو قرارا أصدره هذا المستشار وبجانب

هذا المستشار عدد هائل من الموظفين الانجليز يرأسون أقسام الوزارة وأقلامها وإداراتها وفروعها ومصالحها.

فمثلا في وزارة المالية، المستشار المالي الانجليزي هو المسيطر على مالية البلاد ويحضر جلسات مجلس الوزراء، فلا تعرض مسألة على المجلس إلا بعد موافقته على عرضها. ويعاونه ثلاث من السكرتيرات الانجليزيات وأربعة من السكرتيرين الانجليز أحدهم في مرتبة مدير عام مصلحة. أما مدير الخزانة ومدير المستخدمين ورئيس قسم المعاشات ومدير الإدارة العامة حتى سكرتير اللجنة المالية كل هؤلاء من الانجليز.. ومدير مصلحة المساحة ووكيلها ومدير الأموال المقررة ووكيلها، ومدير الأملاك ووكيلها وجميع السكرتيرين الماليين المنتشرين في جميع الوزارات. كل هؤلاء انجليز. وكذلك كان مدير الجمارك ووكيلها وعشرات غيرهم.

ويبلغ من سيطرة المستشار المالي على مالية البلاد أنه يتصرف فيها كما يشاء ويشاء له الهوى. فقد يجيز التصرف منها على بعض الشئون المصرية ويسرف بالصرف منها على بعض الشئون السودانية. ولعل أبرز دليل على ذلك أن الحكومة المصرية بفضل أوامر هذا المستشار المالي (١) أعطت حكومة السودان قروضا بلغت حتى عام ١٩٢٠ حوالي ٩ ملايين جنيه بفائدة ٣٪ ثم ألغيت الفائدة وأصبحت قروضا تسددها حكومة السودان في الوقت المناسب عندما تستطيع الوقوف على قدميها. (٢) وأعطت حكومة السودان إعانات سنوية تسد العجز في إيرادات السودان بلغت حتى هذا العام حوالي ٨ ملايين جنيه. (٣) وأعطت حكومة السودان مبالغ ضخمة للصرف منها على المنشآت العسكرية والمباني الحكومية والطرق والكباري والسكك الحديدية حتى صرح الحاكم العام في السودان بأنه قد تم بناؤها بالأموال المصرية ولا يعلم إلا الله والمستشارون الماليون البريطانيون كم ضاع في هذا السبيل على حساب الإصلاحات في مصر والتضحية بمصالح المصريين

وهكذا يحكم الانجليز السودان ويستغلونه لمصلحة الاستعمار البريطاني وتتولى مصر الفقيرة الصرف على السودان، وتتحمل تكاليف الحكم البريطاني له وهي قسمة ضيزى، لبريطانيا الحكم والغنم ولمصر الخسارة والغرم.

ولنضرب مثلاً آخر بوزارة الداخلية كدليل على سيطرة الانجليز الساحقة على حكم البلاد. فالمستشار البريطاني في الداخلية لا تحد سلطته وجبروته إلا استبداد المالي البريطاني، يعاونه عدد هائل من الموظفين الانجليز يسيطرون على كل الوظائف الرئيسية وغير الرئيسية. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر الوظائف التالية:

مدير الأمن العام، ووكيل مدير الأمن العام، ومدير كل قسم في وزارة الداخلية ووكلاؤهم وعدد ضخم من المفتشين الانجليز لزيارة الأقاليم والتفتيش على أعمال البوليس والعمد وطريقة الحكم واستتباب الأمن، ثم يعودون إلى وزارة الداخلية ليرفعوا تقاريرهم إلى عميدهم المستشار البريطاني دون مراقب فيرقي من المديرين والمحافظين والمأمورين من يشاء ويعاقب من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، كل هؤلاء بريطانيون عميدهم المستشار البريطاني بمرتبات أضعاف أضعاف ما يتقاضاه المصريون.

ومدير السكك الحديدية ووكيله ورؤساء أقسام السكة وجميع المهندسين عنده كلهم بريطانيون كذلك، وهكذا الحال في سائر الوزارات الأخرى ولكني أخص بالذكر منها وزارة الحقانية لأن الغريب الطريف فيها أنها تعين بعض القضاة والمستشارين في المحاكم من الانجليز.

٥- التعليم في مصر: جميع نظار المدارس الثانوية والعالية في مصر انجليز وجميع المواد تدرس باللغة الانجليزية. وقد ترتب على ذلك ازدياد مطرد في عدد المدرسين الانجليز في جميع المدارس هذه المدارس الابتدائية بل حتى المدارس

الأجنبية امتلأت بالمدرسين الإنجليز مع أن أصحابها مصريون. وهكذا سيطر الإنجليز على التعليم في مصر وجعلوه تعليما نظريا يستحيا لوظائف الحكومة ولا يؤهل لغير ذلك من شئون الحياة.

٦- الصحافة المصرية: خنقت بعبارات محبوكة بفعل قانون المطبوعات والرقابة الظاهرة والخفية والأموال السرية التي تستخدم لشراء الأقلام وضروب الرشى.

٧- الوزارة المصرية في ١٩٢٠: وزارة يوسف باشا وهبة ثم وزارة توفيق نسيم.

ولو أن كل وزير فيهما كان انجليزيا قحا ما فعلوا أكثر مما فعلت ولا تولى عمله، إنها تبذل نشاطا غريبا في مناهضة الحركة الوطنية واضطهاد المصريين المعروفين بحبهم للوفد وللاستقلال وتعطيل مصالحهم وتجارتهم وتستعمل الشرطة الشاهية في منع الاجتماعات وتضييق الخناق على الناس بكل ما أوتيت من قوة. ومن مظاهر جبروتها التعدي على الأزهريين بسوق العلماء والعمد والأعيان إلى القاهرة لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان الذي عينه الإنجليز ... الشكوى من جميع أنحاء البلاد بزيادة المعتقلين أو ملاحقتهم. وكانت النتيجة من كل هذا بأن الغليان والشعور الشامل بالضيق والسخط والانقباض وتوتر الأعصاب عند المصريين أجمعين.

٨- الامتيازات الأجنبية: خلقت من الأجانب المقيمين في مصر دولة مستقلة داخل مصر. فالأجانب لا يدفعون أي نوع من أنواع الضرائب، وإنما المصريون وحدهم يحملون أعباء كل الضرائب. والأجنبي يقتل أي مصري أو يسرقه أو ينصب أو يزور أو يضرب أو يرتكب أية جريمة يشتهيها ولا يحاكم أمام المحاكم المصرية، وإنما يحاكم أمام محاكم بلاده في الخارج.

هذه صورة مصغرة للمصنع الذي يمضي بمصر سنة ١٩٢٠. والذي قتل في أجله ثورتها عام ١٩١٩. فما زادت الجماهير ثورتها إلا تأججا مستمرا. والذي دفع الوفد المصري برئاسة سعد زغلول لتخليص البلاد من عدائه وويلاته ودس كل زمنه الحاضر المتحقق الناحق وأخطاره الجسام وما صاحبه من شتى الآلام

إن أعضاء الوفد ورجالات مصر يحاولون ويكافحون ويؤملون ولكنه أمل على استعباد. وأما الشيوخ فظلوا متشائمين على الدوام. وأما شباب الجيل الذي ان من صميمه فقد وطد العزم الأكيد على العمل المتصل للخلاص من كل عدا البلاد فإما حياة ... وإما استقلال تام أو موت زؤام وما قيمة الحياة إذا لم تكن عزيزة كريمة

لا تسقني ماء الحياة بذلة　　　بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم　　　وجهنم بالعز أطيب منزل

ب - أما الأسباب الخاصة لتوتر الأعصاب عند أعضاء الوفد فأهمها ما يلي.

١ - يأس كل عضو في الوفد في عدل الدول وإنصافها لمصر في قضيتها العادلة في الاستقلال فليس هناك ضمير عالمي كما يزعمون والمؤتمرات الدولية ليست إلا وسيلة لخدمة الدول الكبرى القوية وتحقيق مصالح المستعمرين الطامعين وقد كانت تجربة الوفد مع مؤتمر السلام في فرساي شديدة القسوة والمرارة.

٢ - الشعور بالضعف والعجز إزاء جبروت الإنجليز في مصر وعملائهم وقوتهم وسيطرتهم الشاملة على شئون البلاد وعدم القدرة على كبح جماحهم بأي شكل من الأشكال فضلا عن مساعدة الوزارة المصرية للإنجليز على زيادة التدخل في نشر الفساد والطغيان والإرهاب.

٣ - تعطيل مصالحهم الشخصية في مصر واضطهاد الحكومة لأولادهم

وأقرباتهم وأنصارهم ومصادرها لهم في أراضيهم، وأموالهم ومختلف شئونهم الخاصة.

٤ - الشعور بضيق ذات اليد بسبب الإقامة الطويلة في باريس وتكاليف المعيشة والحياة الكريمة المرفهة بها لم تكن في مثل مراكزهم وأعمارهم فقد بدأ كثيرون يشعرون بأن أموالهم الخاصة لا تساعدهم على الاستمرار طويلا على هذا المصروف المرهق.

٥ - الشعور بضياع المال والوقت معا باستمرار الإقامة في باريس بغير طائل أو بغير عمل ناجح أو ثمرة مجدية، لاسيما أن جرائد باريس لا تنشر لهم شيئا إلا إذا كان في شكل إعلان يدفعون ثمن كل سطر فيه. وما قيمة ما يكتبون وينشرون ومن هم الذين يريدون أن يقنعوهم؟ إنهم يعرفون الحقيقة المرة وهي أنه ليس أعمى من الذي لا يريد أن يرى.

٦- أغضب الأعضاء وأثار غضبهم تمسك سعد بالثقة كلها في الاستقلال، ومعارضته الشديدة لأي اتصال بلجنة ملنر والمفاوضة معها بحجة أنها تعمل لوضع نظام داخل الحماية وأغضب سعد وأثاره اعتقاده بأنهم يريدون إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وهو دون الاستقلال بكثير.

٧- عدلي (في نظر الأعضاء) هو المخرج الوحيد لهم من هذا المأزق وهو الذي فتح لهم بابا للخلاص من هذه الحالة النفسية، بينما (سعد) في نظرهم (جبار مستبد)، والاستمرار معه سيستمر بلا أمل في الخلاص مما هم فيه.

٨- الحالة الصحية المطوية عند أغلب أعضاء الوفد

الرئيس سعد مصاب بأمراض السكر والزلال والكلى وارتفاع الضغط، وعبدالعزيز فهمي مصاب بالبواسير، ومحمد محمود مصاب بمرض الكبد. وقد نجا منذ شهر واحد من مرض البرقان الذي خلف عنده اصفرارا في

الحسرة بكثرة الأمطار والشعور بالتعب المستمر. وبقية أعضاء الوفد لا يخلو واحد منهم من مرض أو مرضين. ويتناقش في الصباح ويشكو من تضاد الأعصاب.

هذه بعض الأسباب الخاصة، وتلك هي الأسباب العامة لتوتر الأعصاب عند جميع أعضاء الوفد المصري في باريس أو على الأقل عندنا أنا وأصحابي، وأكاد أعتقد أنها أسباب حقيقية وقوية ولا أرى تفسيرا للحالة غيرها.

فما العمل الآن؟

هل يعدل الرئيس موقفه كثيرا أو قليلا إرضاء لأغلبيته القوية من أعضاء الوفد؟

أو هل يخضع هذا العسكر لسعد زعيم الثورة ومعلمها وقائدها وخطيبها الساحر؟

وما الدور الذي سيلعبه عدلي بعد وصوله إلى باريس في حوالي ٢٠ أبريل؟

وما الدور الذي سيلعبه مثر شيخ المصريين بعد عودته الآن من اللندن؟

هذه أسئلة الجواب عنها لا يزال في ضمير الغيب.

ويشعب مصر يتجدد الأمل والتفاؤل رغم ما يعانيه من الآلام والاضطهاد والكرب وحكم الإرهاب.

وصول عدلي باشا إلى باريس

٢١ أبريل:

أمس وصل عدلي إلى باريس فاستقبله في المحطة أعضاء الوفد جميعا ولم يتغيب سوى لوطفي لمرضه من زكام وقد أناب عنه أحد الأعضاء في الوفد وحضر اليوم جميع أعضاء الوفد إلى مركز الوفد ومظاهر السخط بادية على

وجوههم، والنشاط ظاهر في حركاتهم، ثم حضر الرئيس سعد وعدلي فاكتمل الجمع وبدأ الاجتماع في جلسة حية متوسطة الأعصاب ومع ذلك لم يذكر أي هذه الجلسة جديد حتى أدونه وأسجله. وكل ما قيل فيها لا يخرج عما سبق لي تلخيصه.

٥ مايو

كثر اختلاط عدلي بالأعضاء فرادى وجماعات. وحضر جميع جلسات الوفد اليومية وكلف أحد الأعضاء بشرح ما دار بينه وبين ملنر ولجنته في الأحاديث بما لا يخرج في خلاصته عما ورد في خطاباته.

١٠ مايو

مضى على وصول عدلي إلى باريس أكثر من أسبوعين وجلسات الوفد تكاد تكون يومية والمناقشات مستمرة والنشاط عظيم وكثرة الحركة لم يسبق لها مثيل فيما رأيت من قبل. ومع ذلك لم أسمع فكرة جديدة جديرة بالتسجيل. وكل الكلام معاد، وكل الحجج مكررة في المفكرين في الوفد. فلا حاجة بي إلى تلخيصها الآن لعدم الحاجة إلى التكرار.

وفي أثناء لقائي سألني الرئيس: ماذا ترى وماذا تسمع هذه الأيام؟ فاتعجب لأني كنت أنا السائل دائما فأصبحت اليوم أنا المسئول. وعلي أن أجيب فقلت إن تيار الأغلبية في الوفد يزداد قوة ورغبة في المفاوضات بعد وصول عدلي. وسمعت أن المفاوضات مع ملنر آتية لا ريب فيها ولا مندوحة عنها. وقد أخبرني الأستاذ محمد علي علوبة أن أحد أعضاء لجنة ملنر في باريس الآن وأنه سيزورك قريبا ليدعوك إلى المفاوضات مع ملنر.

وهنا أراد الرئيس أن يختبر في امتحاني فقال: وماذا ترى أنت ما يدعو إلى أن أسمعه، فقلت هذا ما كنت على وشك أن أسألك عنه، فقال أجبني أولا، قلت لا

أي من الحكمة مقاومة هذا التيار الجارف. وماذا يضيرك أن يصير البلاد لو
ما رتبتهم وأقبلت على هذه المفاوضات وأنت واثق مائة في المائة بأنها فاشلة لا محالة
فترضى الأغلبية وتتحقق وحدة الوفد فسوالك الدخول في المفاوضة مع ملنر ثم
ترضى جميعهم في الوقت نفسه وتعرف حق الأمة في الاستقلال برفضك نتيجة
المفاوضات. وبهذا تكسب [illegible] مصر [illegible] ترضيهم أولا ثم ترضى ضميرك
في النهاية. ولا تضار بذلك قضية الاستقلال. وإذ فرضنا أن المفاوضة حوت على
أسس الاستقلال فإنها تكون بطبيعة الحال فرصة كنت تنتج أو الفشل في
النهاية. فالفرق إذن أنك قادم على مفاوضات نتيجتها الفشل الأكيد فاتهم سعد
وقال إحدى صحيح لم ماذا يقول الناس في مصر وخارج مصر سيقولون ذهب ملنر
إلى مصر فقاطعه المصريون وأطلقوا على سعد والوفد فلما جاء إلى سعد والوفد
قاطعه هؤلاء أيضا [illegible] لابد لي من تعديل خطتي موقفنا. فقد ذكرت لهم في الجلسة
الماضية أن ملنر لم يصدر حتى الآن أي تصريح يرضي [illegible] ويصح الاستناد إليه
في الدخول في المفاوضة معه فإذا باشرناها وجب علينا أن نعتقد بأننا داخلون فيها
قياما بواجب من اعتبارات ثانوية حتى لا يقال أن بابا فتح أمامنا كان يمكن الوصول
منه إلى مقصدنا من غير أن ندخله. وإن كنت شخصيا أعتقد أن هذا بعيد الاحتمال
إلى الدرجة القصوى فلا نخدع أنفسنا بالأوهام بل يجب أن نضع نصب أعيننا على
الدوام أننا أمام خصم قوي [illegible] يسعى بكل جهده
لاستمالة أشخاصنا إلى ما يريده فإن ملنا إليه وتمكنا من إقناع أصحابنا بما يريده هو
لا بما نريده نحن [illegible]
الأمة [illegible] أو نمكن على الأقل من إيقاع الشقاق في صفوفها وهي أيضا
نصيبة أعز [illegible] لأن الوقت [illegible] والخطب جلل)

وقد أظهرت اعتراضي [illegible] بكلام [illegible] وحكمته في تعديل خطته من
عدم تعديله في المبدأ. وقلت له إن محاربة الإنصات للأغلبية وتحديها شيء كريه إذ

تعلق الخلاف بخطة أو مسلك يتبع في العمل. ولكن الخلاف يكون ضررًا إذا تعلق بمسائل مبدأ أو ضمير أو مصالح عليا للبلاد. ومن الصعب وعسير القول أن يرفض الإنسان خطة أو طريقة للعمل وليس عنده ما هو خير منها يقترحه بدلها.

الخطوة الأولى في طريق المفاوضات

زيارة مستر هرست للزعيم

١٢ مايو ١٩٢٠م

قبيل ظهر اليوم حضر عدلي لزيارة الرئيس في شقته المطلة على شارع الشانزليزيه وكان مع عدلي مستر هرست (أحد أعضاء لجنة ملنر والمستشار القضائي لوزارة الخارجية البريطانية ومستر ولرند الانجليزي الأمريكي صديق عدلي باشا وصديق ملنر).

بعد تحيات الاستقبال الطبيعية الأولى بدأ الحديث بطريقة ظريفة طريفة.

نظر هرست إلى مجموعة كبيرة من الجرائد اليومية على مكتب الرئيس ثم قال:

- جرائد كثيرة!! هل تعب مصر على مطالعة كل هذه الجرائد؟

سعد: هي جرائد عربية كنت أتصفحها. هل تعرف العربية؟

هرست: بعض الشيء. [illegible] هو كل ما أعرفه من العربية. وفي نيتي أن أزور مصر مرة ثانية.

سعد: إذا نقابل هذه المرة بالترحاب.

وهنا شاع في الجو شيء من الرضا والابتسام. أزال ما في اللقاء من تحفظ [illegible].

بعد هذه المقدمة الطويلة بدأ الحديث الجدي فقال هرست: إن اللورد ملنر يحب أن يرى الرئيس وأعضاء الوفد، وأنه فكر أول الأمر في الحضور إلى باريس لمحادثة معكم لإيجاد حل للمسألة المصرية ولكن لورد ملنر مثقل بالأعمال وإذا حضر إلى باريس فإنه لا يمكن الإقامة بها أكثر من يومين أو ثلاثة وهي مدة لا تكفي للتفاهم بين الفريقين. وبعد أخذ ورد في هذا الموضوع قال هرست: إني بصفة شخصية مصرحاً من لجنة ملنر أطلب منكم ... مؤكد أنك وزملائك تذهبون إلى لندن للاجتماع بهذه اللجنة وإيجاد طريقة للاتفاق بين بريطانيا ومصر،

وسيمكنني الاكتفاء بهذه الدعوة إذا صح لي نشرها على هذه الصيغة.

وهنا اتفق الطرفان على فترة وجيزة من التأجيل، حتى يتمكن هرست من استشارة ملنر في أسلوب هذه الصيغة وحتى يتمكن الرئيس من استشارة زملائه أعضاء الوفد كذلك.

زيارة ثانية وثالثة من هرست للرئيس ودعوة ملنر للرئيس وأعضاء الوفد بمصر إلى لندن للمفاوضة

صباح الثلاثاء ١٧ مايو ١٩٢٠:

جاء هرست وعدلي إلى مسكن الرئيس صباح اليوم وكان معهما محمد محمود ولطفي السيد وأعلن هرست قبول ملنر نشر تلك الدعوة بالصيغة التي عرضها ثم انصرف على أن يعود في الساعة الثالثة بعد الظهر لإتمام الحديث وقد استشار الرئيس زملاءه أعضاء الوفد فوافقوا على قبول الدعوة وقبول الصيغة الخاصة بنشرها. وهنا اقترح الرئيس عليه أنه يكفي أن يسافر بعض الأعضاء إلى لندن للاتصال بلجنة ملنر والوقوف منها على ما ترمي إليه. فوعد الأعضاء بالتفكير في هذا الاقتراح ولكن الرئيس فاتحهم فيه، الرأي فوراً. فوافقوا عليه.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر عاد هرست فأبلغه الرئيس أنه قد تقرر سفر بعض أعضاء الوفد إلى لندن، وأن هذا مختص بتصحيحه باقي الأعضاء، فلم يبق شيء حتى الآن سوى توحيد بعض التصويبات الداخلية. فقال هرست إن لورد ملنر شديد الرغبة في مصادقة الرئيس شخصيا ويعلق على ذلك أهمية كبرى، ويسره كل السرور أن يرى الرئيس رغبة في كمال الاحتياط وحرصا على سرية العمل في الذهاب أو عدمه قال لهرست إنه سيجتهد في تذليل تلك الصعوبات ثم أضاف باسما ولكني إذا لم أتمكن من تذليلها فإني أعتذر إليكم من الآن.

ما معنى هذا؟ معناه أن الرئيس ما زال يحاول التوفيق بين رغبتين متعارضتين، رغبة الأغلبية في المفاوضة، ورغبته هو في عدم الاشتراك في هذه المفاوضة.

وقبل انصراف هرست طلب الرئيس ألا تتعرض المراقبة في مصر وبريطانيا لنشر كل ما يصدر من الوفد من بيانات وبلاغات وإباحة استعمال الشفرة في المراسلة بين باريس ومصر. فوافق هرست على ذلك وأبدى موافقته الشفوية كتابة بخطه وتركها عند الرئيس.

كيف تم اختيار الأعضاء الثلاثة المسافرين إلى لندن؟

في مساء ١٢ مايو

حضر عدلي يكن عقب جلسة الوفد المسائية وسأل الرئيس عمن يرى أن يختارهم من أعضاء الوفد لمرافقته إلى لندن. فقال الرئيس إنه يرى أن يسافر محمد محمود وعلي ماهر معه. فقال عدلي إن الغرض المقصود هو أن يكون الرئيس نفسه موجودا بالعاصمة على رأس البعثة. أما إذا كان الغرض مجرد الاستطلاع ومعرفة بعض الشيء، فإنه واثق من أنهما لن يعرفا أكثر مما قاله سابقا

ثم استطرد فقال:

-إذا كنت لا توافق على مصدرت أنت فلابد من وجود عبد العزيز فهمي أو لطفي السيد لأنهما في نظر الانجليز -مع الوفد-. أما محمد محمود فإن الانجليز يعرفون أنه حاقد عليهم لأنهم رفتوه من وظيفة المدير. فضلا عن أن نشاطه السياسي في أمريكا قد زاد في بغضهم له. وأما علي ماهر فغير معروف في نظرهم وليست له صفة كبيرة.

وهنا حضر محمد محمود فخرج عدلي وقال للرئيس في ملاحظته إنه يخشى أن يتدخل عدلي في شئون الوفد كثيرا، وإنه علم أن عدلي يريد أن يأخذ معه إلى لندن عبد العزيز فهمي ولا معنى لهذا التدخل وهذا الاختيار.

ثم اجتمع الوفد بعد ذلك بكامل هيئته وحضر عدلي الاجتماع كالعادة ودارت مناقشة طويلة حول من يذهب معهم إلى لندن مع عدلي (وهنا رأى الرئيس بعد تردد أن يتساهل مع عدلي في أخذ عبد العزيز فهمي أو لطفي السيد، فاختار الأول) واقترح الرئيس أن يسافر مع عدلي كل من عبد العزيز فهمي ومحمد محمود وعلي ماهر كما تقرر أن تكون مهمة المندوبين المسافرين هي:

- التأكد من أن الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعترف بالاستقلال الحقيقي لمصر مع احترام المصالح البريطانية المعقولة وضمان هذه المصالح على طريقة لا تمحو ولا تعطل هذا الاستقلال وتجعله حماية مستترة. ثم التأكد كذلك من أن لجنة ملنر تعتبر الوفد نائبا عن الأمة المصرية وممثلا لها وليس مصريا شاهدا في قضية تحقيق.

ووضع الرئيس صيغة الإعلان الذي يرسل إلى مصر لنشره في الجرائد بمناسبة هذه الدعوة بقرب سفر من تقرر سفرهم وهذا نصه

-دعت لجنة ملنر الوفد بواسطة أحد أعضائها سير هرست المستشار

القضائي بوزارة الخارجية البريطانية ذهاب إلى لندن للاجتماع بهم. وليبحث في إيجاد قواعد للاتفاق بين انجلترا ومصر فرأى قبل توجهه هناك أن يذهب بعض أعضائه ليوقفوا على حقيقة آراء الحكومة الانجليزية بالنسبة لمطالب الأمة في الاستقلال التام.

موقف أعضاء الوفد

وترجم هذا النص إلى الفرنسية. وهنا حضر عدلي متأخرا بعد أن تم طبعه وأعد للإرسال فقدم إليه للاطلاع عليه فتأمل فيه قليلا وأشار بحذف عبارة (المستشار القضائي) وعلل ذلك بأن هذا الوصف قد يحدث شيئا من التأثير في نفوس أعضاء اللجنة، فيفهمون أن الوفد لم يحاول بوسائل مستمرة التأثير أو الإيهام بأن الحكومة الانجليزية لها شأن بهذه الدعوة. فاعترض عليه الرئيس ولم يوافقه على رأيه وقال إن هذه الصفة حقيقة واقعة فلا مانع ولا ضرر من إثباتها لأن المعاون أسندت الدعوة في البلاغ إلى نفس اللجنة. ثم أضاف الرئيس في شيء من الانفعال إذا كان الاعتراض بتأثير مثل هذه الصغيرة فإن أملنا في نجاح المفاوضة يكون قليلا. وهنا انفعل عدلي أيضا وثارت مناقشة حادة في هذا المعنى انتهى فيها عدلي بأن بدرت منه كلمات اعتذر عنها للرئيس أخيرا. ورغبة في تهدئة الجو وافق الوفد على حذف هذا الوصف مجاملة لعدلي

حادثة بسيطة. ولكن معناها كبير. ومغزاها أكبر

- انتصر عدلي على سعد في أول خلاف
- ناصر أعضاء الوفد عدلي وخذلوا رئيسهم سعد
- جامل أعضاء الوفد عدلي على باطله. ولم يجاملوا رئيسهم سعد وهو على حق.

والدليل الحاسم على أن عدلي على باطل وسعد على حق هو أن المراقد

الإنجليزية نشرت تلك الدعوة في اليوم نفسه وذكرت أن الداعي هو جرست المستشار القضائي لوزارة الخارجية البريطانية وعضو لجنة ملنر. وفي هذا لقطع دليل على أن الأمر كان طبيعيا ولم يكن للضجة التي قامت في نفس عدلي أي مبرر، وأن الباعث عليها سخافة، أو غلو لا مسوغ له. حادثة بسيطة ولكن معناها كبير في مظهر الاختصار والمعاملة لعدلي. ومظهر التعلي في الخذلان لسعد ومعناها أكبر لأنها تنذر الرئيس سعد بأنه مهزوم الآن وبعد الآن هو على حق ويشعر عدلي بأنه منصور الآن وبعد الآن حتى وهو على باطل.

هذه الحادثة البسيطة ستفكر فيها أكثر سنو الرئيس وستقلق خاطره لا محالة وستصنه بتخوف في المستقبل من اشتراك عدلي في العمل معه ومع الوفد. وستحمله من ناحية أخرى يتشكك في إخلاص أعضاء الوفد وولائهم له. وبهذا يقل اعتماده عليهم واطمئنانه إليهم.

الأزمة النفسية الثانية للرئيس سعد

٣٠ مايو ١٩٢٠:

لاحظت من اليومين الأخيرين أن الرئيس سعد عابس شديد العبوس واجم ساهم ساكت فاتحت مظلم النفس شديد الانقباض قليل الميل إلى الحركة والكلام. فلفتني حاله وآلمتني وجهه خشية أن يكون مريضا أو على وشك الوقوع في مرض. فسألته أثناء شاركتي الشاي عن حاله وصحته فقال إنه كثير الأرق قليل النوم ثم أفضى إليّ بسره الدفين.

الاعتراف الخاص

قال: إنني كلما تذكرت ما كان من عدلي أخيرا وما كان منه في السنوات الأخيرة انقبض صدري. وعلا الكدر وجهي. ونزلت بالقلب حسرات متتاليات

واعترافي ما يعتري من حقد مرير لنفسه. أو من ارث ما حمل من الشعور تجاهه وأثار هذا الشعور في نفسي ما كان كامنا فيها من قبل بالنسبة لهذا الرجل الذي أعشرته في مواقف كثيرة، فوجدته أشد الناس قربا مني في الرخاء وأبعدهم عني في الشدة والضراء. وأكثرهم ترددا علي عند الحاجة إليك ويبدأ عنك وليوما حتك عند الغنى عنك

وكلما تذكرت ماضيه معي . ومواقفه شعرت بشعور شديد منه وقد حدثتني نفسي مرارا أن أقطع كل صلة به. ولكني أعود فأراجع نفسي وأذكرها بأن المذنب قد يتوب بعد ارتكاب الذنب وأن الوطن للناس أجمعين

يا لها من نفس كريمة يعز عليها نكران الجميل. ويصدوها التسامح ويكملها إيمانها وشعورها النبيل.

الاعتراف السادس

وفي يوم ٢١ مايو

قال لي الرئيس أثناء تناولي الغذاء معه بعد ظهر اليوم:

« لا تزال مسألة عدلي شاغلة مكانا في عقلي ونفسي، وقد صممت على شدة الاحتراس منه وألا أندفع بأي شيء قبل التثبت منه والتروي فيه. وأن أحذر الأصدقاء قبل الأعداء. لأنهم ينقلبون أعداء مني من غير انتظار، ولا ينبغي للمؤمن أن يلدغ من الجحر أكثر من مرة. لأن ذلك معناه سوء معية، ثم قال

«لماذا حضر عبدالعزيز فهمي عندي بعد ذلك الحادث بيومين أيضا مستعطفا؟

«لماذا ذلك بعد ما بدر منه في حقي من التصرفات الجامحة والمسقطات المخطئة وبعد أن ساعد عدلي في رأيه، وما أوحى ترويج محنته وتزييف آرائه

صح ظنى فلا تفسير لشلكه إلا خوفه من فشل المفاوضة. وهو غير الراغب فى انتهائها على أى وجه كان وسيكشف الاستقبال ما خفى فى الحال. والله عليم بذات الصدور.

إن الرئيس يعيش فى أزمة نفسية تكاد تكون سلسلة متعلقات ولا لاشك أن العوامل الرئيسية التى تسيطر على كيانه وجهاته هى المخاوف والعصبية والانقباض والغضب المكتوم والكراهية الشديدة لعدلى. والحقد على زملائه لشعوره بعدم إخلاصهم له ثم تآمرهم عليه. ولأنهم الأغلبية الساحقة فى الوفد. وفى قدرتهم أن يطيحوا على أمره كلما وقع خلاف وما أكثر وأخطر وجوه الخلاف بينهم هذه الأيام هذا فضلا عن شعوره بالعجز عن إقناعهم والعجز عن تأديبهم والعجز عن التخلص منهم وإذا اشتدت الرغبة فى الانتقام أو الخلاص مع الشعور باشتداد العجز عن إدراكها بلغ القلق أقصاه، والانفعال أشد مداه، وتضاعفت الأمراض فى النفس والجسم مما يتضاعف الشفاء بغير أمل فى النجاة أو الشفاء.

فما معناه لهذا الشيخ المهدم العليل من كل هذا البلاء وكل هذا الشقاء. فوالله إنى لمصرى حزين أشد الحزن لما يلقى من آلام مبرحة فى شيخه فى الفناء. وقد أصبح بعد بعض التخفيف من همه الدفين بالتصميم والاقامة لسكرتيره الخاص الذي لا يملك من الأمر شيئا. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مهمة المندوبين الثلاثة هى التأكد من أن الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعترف بالاستقلال الحقيقى لمصر مع احترام المصالح البريطانية الحقيقية على طريقة لا تمحو ولا تعطل هذا الاستقلال وتجعله حماية مقنعة. ثم التأكد كذلك من أن لجنة ملنر تعتبر الوفد نائبا عن الأمة المصرية الموجودة تتفاوض فى قضية تحقيق

سفر عدلي وأعضاء الوفد الثلاثة إلى لندن

في ٢٢ مايو

سافر عدلي والأعضاء الثلاثة (عبدالعزيز فهمي ومحمد محمود وعلي ماهر) إلى لندن وخطر على بال الرئيس بعد سفرهم أن تكون المفاوضة بواسطة قسم من الوفد يتألف من أولئك الثلاثة وهذا يرى لزوم مصاحبة إثنين من باقي الإخوان. وقد عرض هذا الخاطر على الأعضاء الباقين معه في باريس فاستحسنوه بعد مناقشة خفيفة . وخشي الرئيس أن يرتبط المتعربون بوعد يحاولون نتيجة منه بمقتضى يحضور جميع الأعضاء للمفاوضة ففكر في إعداد برقية يرسلها إليهم.

الرئيس سعد يرسم خطة لسير المفاوضات

في أثناء تناول الشاي قال سائلا راغبا في معرفة رأي الجماعة:

«أليس من الحكمة وحسن الاحتياط أن أبقى هنا. وأن يتوجه من سافروا (ومن ينضم إليهم من زملائهم إذا اقتضى الحال) للاستمرار في المفاوضة فيقبلون ما يعتقدون من أنه مقبول أو يرفضون ما يعتبرونه غير مقبول ويرجئون موضع الشك إلى ما بعد المراجعة

وإذا كانت لجنة ملنر لا تتفاوض إلا من نفسها، ولا تربط الحكومة البريطانية برأيها فماذا لا نكون الحال كذلك عندنا فنقسم أنفسنا قسمين:

قسم يفاوض ويجادل

قسم يراقب ويراجع

فيكون القسم الأول تحت تأثير المجاملة والجو والملاطفات.

ويكون القسم الثاني بعيدا عن كل مؤثر إلا مصلحة مصر وحقها. ما رأيك؟»

فاستحسنت الفكرة وقلت: حسنا لو أمكن تنفيذها على هذا الوجه البديع ولكن ملنر لن يقبلها لأنه على ما يظهر يريد التفاوض معك شخصيا لأنك الزعيم الأوحد البارز الشخصية الذي يثق باسمه أهل الريف والحضر في مصر.

وبعد الظهر في أخبرني الرئيس أن محمد محمود باشا زاره قبيل الظهر بيومين وأظهر له تعلقاً وعطفاً فوق العادة، ومكث طويلاً عنده ثم اقترح عليه أن أسافر مع الأعضاء الثلاثة إلى لندن بصفة فوتي في اللغة العربية والانجليزية فرفض الرئيس هذا الاقتراح وقال إنه في حاجة إلي ولا يمكنه الاستغناء عني. وسألني عما إذا كان محمد محمود قد كلمني في هذا الموضوع، فقلت له إن هذه أول مرة أسمع كلاما كهذا عن شخصي وإن محمد محمود باشا لم يخاطبني قط في هذا الموضوع ولو كان خاطبني لرفضت إذ كيف أتركك وأنا الوحيد لديك يطلعك على ما ينشر في الجرائد الانجليزية اليومية وأعرف دقائق مسئولياتك أمامك فاستمع والشرح عنده

وفي ٢٤ مايو

أرسل كرزون الرقعة التي فكر فيها أمس جاء فيها أنه ليس من الضروري أن تكون المفاوضة بكل الوفد - وربما يحسن الاكتفاء فيها بكم ومن يختص إليكم من الأعضاء هنا بوجودكم أن يكون هذا محفوظا لكم عند المناقشة غدا

ملنر يرفض مهمة المندوبين الثلاثة
والرئيس يبلغ المندوبين استحالة المفاوضة بعد هذا الرفض

وفي ٢٦ مايو

ورد تلغراف منهم بأن ملنر لم يقبل أن يتفاوض على "الأسلوب الذي عرضوه وهو "الاستقلال التام" وأن الثلاثة راجعون إلى يوم الخميس

وفي ٢٧ مايو،

ورد منهم خطاب مؤرخ في ٢٦ . يتضمن ما دار بينهم وبين ملنر . وملخصه أنه يريد الوصول إلى طريقة تعمل فيها بريطانيا بالاشتراك مع مصر لترقية شئون مصر. وأنهم اعترضوا عليه بأن هذا لا يتفق مع توكيلهم. وأن الوفد يستحيل عليه أن يبرم اتفاقا خارجا عن حدود هذا التوكيل ومع أنهم أكدوا له بأن المناقشة ستكون مبنية على أساس الاستقلال مع ضمان المصالح البريطانية وعدم الاتفاق مع أية دولة أجنبية اتفاقا من شأنه أن يضر بمصالحها تم نقل المناقشة على الأساس المذكور

فرد الرئيس عليه بخطاب (مستعجل) بأنه ما دام الأمر كذلك ولم يحصل التأكد من استعداد الحكومة البريطانية لقبول مطلب مصر في الاستقلال التام فلا يمكن المفاوضة معه بواسطة الوفد كله أو بعضه.

المندوبون يرفضون خطة الرئيس

وفي المساء وردت منهم برقية جاء فيها أنهم أخذوا المفاوضة لعدم استحسانهم فكرة تقسيم الوفد وزعموا أن مثل هذا التقسيم لم يسبق له نظير في المفاوضات ولعدم قبول ملنر له

فرد الرئيس عليهم فورا في نفس المساء ببرقية جاء فيها أن التقسيم لم يدع إليه إلا شدة الاحتياط وتحقيق الآمال ولا بدعة فيه، وطبيعة المفاوضات تقتضيه. ولا شأن للطرف الآخر في أمر هذا، مع العلم بأن التقسيم متعلق بالمعارضة التي لم يأت بعد وقتها ، ولم يكن في محادثاتهم مع ملنر ما يشجع على دخولها

الرئيس يعارض في السفر إلى لندن

وفي ٢٨ مايو،

أرسل المندوبون الثلاثة خطابا إلى الرئيس يلحون فيه كل الإلحاح على الوفد بأن يحضر إلى لندن للدخول في المفاوضة

ويلقي عليه مسئولية كبرى إذا هو تخلف عنها حتى على فرض أنهم لم
يحصلوا من لورد ملنر على تصريح آخر يكونون إنهم يعتبرون أن ما صدر منهم
من ملنر كاف للدخول في المفاوضة معه. وأن رفض المفاوضة يسيء إلى سمعة
الوفد أمام الرأي العام الانجليزي وأمام الأمة المصرية وقالوا إن عدلي باشا
أبلغهم بأن لورد ملنر صرح له صباح اليوم بأنه ليس لانجلترا مصالح تتعارض
مع استقلال مصر أو أنه لا يدعو الوفد ولا يشترط مشاهداء في قضية تحقيق
وإنما بصفته ممثل الأكثرية في مصر وأن ملنر يرى الاتفاق مع الوفد لأن في هذا
الاتفاق حلاً للمسألة المصرية وأن هذا الاتفاق ميسور..

انتهى. وصل هذا الخطاب في مساء ٢٩ مايو. بعد أن كان الرئيس في صباح
اليوم نفسه ٢٩ مايو قد عقد جلسة للوفد وكلف لطفي السيد أن يكتب خطابا
لمندوبي الثلاثة بلندن في معنى أن ملنر لم يأت بجديد في حديثه معهم حتى
الآن وأنهم يصروا على استمرار الحكومة البريطانية بالنسبة للمسألتين اللتين
حددهما الوفد كمهمة للتصريح وهما:

١- إلغاء الحماية وإعلان الاستقلال

٢- جلاء جيش الاحتلال عن مصر.

فكتب لطفي السيد الخطاب المطلوب وجاء إلى هذه الجلسة الصباحية وقرأه
على الأعضاء وفيه عبارة (وإنكم مع الجرأة التي ستستعملونها لم تعودوا بطائل)
فقال الرئيس (إنها لمصيبة أن أريد التصريح بما تم) اقترح تعديلها بعبارة أخرى
من عنده بالقلم وكتب لطفي السيد التعديل المقترح وظهر عليه ما يشبه الغضب
فالتفت الرئيس وقال له (مالك تغضب كلما أردت تغيير شيء من كلامك أو
كتابتك. كما يحتم أن أقرأ ما على التحرير. ولكن تعديل شيء في عباراتك ليس
فيه ما يحملك على الغضب وإذا كنت لا تريد أن تكتب فإني أكتب بنفسي) فمزق
لطفي السيد ما كتبه وخرج إلى القاعة المجاورة مغضبا فأملاني الرئيس ما أراد

وقرأ على الأعضاء، فأقروه وأمضاه الرئيس. ولما عاد لطفي السيد إلى الجلسة استعطفه الرئيس بكلمات طيبة فأظهر ارتياحه. ولكن منذ انصرافه ظهر منه ما يدل على استمرار تأثره وتألمه. وبعد انصراف الأعضاء من جلسة الصباح هذه قال لي الرئيس:

(عندما نلاحظ اجتماعاتنا هنا على حتم كلام ملنر معنا برضى أو بدون رضى في المقترحات منه، واجتماع المندوبين الثلاثة هناك على التفاصيل نحكم بأن قرار التقسيم كان قرارا حكيما. والله يدبر لنا خير الوسائط ويعصمنا من الخطأ)

كان هذا في صباح ٢٩ مايو.

وانصرف سعد وإخوانه وهم لا يعرفون ما يدبره لهم بعضهم مساء اليوم.

إذ في مساء اليوم نفسه ٢٩ مايو أي (قبل أن يصل إلى المندوبين خطاب الصباح) ورد خطابهم الذي يحمله تلغرافا (وهو المؤرخ ٢٨ مايو) وقد وقع على سعد وقوع الصاعقة وسبب له آلاما نفسية عنيفة.

ولاشك عندي في أن خطاب الصباح الذي أرسله الرئيس إلى المندوبين الثلاثة في لندن سيقع عليهم عند وصوله وقوع الصاعقة كذلك وسيسبب لهم آلاما نفسية عنيفة

والخلاصة:

١- أن الرئيس وصحبه في باريس يرون أن المندوبين الثلاثة لم يوفقوا مع ملنر وأنه لا داعي للتمادي في المفاوضات أو حتى في استمرار المحادثات. واعترض الرئيس بأنه لن يسافر إلى لندن إذ لا مبرر لذلك

٢- وأن المندوبين الثلاثة يلحون على الرئيس وزملائه بالحضور فورا إلى لندن للمفاوضة ويلقون عليه مسئولية كبرى إذا هو وزملاؤه تخلفوا ولم يستجيبوا لإلحاحهم.

المندوبون يتخذون قرارا حاسما

في ٢٠ مايو؛

ورد تلغراف بالشفرة من محمد محمود يقول فيه إنهم أجلوا المفاوضة والاتصال بلجنة ملنر حتى يحضر الوفد كله إلى لندن وأنهم لا يوافقون على تقسيم الوفد إلى قسمين: قسم يفاوض وقسم يراجع. وقالوا إن هذا التقسيم غير مقبول. فقال الرئيس إن هذا التلغراف جاف يدل دلالة ظاهرة على تأثر مرسليه تأثرا حملهم على كتابته بلهجة غير لائقة ثم تألم الرئيس لهذه المعاملة ولم يعرف لها سبباً.

ولكن السبب عندي واضح كالشمس في رابعة النهار. فلا يريد أن يتفاوض مع الرئيس بعد تقسيمها ولا يوافق على هذا التقسيم. فكيف يمكن أن يستمر المندوبون الثلاثة في مفاوضة مع ملنر وهو لا يريدهم ولكنه يريد سعد صاحب النفوذ الهائل على مصر والمصريين.

وفي أثناء التباحث قال لي الرئيس في براءة عجيبة أو سذاجة زائدة:

إن كل ما كتبناه إليهم كان في غاية الاعتدال، وعلى فرض أن هناك خطأ في فكرة التقسيم فإنه لا يترتب على ذلك تأجيل العمل لأن التقسيم مسألة داخلية محضة، ولا اختلاف بيننا على المبادئ الكبرى. فما لهم يغضبون كل هذا الغضب، وليس هناك شيء يمس أشخاصهم.

فقلت له: لعل سعد أظهر عدم الرضا عن استمرار اتصاله بهم والمفاوضة معهم وأنه هو الذي أجل كل اتصال وكل مفاوضة حتى تذهب أنت إلى لندن وهم لا يريدون أن يعترفوا أو يصرحوا بذلك كتابة.

فقال الرئيس: وأغلب الظن أن كلامك هذا صحيح.

وفي المساء جاءت منهم برقية حاسمة عيوب الموقف كله وقلبته رأساً على عقب، قالوا في البرقية: إنهم قطعوا عهداً للجنة ملنر بأن الوفد كله يحضر للمفاوضة، فلا مندوحة إذن من الحضور رضي الرئيس بذلك أو لم يرض.

وكانت هذه هزيمة ثانية للرئيس بعد هزيمته الأولى بشأن صيغة الدعوة ونشرها بعد تعديلها، وهو ثم لا مستقاها الإنساني لا على شيء من الزراية والألم لا تحمله من جهة الأمل العزيز.

الرئيس يخضع للأمر الواقع في كمد

دعا الرئيس إلى مسكنه أعضاء الوفد الموجودين معه في باريس وأبلغهم بأن الموجودين الثلاثة وعشر أشد سفر جميع أعضاء الوفد إلى لندن للمفاوضة ثم قال لهم:

وإني لست مرتاحاً إلى سفرنا جميعاً إلى لندن لأنني كما سبق أن بينت لكم أعتقد أن المفاوضة إنما هي للضرورة. والضرورات تقدر بقدرها وظروفها فالضرورة هي الخروج من عهدة المسئولية التي تلقيها ظروف الحال علينا وقطع ألسنة اللائمين، والبعد عن مواطن الندم، ولكيلا يكون للإنجليز حجة علينا في إبان المفاوضة والتفاهم معهم على تحقيق آمالنا.

برقية من مصر

ورد تلغراف من محمود باشا سليمان (رئيس اللجنة المركزية للوفد) بعد ظهر اليوم نصه الدعاء في المساجد والبيع بالنجاح في المفاوضات: وقد أحدث هذا التلغراف عند الباشا تأثيرا كبيرا

الدعاء «اللهم بارك للوفد في أعماله ونجح المفاوضات للوصول إلى الاستقلال التام، في الله رجاؤنا وهو نعم قوتنا تعالى الله عن الانتهاء، وجل الحق عن الفناء».

ولما قرأ الرئيس سعد هذه البرقية بهذا الدعاء حتى دمعت عيناه دمعة

السرور وتدفق في قلبه دافق من الطرب، وتمثل في خاطره اتحاد تلك القلوب المصرية الخافقة بالوطنية، وتصاعد تلك الأصوات الصاعدة بذلك الدعاء المتناصر. وقال لي:

«ما شاء الله. كلمة واحدة مما كنت نسمعه في تلك الاجتماعات. التواصل إلى الله بتلك التضرعات، ثقة ما أوفاها، ومنزلة ما أعلاها، ثقة لا يقوم بشكرها إلا تحقيقها، ومنزلة لا يستحقها إلا النفس تنسيها».

ثم دمعت عيناه مرة ثانية وقال: «ما دامت هذه الثقة كاملة، وهذه القوة من ورائنا شاخصة فلا حرج علينا أن نذهب إلى لندن، وأن ندخل في المفاوضات فإن وصلنا منها إلى غايتنا فبها ونعمت وإلا فواجب قضيناه وعهدة خرجنا منها، وسم نتادينا، ولوم بعدنا عنه».

هذا وقد أمرني الرئيس أن أرسل نص هذا التلغراف إلى المندوبين الثلاثة في لندن بعد أن أرفق به خطابا منه تضمن سروره به وتشجيعه له على الدخول في المفاوضة وأعلمهم كذلك أنه قرر السفر إلى لندن في يوم السبت ٤ يونيو ومرافقته بقية الزملاء فأرسلت الخطاب والتلغراف معا.

خطة جديدة للمفاوضات

في أول يونيو:

قال لي الرئيس:

«لقد فكرت طويلا في أن الأمل في نجاح قضيتنا كما هي أي تحقيق الاستقلال التام غير ميسور. فالأجدر بنا والأحكم أن نأخذ من ملنر ولا نعطيه. وأحسن الطرق أن نسأله عن المصالح البريطانية التي يريد أن يوفق بينها وبين أماني مصر في الاستقلال التام، والضمانات التي يطلبها لتلك المصالح. وقد أخبرت إخواني أن المفاوضة مع ملنر ليست في الحقيقة مفاوضة بالمعنى المعروف

وإنما هي بالتحفظ أقرب. وأنها تنتهي بتقديم تقرير لجنة ملنر إلى الحكومة البريطانية لا باتفاق بيني وبينها. رعيا لهيبة الوفد وكرامته، ولئلا يقال عليه قطع المفاوضة من عند ذاته.

بعضهم في باريس، وبعضهم في لندن، لقد قلت لهم كل هذا وذكرته، ولكن..

وهنا سكت الرئيس دقيقة ثم قال: «يحزنني أن ألاحظ أن حب الظهور له تأثير كبير في آرائهم. وأن لطفي السيد على اتصال يومي بمحمد محمود في لندن ومهما يكن من أمرهم، فقد أخلصت لهم نفسي وصرحت لهم بما يصالح عندي إبراء للذمة، وخروجا من العهدة أمامهم، والله يتولى أمري وأمرهم».

وفي مساء اليوم نفسه دعا الرئيس زملاءه للاجتماع به في مسكنه فحضروا جميعا. لطفي السيد ومحمد علي علوبة وواصف غالي وحمد الباسل. والكيلاني وسينوت حنا. وتباحثوا في هذا الاجتماع وفي نهايته ما عسى أن يطلبه ملنر من الوفد في هذه المفاوضات فأعد كل واحد من الأعضاء بيانا ببحثين، وفيما يلي خلاصة مما توقعوا أن يطلبه الإنجليز من الوفد:

١- أن تضمن بريطانيا استقلال مصر وحريتها

٢- ألا يكون لمصر ممثلون في الخارج

٣- ألا تعقد مصر معاهدات مع أية دولة أجنبية أخرى.

٤- أن تحتل الجيوش الإنجليزية بعض المواقع خصوصا في منطقة قناة السويس.

٥- أن يبقى السودان كما هو: شركة بين مصر وبريطانيا مع ضمان ورود الماء الكافي لمصر

٦- أن تقبل مصر أن تنوب بريطانيا عن باقي الدول في حق التشريع والتصرف وغيرها من الامتيازات.

٧- أن يكون لبريطانيا نوع من الرقابة على المالية المصرية.

٨- ألا تنضم مصر حزباً أو أحلافاً إلا من الإنجليز.

٩- يبقى الموظفون الإنجليز العاملون في أشغالهم في الحكومة المصرية.

١٠- انحصار الملك في السلطان فؤاد وذريته.

١١- أن يكون لبريطانيا مندوب سام في مصر.

١٢- لا يعدل نظام مصر الأساسي إلا بموافقة بريطانيا.

وأظهر المتداولون الآراء في هذه المذكرات، ما يقبل منها وما يرفض، ولم تتخذ الآراء، وإنما كانت كلها مسائل تحت النظر وموضع التفكير والمناقشة، ثم ذكر أن الرئيس قال: يجب أن نعرف مقومات الحماية وصفاتها اللازمة لها فعلاً، وأن نعرف مقومات الاستقلال ومستلزماته الحقيقية، لأن معظم هذه المسائل التي ذكرت هي الحماية، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يوافق الوفد على شيء منها.

سعد يقرر السفر إلى لندن

وفي ٢ يونيو:

ورد من المندوبين الثلاثة خطاب أظهروا فيه اغتباطهم بقرار الرئيس سعد بالحضور إلى لندن يوم ٤ يونيو، وقالوا إن ملنر أكد عبارة «أن الحماية البريطانية ليست متعارضة مع استقلال مصر» وصرح بأنه متنازل عن تسمية المفاوضات المقبلة.

وأرسل الرئيس تلغرافاً إلى محمود باشا سليمان رئيس لجنة الوفد المركزية هذا نصه:

«لاقى زملاؤنا في لندن قبولاً حسناً، ورأوا من التأكيدات ما بعث الأمل في الوصول بالمفاوضة إلى حل مرضٍ، ولهذا عزمنا أن نتوجه إليهم بحول الله يوم السبت القادم للدخول فيها مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أمالها والحجة من وضوح الحق، والمعونة من الله نصير الضعفاء».

وفي ٢ يونيو

ظهرت مقالة في جريدة التيمس الصادرة أمس جاء فيها أن زغلول قد عدل عن تشبثه وعدل عن خطته بعض مساعي عدلي، وأن اللجنة المركزية في مصر منقسمة على نفسها من أمر المفاوضة، فغضب الرئيس وثار من أجل هذه المقالة.. فكنت في نفسي أول الثابت فترة ثم بهم.

الأزمة النفسية العنيفة الثالثة

قال لي الرئيس اليوم أثناء تناول الشاي معه بعد ظهر اليوم:

«إنني كلما فكرت في قرب اتصالنا جميعاً إلى لندن ضاق صدري، وكلما تصورت عدلي وشخصه مع الأعضاء شعرت بشعور شديد منه، وامتلأت بسواد الظن وجهة الأمل بعد مدة أشهر من يوم قدومه ذاتي أصبحت بين أعضاء الوفد غريباً لا رئيساً، ويخيل إليّ أن الحسد يأكل قلوبهم، وحب الشهرة يفعم صدورهم، وهم جميعاً لا يستطيعون أن يتركوا فرصة تمر إلا انتهزوها للتظاهر وأرى أن من المتعب جداً أن أقلل بقدر الإمكان من الاجتماع بهم، ومن الكلام معهم وألا أطلعهم من أفكاري إلا على ما يمنعهم من الانحراف عن طريق الرشاد. وأني أفكر نفسي فلا أجد فيها ميلاً إلى سلطة أو رغبة في علو عند غير قومي، بل إني لا أجد أي عز في غير وطني إلا شعلاً واستظلالاً أما الفخر الذي أنشده فهو الوفاء بعهدي لأمتي. والسجن أحب إلي من أن أكون ثلاجة ولما. أسأل الله أن يبارك لي في هذا الشعور والإيمان، وأن يعصمني عن الغرور من خطرات الوهم ووسوسة الشيطان».

قل إني أن هذه كلمات فيها دموع ونفسية تقطر دماً. كيف يمكن أن نقال استعداد لهم والكلام معهم؟ إنه اليأس لقد عاد إلى الرئيس وجومه وسهومه وسهاده وضيقه وانفتاحه وقنوطه وسكونه، إنه نفسية حادة يصاحبها أرق ومخاوف وآلام وأمراض

مسيحية سامية. كل هذا حاربه هذا الشيخ الرعيب الوطني القديم وهو على أهبة السفر إلى بلاد الأعداء لا للنزهة ولكن للقيام بعمل شاق عليهم. إنه يعمل في جو مهموم محموم مسموم تزلزله وتهزه هزاً عنيفاً انفعالات نفسية قاسية هدامة، منها الأكبر الأصيل عدم اطمئنانه إلى زملائه وانعدام الثقة بينه وبينهم ثم سير زملائه في ركاب عدلي الذي لا يؤمن بالاستقلال التام ثم شعوره بالعجز الكامل عن إصلاح الحال فهو وحيد، وشاعر بأنه يعيش في عزلة غريبة، بل فيما هو شر من العزلة الكريهة إنه يعيش مع الشريك المخالف المتآلف المتشاكس والمتفاوض، الغدر المتعدد القوى الطامع المطلع، وهو أعزل من كل سلاح سوى سلاح الإيمان بعدل حاجته وكرامة أمته.

وفي يوم السبت ٥ يونيو ١٩٢٠ :

وفي الساعة التاسعة صباحاً سافرنا جميعاً إلى لندن (الرئيس والأعضاء الباقون معه في باريس) واستقبلنا في محطة فكتوريا الطلبة المصريون بالأعلام والهتافات في حماسة ملتهبة مدوية، وفي وسط الزحام الهائل كان المندوبون الثلاثة محمد محمود وعبد العزيز فهمي وعلي ماهر ولم يحضر عدلي وأرسل مندوباً لتحية الرئيس نيابة عنه.

وكان وصولنا إلى محطة فكتوريا حوالي الساعة السادسة مساء وفي حوالي الساعة الثامنة مساء حضر عدلي والمندوبون الثلاثة للاجتماع بالرئيس في غرفته في فندق كارلتون ساعة كاملة ثم انصرفوا من عنده ليستريح. وبعد انصرافهم أخبرني أن الحديث معهم لم يسفر عن جديد، وكانوا يتكلمون وهو يستمع وبعد الانصراف عاد عدلي وأخبر الرئيس أن ملنر يريد مقابلته في منزله غدا الأحد يوم ٦ يونيو الساعة العاشرة والنصف صباحا واتفقا على أن يحضر عدلي لاصطحابه في الساعة العاشرة غدا

انتهى الجزء الأول

الفهرس

بطاقة الفهرسة

سليم، محمد كامل

أسرار ثورة ١٩١٩ يرويها

مذكرات سعد زغلول / محمد كامل سليم

- القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠١٩

٢٤٠ ص ٢٠ سم - (كتاب اليوم)

تدمك ٠ - ١٨٠٦ - ٠٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ- العنوان

٩٦٢٫٠٤٨

رقم الإيداع 2019/4755

الترقيم الدولي I. S. B. N

978 - 977 - 08 - 1806 - 0




السعر
٢٥جنيها

